هو العزيز

معرفة الإمام (5)

بحوثٌ تفسيريّةٌ ، فلسفيّةٌ ، روآئيّةٌ ، تاريخيّةٌ ، اجتماعيّةٌ

حَوْلَ الإمامةِ و الولايَةِ عُمُوماً؛

و حَوْلَ إمامةِ و ولايةِ أميرالمؤمنين علىّ بن أبيطالبٍ و الأَئِمّةِ المعصومينَ سلامُ الله عليهم أجمعين خصوصاً

دُروسٌ إستِدلاليّةٌ و علميّةٌ مُتَّخَذةٌ من القرءانِ الكريم و رواياتٌ مأْثورةٌ عن الخاصّةِ و العامّةِ ؛ و أَبحاثٌ حَلّيّةٌ و نَقدِيّةٌ حَوْلَ الوِلايَةِ

لمؤلّفه الحقير:

السيّد محمّد الحسين الحسينيّ الطهرانيّ عُفِيَعنه

الدرس الحادي والستّون والثاني والستّون: دراسة لغويّة لمعنى الولاية

بِسْمِ اللَهِ الرّحْمَنِ الرّحِيمِ
وصلّى اللهُ على محمّد وآله الطّاهرين
ولعنة اللَه على أعدائهم أجمعين من الآن إلى قيام يوم الدين ولا حول ولا قوّة إلّا باللَه العليّ العظيم
قال الله الحكيم في كتابه الكريم :
هُنَالِكَ الْوَلَيَةُ لِلَهِ الْحَقّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا . (1)

جاءت كلمة الولاية . مصدراً كانت أو اسم مصدر . في القرآن المجيد بمشتقّات كثيرة نحو : الوليّ ، وتَوَلّى ، ووَالى ، وأَوْلِيَآء ، وَمَوالِيّ ، وَمُوَلّى ، وتوليّ ، وتَوْلِيَتْ ، وغيرها من المشتقّات . والآن ينبغي لنا أن نرى ما هو المعنى اللغويّ للولاية ، ثمّ نتحدّث عن تفسير الآية المباركة .

أمّا معنى الكلمة لغويّاً ، فهو كمايلي:

يقول في «المصباح المنير» : الْوَلْيُ مِثْلُ فَلْسٍ : الْقُرْبُ . وفي الفعل لغتان [أكثرهما] وَلِيَهُ يَلِيهِ بكسرتين [من باب حَسِبَ . يَحْسِبُ] ؛ والثانية من باب وَعَدَ [يَعِدُ] ، وهي قليلة الاستعمال ... ووَلِيتُ عَلَى الصّبِيّ وَالْمَرْأَةِ فالفاعل والٍ والجمعُ وُلَاةٌ . والصبيّ والمرأة مَوْلِيّ عَلَيْهِ ... والوِلَايَةُ بالفتح والكسر النّصْرَةُ . واسْتَوْلَى عَلَيْهِ غلب عليه وتمكّن منه .

وجاء في «صِحاح اللغة» : الْوَلْيُ . القرب والدنوّ . يقال : تباعَدَ بَعْدَ وَلْيٍ ؛ وكُلْ مِمّا يَلِيكَ ، أَيْ : مِمّا يُقَارِبُكَ ؛ إلى أن يقول : والوَلِيّ ضدّ العدو ، يقال منه تولّوه . والمَوْلَى المعتِق ، والمتَق ، وابن العمّ ، والناصر ، والجار . والوَلِيّ الصهر ؛ وكُلّ مَنْ وَلِيَ أَمْرَ واحِدٍ فَهُوَ وَلِيّهُ . إلى أن يقول :

والوِلَاية بالكسر السلطان ؛ والوِلَاية بالكسر والفتح : النصرة ؛ وقال سيبويه : الوَلَاية بالفتح المصدر ؛ وبالكسر الاسم مثل : الإمارة والنِقابَة ؛ لأنّه اسم لما تولّيَته وقمتَ به ؛ فإذا أرادوا المصدر فتحوا .

وجاء في «أقرب الموارد» : وَلَاهُ وَ وَلِيَهُ يَلِيهِ ، من باب ضَرَبَ يَضْرِبُ وَحَسِبَ يَحْسِبُ ، والأوّل قليل الاستعمال ؛ [والمصدر] وَلِي ، أي دنا منه وقرب يقال : جَلَسْتُ مِمّا يَلِيهِ ؛ أي يقاربه ؛ ويقال : الْوَلِيُ حُصُولُ الثّانِي بَعْدَ الأَوّلِ مِنْ غَيْرِ فَصْلٍ .

وَلِيَ الشّيءِ وَعَلَيْهِ وِلَايَةً وَوَلَايَةً : ملك أمره ، وقام به . أو الوِلَايَة بالفتح والكسر الخِطّة والإمارة والسلطان ؛ ووَلِيَ فلَاناً و عَلَيْهِ : نصره ، ووَلِيَ فُلَاناً وَلَايةً : أَحبّه ؛ ووَلِيَ الْبَلَدَ : تسلّط عليه .

والوالي اسم فاعل ، ومنه : والي البَلَد للمتسلّط عليها و حاكمها ، لأنّه يلي القوم بالتدبير والأمر والنهي ؛ والجمع وُلَاة . والوَلَاءُ كسماء : الملك ، والمحبّة ، والنصرة ، والقرب ، والقرابة .

والوَلَاءَةُ بالفتح : القرابة ، والوَلَايةُ بالفتح : مصدر ؛ وهي أيضاً بمعنى البلاد التي يتسلّط عليها الوالي ، والجمع : وَلَايَاتٌ .

والوِلَايَةُ بالكسر : الخِطّة ، والإمارة والسلطان ؛ والبلاد التي يتسلّط عليها الوالي ، وهذه مولّدة .

والوَلِيّ كغنيّ : المطر يسقط بعد المطر ، أو المطر بعد الوسمي ، والجمع : أَوْلِيَةٌ ، والنسبة إليه : وَلَوِيّ . وفي «المصباح» : «الوَلِيّ فعيل بمعنى فاعل من ولِيَهُ إذا قام به ؛ ومنه : «اللَّهُ وَلِىّ الَّذِينَ ءَامَنُوا» ، والجمع : أَوْلِيَآء ؛ قال ابن فارس : كُلّ مَنْ وَلِيَ أَمْرَ أَحَدٍ فَهُوَ وَلِيّهُ ؛ وقد يطلق الوليّ على (المُعْتِق) ، و(المُعْتَق) ، وابن العمّ ، والناصر ، وحافظ النسب ، والصديق ، ذكراً كان أو أُنثى . وقد يؤنّث بالهاء فيقال : هي وَلِيّةٌ ؛ قال أبو زيد : سمعتُ بعض بني عقيل يقول : هُنّ وَلِيّاتُ اللّهِ وَ عَدُوّاتُ اللّهِ وَ أَوْلِيَاؤُهُ وَ أَعْداؤُهُ . ويكون الوليّ بمعنى مَفعول في حقّ المطيع فيقال : «الْمُؤمِنُ وَلِىّ اللهِ» .

وجاء في «مجمع البحرين» : أَوْلَى النّاسِ بِإِبْرَ هِيمَ [2] يَعْنِي : أَحَقّهُمْ بِهِ وَأَقْرَبَهُمْ مِنْهُ ، مِنَ الْوَلِيّ ؛ وَ هُوَ الْقُرْبُ .

وقوله تعالى : هُنَالِكَ الوَلَيَةُ لِلَهِ [3] هي بالفتح : الربوبيّة . يعني : يومئذٍ يتولّون الله ويؤمنون به ويتبرّأون ممّا كانوا يعبدون .

والوَلَاية بالفتح أيضاً : النصرة ؛ وبالكسر : الإمارة ، مصدر وَلِيتُ ؛ ويقال : هما لغتان بمعنى الدولة . وفي «النهاية» : هي بالفتح : المحبّة ، وبالكسر : التولية والسلطان . ومثله الوِلاء بالكسر . عن ابن السكّيت .

والوَلِيّ والوالي : وكلّ من ولي أمر أحد فهو وليّه .

والوَلِيّ : هو الذي له النصرة والمعونة .

والوَلِي : الذي يدبّر الأمر . يقال : فُلاَنٌ وَلِيّ الْمَرأَةِ إذا كان يريد نكاحها .

ووَلِيّ الدم : من كان إليه المطالبة بالقوَد .

والسلطان وليّ أمر الرعيّة ، و منه قول الكُمَيْت الشاعر في حقّ أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام :

وَنِعْمَ وَلِيّ الْأَمْرِ بَعْدَ وَلِيّهِ
وَمُنْتَجَعُ التّقْوَى وَنِعْمَ الْمُقَرّبُ

وقوله تعالى : اِنّمَا وَلِيّكُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَالّذِينَ ءَامَنُوا الّذِينَ يُقِيمُونَ الصّلَوةَ وَيُؤْتُونَ الزّكَوةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ . [4] نزلت في حقّ عليّ (بن أبي طالب) عليه السلام . عند المخالف والمؤالف حين سأله سائل و هو راكع في صلاته فأومأ إليه بخنصره اليمنى ، فأخذ السائل الخاتم من خنصره ؛ ورواه الثعلبيّ في تفسيره .

قال الشيخ أبو عليّ : والحديث طويل ، و فيه أنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم قال : اَللّهُمّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ، وَيَسّرْ لِي أَمْرِي ، وَاجْعَلْ لِي وَزِيراً مِنْ أَهْلِي ، عَلِيّاً أَخِي ، أُشْدُدْ بِهِ ظَهْرِي .

قال أبو ذرّ : فوالله ما استتمّ الكلام حتّى نزل جبرئيل عليه السلام فقال : يا محمّد ! إقرأ :

إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ .

قال [أبوعليّ] : المعنى : الذي يتولّى تدبيركم ويلي أُموركم ، الله ورسوله والذين آمنوا ، الذين هذه صفاتهم ، الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون .

قال الشيخ أبو عليّ : قال جار الله (5) : إنّما جيء به على لفظ الجمع . وإن كان السبب فيه رجلاً واحداً . ليرغّب الناس في مثل فعله ، ولينبّه أنّ سجيّة المؤمن يجب أن تكون على هذه الغاية من الحرص على البرّ والإحسان . ثمّ قال الشيخ أبو عليّ : وأقول : قد اشتهر في اللغة العبارة عن الواحد بلفظ الجمع للتعظيم ، فلا يحتاج إلى الاستدلال عليه (من قِبل جار الله) .

فهذه الآية من أوضح الدلائل على صحّة إمامة عليّ (بن أبي طالب) عليه السلام بعد النبيّ (الأكرم) صلّى الله عليه وآله وسلّم بلا فصل .

ونقل أنّه اجتمع جماعة من أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم في مسجد المدينة ، فقال بعضهم لبعض : إن كفرنا بهذه الآية ، كفرنا بسائرها ! وإن آمنّا ، صارت فيما يقول ، ولَكِنّا نَتَوَلّى وَلَا نُطِيعُ عَلِيّاً فيما أَمَرَ ، فَنَزَلَتْ : يَعْرِفُونَ نِعْمَةَ اللَهِ ثُمّ يُنْكِرُونَهَا .

وقوله تعالى : النَّبِيّ أَوْلَى بِالْمُؤمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ (6) روي عن الإمام الباقر عليه السلام أنّها نزلت في الإمرة . يعني في الإمارة أي : هو صلّى الله عليه وآله وسلّم أحقّ بهم من أنفسهم حتّى لو احتاج إلى مملوك لأحد هو محتاج إليه ، جاز أخذه منه .

ومنه الحديث : النَّبِيّ صَلّى اللَهُ عَلَيهِ وَآلِهِ وَسَلّمَ أَوْلَى بِكُلّ مُؤْمِنٍ مِنْ نَفْسِهِ وَكَذَا عَلِيّ مِنْ بَعْدِهِ .

وقوله تعالى : لَمْ يَكُن لّهُ وَلِىّ مِنَ الذّلّ . (7) الوليّ ما يقوم مقامه في أُمور تختصّ به لعجزه ، كوليّ الطفل والمجنون .

[و بناءً على هذا] فيلزم أن يكون محتاجاً إلى الوليّ ، وهو محال لكونه غنيّاً مطلقاً .

وأيضاً إن كان الوليّ محتاجاً إليه تعالى لزم الدور المحال ، وإلّا كان مشاركاً له [وكلاهما محال] .

وقوله تعالى : أَنتَ وَلِيِّ فِى الدّنْيَا وَالْأَخِرَةِ (8) أي : أنت تتولّى أمري في الأُلى والعُقبى ، وأنت القائم به .

وقوله تعالى : اللَهُ وَلِىّ الّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُم مّنَ الظّلُمَتِ إِلَى النّورِ (9) .

قال الصادق عليه السلام : يَعْنِي مِنْ ظُلُمَاتِ الذّنُوبِ إِلَى نُورِ التّوْبَةِ وَالْمَغْفِرَةِ لِوَلَايَتِهِمْ كُلّ إمامٍ عادلٍ مِنَ اللَهِ .

وَالّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَآؤُهُمُ الطّغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مّنَ النّورِ إِلَى الظّلُمَتِ (10) .

قال : «إنّما عنى بهذا أنّهم كانوا على نور الإسلام ، فلمّا تولّوا كلّ إمام جائر ليس من الله ، خرجوا بولايتهم إيّاه من نور الإسلام إلى ظلمات الكفر ، فأوجب لهم النار مع الكفّار» .

وجاء في «النهاية» لابن الأثير قوله : «في أسماء الله تعالى الوَلِيّ ، وهو الناصر . وقيل : المتوليّ لأُمور العالم والخلائق القائم بها .

ومن أسمائه عزّ وجلّ الوالي ، و هو مالك الأشياء جميعها المتصرّف فيها . والوِلَاية تشعر بالتدبير

والقدرة والفِعل . وما لم يجتمع ذلك فيها ، لم ينطلق عليها اسم الوالي [إلى أن يقول:]

وقد تكرّر ذكر المَوْلَى في الحديث : وهو اسم يقع على جماعة كثيرة ، فهو الرّبّ ، والمالِكُ ، والسَيّد ، والمنْعِم ، والمُعْتِق ، والناصِر ، والمُحِبّ ، والتابع ، والجار ، وابنُ العَمّ ، والحَلِيف ، والعَقيد ، والصِهْر ، والعَبد ، والمُعْتَق ، والمُنْعَمُ عَلَيْهِ ، وأكثرها قد جاءت في الحديث ، فيضاف كلّ واحد إلى ما يقتضيه الحديث الوارد فيه .

وكلّ من ولي أمراً أو قام به فهو مَوْلَاهُ وَوَلِيّهُ .

وقد تختلف مصادر هذه الأسماء . فالوَلَاية بالفتح في النَسَب ، والنُصْرَةَ ، والمُعْتِق . والوِلَاية بالكسر في الإمارَةَ ، والمُعْتَق . والمُوالاة من الفعل والَى الْقَوْمَ . ومنه الحديث [عن رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم] : مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَعَلِيّ مَوْلَاهُ . ويحمل [المَوْلَى في هذا الحديث] على أكثر الأسماء المذكورة .

قال الشافعيّ : يعني بذلك ولاء الإسلام ، كقوله تعالى : ذَ لِكَ بِأَنّ اللَهَ مَوْلَى الّذِينَ ءَامَنُوا وَأَنّ الْكَفِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ .

وقول عمر لعليّ بن أبي طالب : أَصْبَحْتَ مَوْلَى كُلّ مؤْمِنٍ ، أَي وَلِيّ كُلّ مُؤْمِنٍ .

وقيل : سبب ذلك أنّ أُسامَةَ قال لعليّ : لَسْتَ مَوْلَايَ ، إنّما مَوْلَايَ رَسُولُ اللَهِ صَلّى اللَهُ عَلَيهِ وَآلِهِ وَسَلّمَ ! فَقَالَ صَلّى اللَهُ عَلَيهِ وَآلِهِ : مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَعَلِيّ مَوْلَاهُ .

وذكر الزمخشريّ في «أساس البلاغة» هذا الكلام نفسه ، أعني أنّه تحدّث حول الوليْ ، والوَلَاءَ ، والوَلِيّ ، والمَوْلَى .

وجاء في «تاج العروس» : للوَلِيّ معان كثيرة منها : المُحِبّ ؛ وهو ضدّ العدوّ ؛ اسم من وَالَاهُ إذا أحبّه . ومنها : الصديق ، ومنها : النصير من وَالَاهُ إذا نصره .

و(وَلِيَ الشّيء) ووَلِيَ (عَلَيْهِ وِلَايَةً وَوَلَايَةً) بالكسر والفتح ؛ أو هي ، أي : بالفتح ، المصدر ؛ وبالكسر : الاسم ، مثل : الإمارة ، والنِقابَةَ ؛ لأنّه اسم لما تولّيته وقمت به . فإذا أرادوا المصدر فتحوا ، هذا نصّ سيبويه .

وقيل : الوِلَاية بالكسر : الخِطّةُ ، والإمارَة . ونصّ «المُحْكَم» كالإمارة . قال ابن السكّيت : الوِلَاية بالكسر : السلطان .

وبعد أن يذكر معاني متنوّعة للمَوْلَى كما قلنا ، يقول : المَوْلَى وكذلك الوليّ : الّذي يَلِي عَلَيْكَ أَمْرَكَ . وهما [المَوْلَى و الوَلِيّ] بمعنى واحد . ومنه الحديث : أَيّما امْرَأَةٍ نَكَحَتْ بِغَيْرِ إِذْنِ مَوْلَاهَا . ورواه بعضهم : بِغَيْرِ إِذْنِ وَلِيّهَا .

وروى ابن سلام عن يونس أنّه قال : إنّ المَوْلَى فِي الدّينِ هُوَ الْوَلِيّ ؛ وذلك قوله تعالى : ذَ لِكَ بِأَنّ اللَهَ مَوْلَى الّذِينَ ءَامَنُوا وَأَنّ الْكَفِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ . أي : لَا وَلِيّ لَهُمْ . ومنه الحديث : مَن كُنْتُ مَوْلَاهُ فَعَلِيّ مَوْلَاهُ ؛ أَي : مَنْ كُنْتُ وَلِيّهُ .

إلى أن يقول : [ومن معاني الوليّ التي جاءت في أسمائه تعالى] : الناصر . وقيل : اَلْمُتَوَلّي لِأُمُورِ

الْعَالِمِ الْقَائِمُ بِهَا . وقيل : معنى الوَلِيّ هنا الوالي ، وَهُوَ مالِكُ الأَشْيَاءِ جَميعها الْمُتَصَرِّفُ فِيها .

وقال ابن الأثير : وكأنّ الوَلَاية تشعر بالتدبير ، والقدرة ، والفِعل ، وما لم يجتمع فيها ذلك ، لم يطلق عليها اسم الوالي .

ويقال : وَلِيّ اليَتِيم لمن يقوم بشؤونه ويتكفّله ؛ ووَلِيّ المرأة لمن يجري نكاحها بإشرافه ولا يقبل أن تنكح بإذنها وبدون إرادته ؛ وجمع الوَلِيّ : أَوْلِيَآءِ .

الوَلِيّ أو فعيل بمعنى الفاعل ؛ أي : من توالت وتتابعت طاعاته لله دون أن يفصل بينها معصية وإثم ؛ أو بمعنى المفعول ، أي : من انصبّت عليه نعم الله متوالية متتابعة بلا فصل .

وذكر «لسان العرب» ما نقلناه بذاته هنا عن «النهاية» لابن الأثير ، وعن «تاج العروس» ، لذلك نتجنّب تكراره هنا .

ويقول الراغب الإصفهانيّ في «المفردات» اَلْوَلاءُ والتّوالي أَنْ يَحْصُلَ شَيْئَانِ فَصَاعِداً حُصُولاً لَيْسَ بَيْنَهُما ما لَيْسَ مِنْهُمَا .

ويستعار ذلك للقرب من حيث المكان ، ومن حيث النّسبة ، ومن حيث الدّين ، ومن حيث الصّداقة ، والنّصرة ، والاعتقاد .

والوِلَاية (بالكسر) : النّصْرَة ؛ والوَلَاية (بالفتح) : تولّي الأمر ؛ وقيل : الوِلَاية ، والوَلَاية نحو الدّلالة والدّلالة ، وحقيقته تَوَلّي الأمر .

والوَلِيّ والمَوْلَى يستعملان في ذلك كلّ واحد منهما يُقال في معنى الفاعل ، أي : المُوالِي ، وفي معنى المفعول ، أي ، المُوالَى .

يقال للمؤمن : هُوَ وَلِيّ اللَهِ عَزّ وَجَلّ ، ولم يَرِدْ مَوْلَاهُ ؛ وقد يُقال : اللَهُ تَعالى وَلِيّ الْمُؤْمِنِينَ وَمَوْلَاهُمْ .

فمن الأوّل (يعني معنى الفاعل) قال الله تعالى : 1 . اللَهُ وَلِيّ الّذِينَ ءَامَنُوا . 2 . إنّ وَلِيِّىّ اللَهُ . 3 . وَاللَهُ وَلِيّ الْمُؤْمِنِينَ . 4 . ذَ لِكَ بِأَنّ اللَهَ مَوْلَى الّذِينَ ءَامَنُوا . 5 . نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النّصِيرِ . 6 . وَاعْتَصِمُوا بِاللَهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى . 7 . قُلْ يَأَيّهَا الّذِينَ هَادُوا إِن زَعَمْتُمْ أَنّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَهِ مِنْ دُونِ النّاسِ . 8 . وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنّ اللَهَ هُوَ مَوْلَاهُ . 9 . ثُمّ رُدّوا إِلَى اللَهِ مَوْلَاهُمْ الْحَقّ .

والوالي الذي في قوله : وَ مَا لَهُم مّن دُونِهِ مِن وّالٍ بمعنى الوليّ .

ثمّ ذكر الراغب كثيراً من الآيات القرآنيّة التي جاء فيها اسم الولي ، ونفت الولاية عن غير الله ، ونهت عن اتّخاذ اليهود والنصارى أوليآء ، واتّخاذ أعداء الله أوليآء . ونقل كثيراً من الآيات التي وردت فيها مشتقّات هذه المادّة مع معانيها المناسبة . (11)

حقّاً فقد نقلنا هنا ما كان ضروريّاً من كتب اللغة حول معنى الولاية ومشتقّاتها لكي يطّلع الخبير البصير على خصوصيّات المعاني ومواضع استعمالها . و يستوعبها بالتدبير والتأمّل ، ويفهم أنّ هذه المعاني المتنوّعة للولاية ، والوَلِيّ ، والمَوْلَى وغيرها جميعها . حيث قال في «تاج العروس» بأنّ للوليّ واحداً وعشرين معنى . تحوم حول معنى واحد هو أصل معنى الولاية وجذره ، ونقلت المعاني الأُخرى أيضاً مستعارة من ذلك المعنى ؛ أو أنّ أصل معنى الولاية في هذه المواضع جميعها محفوظ ؛ وغاية

الأمر إنّهم لاحظوا . لسبب من الأسباب . المعنى الأصليّ بانضمام خصوصيّة أخذوها بنظر الاعتبار في الاستعمال .

وأصل ذلك المعنى هو الذي أُتي به الراغب في «المفردات» حيث قال في مادّة وَلْيّ . اَلْوَلَاءُ والتّوَالِي أَنْ يَحْصُلَ شَيئَانِ فَصَاعِداً حُصُولاً لَيْسَ بَيْنَهُمَا مَا لَيْسَ مِنْهُمَا . أي : لا حجاب ، ولا مانع ، ولا فصل ، ولا افتراق ، ولا غيريّة ، ولا بينونة بينهما بحيث لو فرضنا وجود شيء بينهما فهو منهما ؛ لا من غيرهما .

مثلاً ، يسمّون مقام الوحدانيّة بين العبد وربّه حيث لا حجاب في أيّ مرحلة من مراحل الطبع ، والمثال ، والنفس ، والروح ، والسرّ : ولايةً .

ويسمّون مقام الوحدة بين الحبيب والمحبوب ، والعاشق والمعشوق ، والذاكر والمذكور ، والطالب والمطلوب حين ينعدم أيّ انفصال بينهما بأيّ وجه من الوجوه : ولاية .

وفي ضوء ذلك ، فإنّ الله تعالى وليّ الكائنات جميعها في عالم التكوين بشكل مطلق . وإنّ الكائنات جميعها أيضاً وبلا استثناء وليّة الله تكويناً ؛ لأنّه لا حجاب بين الله الربّ وبين المربوبين إلّا أن يكون ذلك الحجاب منهما ؛ وأمّا في عالم التشريع والعرفان ، فإنّ ولاية الحقّ تخصّ الذين اجتازوا مراحل الشرك الخفيّ تماماً ، واخترقوا الحجب النفسانيّة كلّها ، وقرّ قرارهم في النقطة الأصليّة وحقيقة العبوديّة .

وبهذا الميزان يقال لكلّ واحد من طرفي النسبة والإضافة : وليّ ، أيّ : زالت البينونة والغيريّة تماماً ، وظهرت هُوَ الْهَوِيّة .

هذه هي حقيقة الولاية ؛ ومن هنا نرى : أوّلاً : أنّ جميع آثار وخصوصيّات الوليّ بمعنى الفاعل مشهودة في الوليّ بمعنى المفعول ، وكالمرآة تعكس وجه صاحب الصورة كلّه دون أدنى حبّ للظهور .

وثانياً : أنّ جميع المشتقّات المنبثقة عن الوليّ ، وجميع المعاني المذكورة لهذه الكلمة ترتكز على هذا الأساس ، وتقوم على هذا الميزان ؛ وذلك لأنّ شرط الولاية هو القُرب . وللقرب أشكال متنوّعة ، حيث لوحظت حقيقة الولاية تلك في كلّ مظهر من مظاهر القرب ، بكلّ ما للكلمة من معنى ، مع ملاحظة هذه الخصوصيّة .

وعلى هذا لايصحّ أن نقول بأنّ الوَلاية ، والوَلِيّ ، والمَوْلَى وما يتفرّع عنها من مشتقّات تستعمل في معانٍ متنوّعة هي على نحو الاشتراك اللفظي ، لا ، فالأمر ليس كذلك ، بل هي على نحو الاشتراك المعنويّ واستعمال اللفظ في ذلك المعنى الواحد ، حيث أُخذ بنظر الاعتبار نوع من خصوصيّة القرب من ذلك المعنى العامّ بواسطة قرينة حاليّة أو لفظيّة . وهذا اللون من الاستعمال حقيقيّ في جميع موارد الاستعمال .

وفي ضوء هذا الكلام ، فإنّنا حيثما وجدنا مفردات الوَلاية ، أو الوَليّ ، أو المَوْلَى وغيرها ، وليست معها قرينة تدلّ على خصوص أحد مصاديقها ، فلا مناص لنا أن نأخذ بعين الاعتبار المعنى العامّ دون أيّ قيد ، فنعتبره المراد من تلك المفردات . فمثلاً لو قيل : الولاية لله ، فلابدّ أن نقول : إنّ المراد هو معيّة الله لجميع الكائنات . ولو قيل : بلغ فلان مقامَ الوَلاية ، فلابدّ أن نقول : إنّه بلغ مرحلة من

مراحل السير والسلوك والعرفان والشهود الإلهيّ زال معها كلّ حجاب من الحجب النفسانيّة بينه وبين الحقّ جلّ شأنه ، واضمحلّت شوائب الفرعونيّة والربوبيّة كلّها في وجوده ، وظفر بمقام العبوديّة المطلقة المجرّدة للحقّ جلّ وعزّ .

ويتّضح في ضوء هذا الكلام الذي ذكرناه أنّه حيثما استعملت الوَلاية ، أو الوَلِيّ ، فإنّ هناك لوناً من الاتّحاد والوحدة قائم بين شيئين ، وقد أتوا بهذه المفردة في ضوء ذلك الأصل . فهناك مثلاً نسبة بين المالِك والمَمْلُوك ، وهذه النسبة قد ربطتهما وشدّت أحدهما بالآخر ، لذا يقال لكلّ واحد منهما : وليّ . وكذلك النسبة بين السيّد وعبده ، والنسبة بين المُنْعِمِ والمُنْعَمِ عليه . فإنّها جعلتهما تحت عنوان خاصّ ، حيث يقال لكلّ واحد من هذين الاثنين : وليّ . والنسبة الموجودة بين المُعتِق والمُعتَق أتت بهذا العنوان تالياً لها . وهكذا النسبة القائمة بين الحليفين ، والعقيدين ، وبين الحَبيب والمُحِبّ .

ويسمّى الصِهْرُ وَلِيّاً لأنّه يعتبر أحد أفراد الأُسرة في كثير من شؤونها بسبب القرابة الحاصلة من وراء مصاهرته ؛ ويسمّى الجارُ وَلِيّاً لأنّ له أحكاماً واحترامات خاصّة بسبب القرب المكانيّ ؛ ويسمّى ابْنُ العَمّ وَلِيّاً لأنّه أحد أفراد العاقلة ، وتقع عليه دية الخطأ ، وله في كثير من الحالات حكم الأخ ، والمعين .

وحيثما كانت هناك قرينة خاصّة لإرادة أحد المعاني ، فينبغي أن نحمل اللفظ عليه ، وإلّا تبادر إلى الذهن معنى الولاية العامّة بلا قرينة ؛ وكان ذلك المعنى هو مراد المتكلّم . ومن المعلوم أنّ المالكيّة في التدبير ، وولاية الأمر ، والقيام بمسائل المولّى عليه نتائج متمخّضة عن الولاية ، وليست أصل حقيقتها ومعناها المطابق لها ، وحيثما لوحظ أنّهم فسّروا الولاية أحياناً بالحكومة ، والإمارة ، والسلطان ، والمراقبة والحراسة ، فإنّما كان تفسيراً بلوازم المعنى ، لا تبياناً للمعنى الحقيقيّ .

وعلى هذه الوتيرة ، فإنّ أُستاذنا الكريم سماحة آية الحقّ والعرفان وسند العلم والإيقان المرحوم آية الله الطباطبائيّ أفاض الله علينا من بركات نفسه وتربته الشريفة قال في رسالة «اَلوِلَايَة» (12) وفي تفسير «الميزان» : الْوَلَاية هِيَ الْكَمالُ الأَخيرُ الْحَقِيقِيّ لِلإنْسَانِ وَإنّهَا الْغَرَضُ الأَخِيرُ مِنْ تَشْرِيعِ الشّرِيعَةِ الْحَقّةِ الإلَهِيّةِ .

وقال في التفسير : والولاية وإن ذكروا لها معانٍ كثيرة ، لكِنّ الْأَصْلَ في مَعْنَاهَا ارْتِفَاعُ الْوَاسِطَةِ الْحَائِلَةِ بَيْنَ الشّيْئَيْنِ بِحَيْثُ لَا يَكُونُ بَيْنَهُمَا مَا لَيْسَ مِنْهُمَا . ثمّ استعيرت لقرب الشيء من الشيء بوجه من وجوه القرب كالقرب نسباً ، أو مكاناً ، أو منزلة ، أو بصداقة ، أو غير ذلك .

ولذلك يطلق الوليّ على كلّ من طرفي الولاية ، وخاصّة بالنظر إلى أنّ كلّاً منهما يلي من الآخر ما لا يليه غيره . فالله سبحانه وَلِيّ عبده المؤمن ، لأنّه يلي أمره ، ويدبّر شأنه فيهديه إلى صراطه المستقيم ، ويأمره وينهاه فيما ينبغي له أو لا ينبغي ، وينصره في الحياة الدنيا وفي الآخرة .

والمؤمن حقّاً وَلِيّ ربّه لأنّه يلي منه إطاعته في أمره ونهيه ، ويلي منه عامّة البركات المعنويّة من هداية ، وتوفيق ، وتأييد وتسديد ، وما يعقّبها من الإكرام بالجنّة والرضوان .

فأولياء الله . على أيّ حال . هم المؤمنون، فإنّ الله يعدّ نفسه وليّاً لهم في حياتهم المعنويّة ، حيث

يقول : وَاللَّهُ وَلِىّ الْمُؤْمِنِينَ . (13)

غير أنّ الآية التالية لهذه الآية : أَلَآ إِنّ أَوْلِيَآءَ اللَهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ . (14) وهي قوله : الّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتّقُونَ المفسّرة لقوله : أولياء الله ، تأبى أن تكون الولاية شاملة لجميع المؤمنين ، وفيهم أمثال الذين يقول الله سبحانه فيهم : وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَهِ إِلّا وَهُم مّشْرِكُونَ . (15)

فإنّ قوله في الآية التالية : «الّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتّقُونَ» يعرّفهم بالإيمان والتقوى مع الدلالة على كونهم على تقوى مستمرّة سابقة على إيمانهم من حيث الزمان ؛ حيث قيل : ءَامَنُوا ثمّ قيل عطفاً عليه : وَكَانُوا يَتّقُونَ .

فدلّ على أنّهم كانوا يستمرّون على التقوى قبل تحقّق هذا الإيمان منهم . ومن المعلوم أنّ الإيمان الابتدائيّ غير مسبوق بالتقوى ، بل هما متقاربان أو هو قبل التقوى ، وخاصّة التقوى المستمرّة ؛ فالمراد بهذا الإيمان مرتبة أُخرى من مراتب الإيمان غير المرتبة الأُولى منه . فقد تقدّم في الجزء الأوّل من الكتاب آية 130 من سورة البقرة أنّ لكلّ من الإيمان والإسلام ، وكذا الشِرك والكُفر مراتب مختلفة بعضها فوق بعض .

فالمرتبة الأُولى من الإسلام إجراء الشهادتين لساناً والتسليم ظاهراً ؛ وتليه المرتبة الأُولى من الإيمان ، وهو الإذعان بمؤدّى الشهادتين قلباً إجمالاً ، و إن لم يسر إلى جميع ما يعتقد في الدين من الاعتقاد الحقّ .

ولذا كان من الجائز أن يجتمع مع الشرك من بعض الجهات ، قال تعالى : وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَهِ إِلّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ .

ولا يزال إسلام العبد يصفو وينمو حتّى يستوعب تسليمه لله سبحانه في كلّ ما يرجع إليه ، وإليه مصير كلّ أمر .

وكلّما ارتفع الإسلام درجة ورقى مرتبة ، كان الإيمان المناسب له الإذعان بلوازم تلك المرتبة حتّى يسلم العبد لربّه حقيقة معنى إلوهيّته ، وينقطع عنه السخط والاعتراض ، فلا يسخط لشيء من أمره ، من قضاء وقدر وحكم ، ولا يعترض على شيء من إرادته ، وبإزاء ذلك الإيمان اليقين بالله وجميع ما يرجع إليه من أمر ، وهو الإيمان الكامل الذي تتمّ به للعبد عبوديّته .

قال تعالى : فَلَا وَرَبّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتّى يُحَكّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمّ لَا يَجِدُوا فِى أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مّمّا قَضَيْتَ وَيُسَلّمُوا تَسْلِيمًا (16) .

والأشبه أن تكون هذه المرتبة من الإيمان أو ما يقرب منه هو المراد بالآية ، أعني : قوله : الّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتّقُونَ فإنّه الإيمان المسبوق بتقوى مستمرّة دون الإيمان بمرتبته الأُولى كما تقدّم .

على أنّ توصيفه أهل هذا الإيمان بأنّهم لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُم يَحْزَنُونَ . يدلّ على أنّ المراد منه الدرجة العالية من الإيمان الذي يتمّ معه معنى العبوديّة والمملوكيّة المحضة للعبد الذي يرى معه أنّ الملك لله وحده لا شريك له ، وأن ليس إليه من الأمر شيء حتّى يخاف فوته أو يحزن لفقده .

وذلك أنّ الخوف إنّما يعرض للنفس عن توقّع ضرر يعود إليها ، والحزن إنّما يطرأ عليها لفقد ما

تحبّه أو تحقّق ما تكرهه ممّا يعود إليها نفعه أو ضرره . ولا يستقيم تحقّق ذلك إلّا فيما يرى الإنسان لنفسه ملكاً أو حقّاً متعلّقاً بما يخاف عليه أو يحزن لفقده من ولد أو مال أو جاه أو غير ذلك . وأمّا ما لا علاقة للإنسان به بوجه من الوجوه أصلاً ، فلا يخاف الإنسان عليه ، ولا يحزن لفقده البته .

والذي يرى كلّ شيء ملكاً طلقاً لله سبحانه لا يشاركه في ملكه أحد ، لا يرى لنفسه ملكاً أو حقّاً بالنسبة إلى شيء حتّى يخاف في أمره أو يحزن .

وهذا هو الذي يصفه الله من أوليائه ، إذ يقول : أَلَآ إِنّ أَوْلِيَآءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِم وَلَا هُم يَحْزَنُونَ .

فهؤلاء لا يخافون شيئاً ولا يحزنون لشيء لا في الدنيا ولا في الآخرة إلّا أن يشاء الله ، وقد شاء أن يخافوا من ربّهم وأن يحزنوا لما فاتهم من كرامته إن فاتهم . وهذا كلّه من التسليم لله .

وبعد بحث بليغ لسماحة العلّامة الطباطبائيّ رضوان الله عليه حول اتّصاف أوليآء الله بعدم الخوف وعدم الحزن ، وأنّ القرائن تفيد بأنّ هاتين الصفتين تتحقّقان لهم في هذه الدنيا ، وأنّ الآية تبيّن أحوالهم فيها ، يقول في ختام بحثه :

والآية تدلّ على أنّ هذا الوصف إنّما هو لطائفة خاصّة من المؤمنين يمتازون عن غيرهم بمرتبة خاصّة من الإيمان تخصّهم دون غيرهم من عامّة المؤمنين ، وذلك بما يفسّرها من قوله : الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ بما تقدّم من تقرير دلالته .

وبالجملة فارتفاع الخوف من غير الله والحزن عن الأولياء ليس معناه أنّ الخير والشرّ ، والضرر والنجاة والهلاك ، والراحة والعناء ، واللذّة والألم ، والنعمة والبلاء متساوية عندهم ومتشابهة في إدراكهم ، فإنّ العقل الإنسانيّ ، بل الشعور العامّ الحيوانيّ لا يقبل ذلك . بل معناه أنّهم لا يرون لغيره تعالى استقلالاً في التأثير أصلاً ، ويقصرون الملك والحكم فيه تعالى فلا يخافون إلّا إيّاه أو ما يحبّ الله ويريد أن يحذروا منه أو يحزنوا عليه .

إنّ التوحيد الكامل يقصر حقيقة الملك في الله سبحانه ، فلا يبقى لغيره شيء من الاستقلال في التأثير حتّى يتعلّق به لنفسه حبّ أو بغض ، أو خوف أو حزن ، أو فرح أو أسى ، أو غير ذلك .

وإنّما يخاف هذا الذي غشيه التوحيد ويحزن أو يحبّ أو يكره بالله سبحانه ويرتفع التناقض حينئذٍ بين قولنا : إنّه لا يخاف شيئاً إلّا الله ، وبين قولنا : إنّه يخاف كثيراً ممّا يضرّه ويحذر أُموراً يكرهها ، فافهم ذلك . (17)

وذكر صاحب تفسير «بيان السعادة» أيضاً مجملاً للتفصيل الذي أتى به العلّامة في ذيل الآية : هُنَالِكَ الْوَلَيَةُ لِلَّهِ الْحَقّ حول معنى الولاية ، وقال :

الوَلَاية بالفتح : والتصرّف والنصرة والتربية ؛ وبالكسر : السلطنة والإمارة ؛ وقرئ بهما [بالفتح والكسر] وهُنَالِكَ اسم إشارة يشار به إلى المكان ؛ والمراد به مرتبة من النفس لتشبيهها بالمكان ؛ يعنى في تلك الحال التي ينقطع آمال النفس من كلّ ما سوى الله ، يظهر لها أنّ الولاية لله ، الذي يظهر أنّه كان حقّاً لا غير . لذلك كانت ولايته باقية وولاية غيره باطلة .

إذن ، ففائدة التوصيف الإشعار بظهور كونه تعالى حقّاً حينئذٍ وكون غيره باطلاً . (18)

أمّا العلّامة نفسه فقد قال في مستهلّ كلامه عند تفسير الآية الكريمة المرقّمة 44 من سورة الكهف ،

وهي قوله : هُنَالِكَ الْوَلَيَةُ لِلَهِ الْحَقّ هُوَ خَيْرٌ ثَوابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا .

القراءة المشهورة بفتح الواو ، وقرئ بكسرها ، والمعنى واحد . وذكر المفسّرون أنّ الإشارة بقوله : هُنالِكَ إلى معنى قوله : أُحِيطَ بِثَمَرِهِ . أي : في ذلك الموضع أو في ذلك الوقت ، وهو موضع الإهلاك ووقته الولاية لله . وأنّ الولاية بمعنى النصرة ؛ أي : أنّ الله سبحانه وتعالى هو الناصر للإنسان حين يحيط به البلاء ، وينقطع عن كافّة الأسباب لا ناصر غيره .

وهذا معنى حقّ في نفسه لكنّه لا يناسب الغرض المسوق له الآيات ، [19] وهو بيان أنّ الأمر كلّه لله سبحانه وهو الخالق لكلّ شيء المدبّر لكلّ أمر ، وليس لغيره إلّا سراب الوهم وتزيين الحياة لغرض الابتلاء والامتحان .

ولو كان كما ذكروه ، لكان الأنسب توصيفه تعالى في قوله : لِلَهِ الْحَقّ بالقوّة ، والعزّة ، والقدرة ، والغلبة ونحوها ، لا بمثل الحقّ الذي يقابل الباطل ، وأيضاً لم يكن لقوله : «هو خير ثواباً وخير عقبا» وجه ظاهر وموقع جميل .

والحقّ . والله أعلم . أنّ الوَلاية بمعنى مالكيّة التدبير ، وهو المعنى الساري في جميع اشتقاقاتها ، كما مرّ في الكلام على قوله تعالى : إنّمَا وَلِيّكُمُ اللَهُ وَ رَسُولُهُ . [20]

أي : عند إحاطة الهلاك ، وسقوط الأسباب عن التأثير ، وتبيّن عجز الإنسان الذي كان يرى لنفسه الاستقلال و الاستغناء ولاية أمر الإنسان وكلّ شيء وملك تدبيره لله ، لأنّه إله حقّ له التدبير والتأثير بحسب واقع الأمر .

وغيره من الأسباب الظاهريّة المدعوّة شركاء له في التدبير والتأثير باطل في نفسه لا يملك شيئاً من الأثر إلّا ما أذن الله له وملّكه إيّاه ، وليس له من الاستقلال إلّا اسمه بحسب ماتوهّمه الإنسان ، فهو باطل في نفسه حقّ بالله سبحانه ، والله هو الحقّ بذاته المستقلّ الغنيّ في نفسه .

وإذا أخذ بالقياس بينه . تعالى عن القياس . وبين غيره من الأسباب المدعوّة شركاء في التأثير ، كان الله سبحانه خيراً منها ثواباً ، فإنّه يثيب من دان له ثواباً حقّاً ، وهي تثيب من دان لها وتعلّق بها ثواباً باطلاً زائلاً لا يدوم ؛ وهو مع ذلك من الله وبإذنه . وكان الله سبحانه خيراً منها عاقبة ، لأنّه سبحانه هو الحقّ الثابت الذي لا يفنى ولا يزول ؛ ولا يتغيّر عمّا هو عليه من الجلال والإكرام ، وهي أُمور فانية متغيّرة جعلها الله زينة للحياة الدنيا ، يتولّه إليها الإنسان ، ويتعلّق بها قلبه حتّى يبلغ الكتاب أجله ، وإنّ الله لجاعلها صعيداً جرزاً . [21]

وينبغي أن نعلم أنّ الوِلاية بالكسر في هذه القراءة المتداولة لم ترد في القرآن الكريم ؛ بَيدَ أنّ الوَلاية بالفتح جاءت في موضعين : الأوّل : في الآية التي صدّرنا درسنا هذا بها ومرّ تفسيرها ؛ والثاني : في الآية 72 من السورة الثامنة : الأنفال :

إِنّ الّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَهَدُوا بِأَمْوَ لِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ اللَهِ وَالّذِينَ ءَاوَوا وّنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَالّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مّن وَلَيَتِهِم مّن شَىْءٍ حَتّى يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِى الدّينِ فَعَلَيْكُمُ النّصْرُ إِلّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مّيثَقٌ وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ .

المراد ب «الّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا» الطائفة الأُولى من المهاجرين الذين هاجروا قبل نزول السورة ؛ والمراد من قوله : وَالّذِينَ ءَاوَوا وّنَصَرُوا هم الأنصار الذين أووا النبيّ والمؤمنين المهاجرين ونصروهم ؛ وكان المسلمون ينحصرون يومئذٍ في هاتين الطائفتين إلّا قليل ممّن آمن بمكّة فبقى فيها ولم يهاجر .

وقد جعل الله في هذه الآية ولاية بين المهاجرين والأنصار ، وبين المهاجرين أنفسهم ، وبين الأنصار أنفسهم . وهذه الولاية أعمّ من ولاية الميراث ، وولاية النصرة ، وولاية الأمن .

فكلّ كافر آمن وهاجر ولايته نافذة عند الجميع . وبناءً على هذا ، فالبعض من الجميع سيكون وَليّ البعض الآخر ؛ وكلّ مهاجر وليّ كلّ مهاجر ؛ وكلّ أنصاريّ وليّ كلّ أنصاريّ ؛ وكلّ مهاجر وليّ كلّ أنصاريّ ؛ وكلّ أنصاريّ وليّ كلّ مهاجر .

وكما قال العلّامة الطباطبائيّ رضوان الله عليه : لا شاهد على صرف الآية إلى ولاية الإرث بالمؤاخاة التي كان النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم جعلها في بدء الهجرة بين المهاجرين والأنصار ، وكانوا يتوارثون بها زماناً حتّى نسخت [بآية وَأُولُوا الْأَرْحَامِ (22)] .

والشاهد على عموميّة معنى الولاية في هذه الآية هو استثناء النصرة ؛ لقولة : «والذين ءامنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم من شىء حتّى يهاجروا وإن استنصروكم في الدين فعليكم النصر» !

وعلى كلّ تقدير فلمّا لم يمكننا أخذ الولاية في هذه الآية بمعناها الحقيقيّ العامّ ، وهو رفع الحجاب الكلّيّ ، فإنّا مضطرّون إلى أخذها بمعناها العامّ الذي هو أقرب إلى المعنى الحقيقيّ ، وهو هنا أعمّ من الولاية في الإرث ، والولاية في النصرة ، والولاية في الأمن من الضرر .

وإجمالاً ، فإنّ المعنى الحقيقيّ للولاية ممّا نستنتجه من بحثنا هذا ، هو أن يحصل شيئان فصاعداً حصولاً ليس بينهما ما ليس منهما ؛ وهذا هو المعنى الحقيقيّ لها ، ثمّ استعاروا ذلك للقُرب من حيث المكان ، ومن حيث النسبة ، وسائر صور القُرب ؛ وهذا كلام الراغب ، بَيدَ أنّ أُستاذنا العلّامة رضوان الله عليه قال بعد التأكيد والإصرار على صحّة هذا المعنى في مجالات عديدة : «والظاهر أنّ القرب الكذائيّ المعبّر عنه بالولاية ، أوّل ما اعتبره الإنسان إنّما اعتبره في الأجسام و أمكنتها وأزمنتها ؛ ثمّ استُعير لأقسام القرب المعنويّة على عكس ما ذكره الراغب لأنّ هذا هو المحصّل من البحث في حالات الإنسان الأوّليّة . فالنظر في أمر المحسوسات والاشتغال بأمرها أقدم في عيشة الإنسان من التفكّر في المعقولات والمعاني وأنحاء اعتبارها والتصرّف فيها . (23)

ولسنا هنا بصدد الخوض في الاختلاف بين الاتّجاهين ؛ وإن كانت نظرية أُستاذنا العلّامة صائبة ، ومدعومة بالدليل التجريبيّ والحسّيّ ، بَيدَ أنّ معنى الولاية . على التقديرين . واحد ؛ وهو رفع الحجاب بين شيئين بحيث لا يفصل بينهما أيّ شيء آخر . وفي ضوء ذلك فأينما قيل : لله وَلاية ، وإنّه وَليّ ومَوْلى ، فالقصد هو انعدام أيّ واسطة وحجاب بين ذاته المقدّسة وبين جميع الكائنات المُوَلّى عَلَيْها في عالم الإمكان تكويناً وتشريعاً غيره . ولا يمكن لموجود أنّ يكون حاجباً بصورة مستقلّة ؛ ويكون واسطة

في الاتّصال بين ذاته ، ونوره ، وصفاته الجماليّة والجلاليّة ، وبين الكائنات .

وكلّ ما يُفرض من حجاب وواسطة فهو منه ، لا من غيره ، وله معنى آليّ تبعيّ لا معنى استقلاليّ ؛ وحيثما قلنا على نحو الإطلاق وبدون قيد وقرينة : رسول الله وليّ الله ؛ وعليّ وليّ الله ، والأئمّة الأطهار أوليآء الله ، ولهم مقام الولاية ، فمعنى ذلك أنّهم بلغوا في مقام العرفان والشهود درجة لم يبق معها أيّ حجاب وفصل بينهم وبين ربّهم غير أنفسهم ووجوداتهم ؛ ولو كان هناك حجاب ، فهو وجودهم نفسه ، وهو الحجاب الأقرب ، وواسطة الفيض على الموجودات .

وليس هناك اختلاف في هذه المسألة سواء في الولاية التكوينيّة ، أو التشريعيّة . وبكلمة بديلة ، في الولاية الحقّة الحقيقيّة ، أو الاعتباريّة . لأنّ من لوازم القرب الحقيقيّ . لا القرب المجازيّ والاعتباريّ . هو الواسطة في الفيض ، وتدبير الأُمور في عالم ما وراء الطبيعية . وهذا الأمر أمر قسريّ وضروريّ بلغته ذواتهم المقدّسة . وطبيعيّاً فقد جاءتهم الولاية الاعتباريّة والتشريعيّة أيضاً تالية للولاية الحقيقيّة .

وبعد أن فرغنا من البحث اللغويّ للولاية إلى هنا بحمد لله ومنّه ، فإنّنا نعتزم الحديث عن كيفيّة الولاية التي كانت لأُولئك العظام ، وعن أبعادها وجوانبها ، في دروس عديدة قادمة ، إن شاء الله تعالى .

تعليقات:

1) الآية 44 ، من السورة 18 : الكهف .

2) الآية 68 ، من السورة 3 : آل عمران .

3) الآية 44 ، من السورة 18 : الكهف .

4) الآية 55 ، من السورة 5 : المائدة .

5) جار الله لقب الزمخشريّ صاحب تفسير «الكشّاف» المعروف .

6) الآية 6 ، من السورة 33 : الأحزاب .

7) الآية 111 ، من السورة 17 : الإسراء .

8) الآية 101 ، من السورة 12 : يوسف .

10،9) الآية 257 ، من السورة 2 : البقرة .

11) مفردات ألفاظ القرآن» للراغب الإصفهانيّ ، ص 533 ، مادّة «ولي» .

12) و هي من نفائس الرسائل المؤلّفة للعلاّمة التي ألّفها بصورة مستقلّة . وقد استنسختها من خطّ المؤلّف مع رسالة النبوّة والإمامة التي أُلّفت بصورة مستقلّة أيضاً ، مع سبع رسائل أُخرى أُلّفت مجموعة في مجلّد واحد ، و جلّدتها كلّها فيمجلّد واحد ، و لم تطبع هذه الرسائل أيّام حياة ذلك الفقيد العظيم . ولكن بعد رحيله ، طبعت رسالة «الولاية» فقط ضمن رسالة في ذكراه عنوانها : «يادنامه مفسّر كبير أُستاد علاّمه سيد محمّد حسين طباطبائى رسالة في ذكرى المفسّر الكبير الأُستاذ العلاّمة السيّد محمّد حسين الطباطبائيّ» من ص 251 إلى ص . 305

13) الآية 68 ، من السورة 3 : آل عمران .

14) الآية 62 ، من السورة 10 : يونس .

15) الآية 106 ، من السورة 12 : يوسف .

16) الآية 65 ، من السورة 4 : النساء .

17) تفسير الميزان» ج 10 ، من ص 89 إلى ص . 93 مطبعة الحيدريّ بطهران .

18) تفسير بيان السعادة» الطبعة الحجريّة ، ص . 438

19) هذه الآيات في سورة الكهف ، وهي من الآية 32 إلى الآية . 43 ومفادها إجمالاً : أنّ الله ضرب مثلاً ، رجلين جعل لأحدهما جنّتين من أعناب ونخل لها أثمار مختلفة ، وفجرّ خلالهما نهراً . فتباهى هذا الرجل وغرّ بكثرة ماله ونفره ، وظنّ أنّ القيامة لا تكون ، وأنّ جنّته لا تبيد . وكان يقول (ما أظنّ إن) رُددت إلى ربّي لأجدنّ خيراً من جنّتي هذه . فنصحه صاحبه ، فلم ينفع نصحه ، حتّى أباد الله جنّته على حين غفلة ، وأُحيط بثمره فكان يقول : الويل لي كم أنفقت فيها ، فياليتني لم أُشرك بربّي أحداً .

20) الآية 55 ، من السورة 5 : المائدة .

21) تفسير الميزان» ج 13 ، ص 340 و . 341 طبع الآخوندي سنة 1386 هـ .

22) تفسير الميزان» ج 9ص 144 و . 145

23) تفسير الميزان» ج 6 ، ص . 9

23) تفسير الميزان» ج 6 ، ص . 9

الدرس الثالث والستّون والرابع والستّون: كيفيّة الوصول إلى مقام الولاية

بِسْمِ اللَهِ الرّحْمَنِ الرّحِيمِ

وصلّى اللهُ على محمّد وآله الطّاهرين

ولعنة اللَه على أعدائهم أجمعين من الآن إلى قيام يوم الدين ولا حول ولا قوّة إلّا باللَه العليّ العظيم

قال الله الحكيم في كتاب الكريم :

أَلَآ إِنّ أَوْلِيَآءَ اللَهِ لَاخَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * الّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتّقُونَ * لَهُمُ الْبُشْرَى فِى الْحَيَوةِ الدّنْيَا وَفِى الْأَخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَتِ اللَهِ ذَ لِكَ هُوَ الْفُوْزُ الْعَظِيمُ . (1)

نجد في هذه الآيات أنّ الولاية الإلهيّة لا تتحقّق بمجرّد الإيمان البدائيّ ، وذلك في ضوء القرينة القائمة في تفسير قوله : أَوْلِيَآءَ اللَهِ بقوله : الّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتّقُونَ . وإنّما تتحقّق بالإيمان الذي يأتي بعد ارتقاء معارج التقوى والعمل الصالح ؛ فهو . إذَن . لون من الإيمان الراسخ الوطيد الذي يتلو الإيمان البدائيّ ، ويكتسب بعد العمل في ضوئه ، وبملازمة التقوى والعمل الصالح خلال مدّة مديدة . ويستوي الإيمان على سوقه قويّاً شيئاً فشيئاً بسبب ديمومته مقروناً بالعمل الصالح والتقوى ، إلى أن تضمر الحجب النفسانيّة الحائلة بين العبد والحقّ جلّ وعزّ تدريجاً ؛ وتهزل نسائج الانشداد إلى المشتهيات المادّيّة والأفكار والهواجس الجسمانيّة ، فإذا الحجب تتمزّق ، وحلقات الهوى تتفكّك تماماً نتيجة المثابرة والمواظبة على ذلك ، فلا يظلّ أيّ حجاب بين العبد وربّه . وهذا هو معنى الولاية ؛ وكيفيّة الارتقاء إلى تلك الدرجة إجمالاً .

ولمّا كانت الولاية قائمة على ركيزتين : الله ، والعبد ؛ فإنّ الله يُسمّى وَلِيّاً والمؤمن يُسمّى وَلِيّاً أيضاً ؛ الله من حيث الربوبيّة والفاعليّة ، والعبد من حيث العبوديّة والتسليم والقابليّة . وهذه هي الولاية الإلهيّة ، لأنّ رفع الحجاب بين العبد والمعبود قد تحقّق فعلاً .

وفي المقابل ولاية الشيطان حيث لا يبقى حائل بينه وبين الشخص المتمرّد العاصي ؛ فنرى الشيطان هو الذي يدير شؤونه ويدبّرها ويتصرّف بها كيف يشاء ؛ ويرتفع كلّ حجاب بينهما ؛ فالشيطان ما فتأ فاعلاً ، وهذا المسكين ما برح طيّعاً قابلاً ، الشيطان وليّه ، وهو وليّ الشيطان .

وإنّها لخسارة كُبرى أن يصبح الشيطان وليّ أحد ، يتصرّف في شؤونه بواسطة اتّحاده معه .

وَمَن يَتّخِذِ الشّيْطَنَ وَلِيّا مّن دُونِ اللَهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرانًا مُبينًا . (2)

وقال جلّ من قائل :

قُلْ أَمَرَ رَبّى بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ * فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقّ عَلَيْهِمُ الضّلَلَةُ إِنّهُمُ اتّخَذُوا الشّيَطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ اللَهِ وَيَحْسَبُونَ أَنّهُم مّهْتَدُونَ . (3)

وقال تعالى إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ . (4)

يدعو الشيطان إلى الفحشاء ، والمنكر ، والتباهي ، والاستكبار ، والشرك ، والكفر ، ويجرف الإنسان إلى الضلال والضياع ، ويعده بالخلود في عالم الغرور ؛ ويخيفه من الفقر والمصائب والمشاكل . ولكنّ الله يدعو إلى العدل ، والمعروف ، والصلاح ، والإحسان ، والتوحيد ، والعرفان والذوبان فيه .

ويهدي الإنسان إلى هذا الطريق ، ويعده بالخلود في الآخرة ، والبقاء ولقاء الله ، والفناء في أسمائه الحسنى وصفاته العُليا ، وذاته القدسيّة المقدّسة ؛ ويحذّر من الباطل ، والعبث ، والغرور ، ويدعو إلى دار السلام ومهد السعادة .

لذلك ، فإنّ سبيل ولاية الله ينحصر في الابتعاد عن الشيطان وآرائه وأفكاره . أي : في الحركة من عالم الكثرات والالتفات والانشغال بعالم الغرور إلى عالم الوحدة ، والعالم الأصيل وحقيقة العرفان واللقاء الإلهيّ .

واجتياز كثرات هذه العوالم وظواهر هذه النشآت والإعراض عنها وذلك بالمضي قُدماً للورود في وادي العرفان الأيمن بنداء الله أكبر . ولا يتحقّق هذا إلّا بنسيان الكثرة ، وذكر الله ، والتفكّر المتواصل فيه ، والبكاء على فراقه ، والاحتراق بنار هجرانه المتّقدة .

وما أروع الآية المباركة إذ تكشف لنا هذه الحقيقة ، وهي أنّ السبيل الوحيد للولاية هو ذكر الله ، وأنّ الغفلة عن ذكره تؤدّي إلى الانغماس في الضلالة ، قال عزّ اسمه :

فَأَعْرِضْ عَن مّن تَوَلّى عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إلّا الْحَيَوةَ الدّنْيَا * ذَ لِكَ مَبْلَغُهُم مّنَ الْعِلْمِ إِنّ رَبّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى . (5)

أوّلاً : نجد في هاتين الآيتين أنّ الحياة الوضيعة والغرور الدنيويّ ، والانغماس في الشهوات ، والأفكار الباطلة ، والآراء السقيمة ، كلّ ذلك ملازم للإعراض عن ذكر الله .

وثانياً : نفهم من الآيتين أنّ غاية البلوغ العلميّ بنحو مطلق لا ترسو عند هذا المرفأ ؛ بل إنّ هذا المرفأ هو غاية البلوغ العلميّ والفكريّ لمن كان قصير النظر ؛ وإنّ غاية البلوغ العلميّ للأشخاص الذين يذكرون الله دائماً ستكون في مكان آخر .

وثالثاً : تبيّن الآيتان أنّ هؤلاء الأشخاص هم من أهل الضلالة ؛ وأنّ الله أعلم بهؤلاء الضالّين عن سبيله ومطّلع على أحوالهم ؛ وكذلك تدلّ على أنّ هناك فئة غير هذه الفئة الغافلة عن ذكر الله ؛ متّجهة إلى ذكره ، وهي فئة المهتدين ؛ والله عالم بأحوالهم ؛ وفي ضوء ذلك فإنّ هذه الآية تكشف لنا بوضوح أنّ الضلال عن سبيل الله ناتج عن الغفلة عن ذكره ؛ وأنّ الاهتداء إلى سبيله نابع عن ذكره . إذَن ، فإنّ ذكر الله يؤدّي إلى السلوك وبلوغ المقصود ومقام الولاية .

وتبيّن الآيات التي تضمّها سورة التكاثر بوضوح أنّ الاتّجاه إلى كثرات هذا العالم يحرم الإنسان من لقاء محبوبه ، ومن جنّة نعيم اللقاء والولاية ؛ ولذلك فإنّ الظفر بنعيم الولاية ؛ والحلول في منزل الأمن والأمان الإلهيّين ، والتمكّن في ذلك المقام الأمين دون أي حاجب وساتر ، يتوقّفان على نسيان الكثرات التي يعجّ بها هذا العالم .

أَلْهَكُمُ التَّكَاثُرُ * حَتّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ * كَلّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ * ثُمّ كَلّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ * كَلّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ * لَتَرَوُنّ الْجَحِيمَ * ثُمّ لَتَرَوُنّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ * ثُمّ لَتُسْئَلُنّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النّعِيمِ . (6)

الْجَحِيم (التي هي حقيقة التوجّه إلى الكثرات ، وباطن حقيقة الالتفات لغير الله تعالى)

لقد أثبتنا بحول الله وقوّته في الجزء الثامن من كتابنا «معرفة المعاد» في المجلس الثامن والخمسين أنّ المُراد من النعيم هو مقام الولاية ؛ وحيثما ورد في القرآن الكريم ذكر للنعيم والنعمة ، فإنّ القصد هو الولاية ؛ وفي هذه الحالة تعتبر الآيات المشار إليها التكاثر ، أي الالتفات إلى الكثرات والتكاثر مطلقاً ، سواء كان في المال ، أو الولد ، أو النساء ، أو المِلك والضَيْعة ، أو المُلك والحكومة ، أو العلم والمعرفة ، أو الجاه وعلوّ المنزلة ، كلّه منبعث عن نسيان الوحدة ؛ ولذلك يؤدّي إلى الضلال عن المقصود ونعمة الولاية ونعيمها ؛ وبالتالي فإنّ الشخص الذي يُمنى بهذه الكثرات سيكون عرضة للسؤال والاستنطاق عن فقدان الولاية ؛ وبالملازمة فإنّها تعتبر النعيم ، أي ؛ الولاية ورفع حجاب الاثنينيّة والبينونة ، وبلوغ مقام العبوديّة الخالصة متوقّفاً على نسيان الكثرات ، والإعراض عن عالم الاعتبار والغرور والباطل والآمال الزائفة العابثة ؛ ومن المعلوم أنّ نسيان الكثرات لا يتيسّر إلّا بذكر الله ؛ إذَن فذكر الله المتواصل يؤدّي إلى بزوغ نور الحقيقة ، والظفر بمقام الأمن ، والتمكّن في مَنْزِلِ الوَلَايَة .

وإجمالاً فإنّ التحرّك نحو الله ، ورفع الحجب النفسانيّة لا يتحقّقان بدون الإعراض التامّ عن الدنيا وزخارفها ، وكسر صولة الشهوات ، وقطع الارتباط مع عالم المجاز ، والاعتبار ، والتفكير بالمصالح الخياليّة ، والاعتباريّات الوهميّة ، والتحلّي بالهمّة العالية .

قال الله سبحانه وتعالى :

وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الّذِينَ يَدْعُونَ رَبّهُمْ بِالْغَدَوةِ وَالْعَشِيّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيوةِ الدّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتّبَعَ هَوَيهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا . (7)

والآية المباركة :

وَتَبَتّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا (8) .

تدلّ على أنّ العازم على السفر تلقاء حرم الله ينبغي له أن يغضّ الطرف عن كلّ شيء غير الله ورضاه ؛ ويتحرّى سبيل الإخلاص ، ولا يلهث وراء شيء غير وجه الله ورضاه ؛ وإلّا فإنّه سوف لن يصل إلى المقرّ المنشود .

قال تعالى :

قُلْ إِن كُنْتُمْ تُحِبّونَ اللَهَ فَاتّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ اللَهُ وَ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ . (9)

إنّ غفران الذنوب عبارة عن اقتلاع العقبات القائمة على الطريق ، وإزالة عوامل التلويث النفسانيّة التي تبعث على تراكم الرين والأوساخ على القلوب ؛ وحبّ الله عبارة عن النفحة التي تصل إلى المؤمن ؛ فتشدّه إلى الله دائماً .

وينبغي أن نعلم بأنّ العبادة يمكن أن تكون على ثلاثة أوجه : الأوّل : عبادة من أجل الطمع في الجنّة ؛ الثاني : عبادة بسبب الخوف من النار ؛ الثالث : عبادة لأجل حبّ الله وتقرّباً إِلَيْهِ ابتغاءَ لِوَجْهِهِ ؛ لا طمعاً ولا خوفاً . وينبغي على السالكين إلى الله الذين يقصدون بلوغ الولاية وخالص العبوديّة أن

يؤدّوا عباداتهم بل وأعمالهم جميعها على نحو الوجه الثالث الذي يعني الحبّ والعشق لله سبحانه تعالى .

ذلك لأنّ الغاية من الوجهين الأوّلين هي إمّا الظفر بالراحة والرخاء ، وإمّا التخلّص والابتعاد عن العذاب والشقاء . فيكون القصد عندئذٍ بلوغ هوى النفس ؛ والتوجّه إلى الله سبحانه هو من أجل تحقيق الرغبة النفسانيّة . وفي هذه الحالة فإنّ الله واسطة للفوز والفلاح والرغبات النفسانيّة . ومن المعلوم أنّ الواسطة من حيث الوساطة نفسها ليست الهدف الأساس ؛ بل هي هدف عارض وتابع ؛ وفي ضوء ذلك فإنّ مثل هذه العبادة ليست لله حقيقة ، بل هي من أجل إشباع الرغبات النفسانيّة ؛ بَيدَ أنّ حقّ العبادة التي هي للحقّ حقّاً من النوع الثالث ، حيث إنّ طلّاب الولاية يسيرون على تلك الوتيرة .

روى محمّد بن يعقوب الكُلَينيّ عن عليّ بن إبراهيم ، عن أبيه ، عن ابن محبوب ، عن جميل ، عن هارون بن خارجة ، عن أبي عبد الله (الصادق) عليه السلام أنّه قال : [إنّ] الْعُبّادَ ثَلاثَةٌ : قَوْمٌ عَبَدُوا اللَهَ عَزّ وَجَلّ خَوْفاً ، فَتِلْكَ عِبادَةُ الْعَبِيدِ ؛ وَقَوْمٌ عَبَدُوا اللَهَ تَبارَكَ وَتَعَالَى طَلَبَ الثّوابِ ، فَتِلْكَ عِبادَةُ الأُجَرَاءِ ؛ وَقَوْمٌ عَبَدُوا اللَهَ عَزّ وَجَلّ حُبّاً لَهُ ، فَتِلْكَ عِبادَةُ الْأَحْرارِ وَهي أَفْضَلُ الْعِبادَةِ . (10)

وجاء في «نهج البلاغة» : إنّ قَوْماً عَبَدُوا اللَهَ رَغْبَةً ، فَتِلْكَ عِبادَةُ التّجّارِ ؛ وَإنّ قَوْماً عَبَدُوا اللَهَ رَهْبَةً ، فَتِلْكَ عِبادَةُ الْعَبِيدِ ؛ وَإنّ قَوْماً عَبَدُوا اللَهَ شُكْراً فَتِلْكَ عِبادَةُ الْأَحْرارِ . (11)

وذكر الصدوق في «الخصال» بسنده عن يونس بن ظبيان أنّه قال : قال الصادق جعفر بن محمّد عليه السلام :إنّ النّاسَ يَعْبُدُونَ اللَهَ عَزّ وَجَلّ عَلَى ثَلاَثَةِ أَوْجُهٍ : فَطَبَقَةٌ يَعْبُدُونَهُ رَغْبَةً فِي ثَوابِهِ ، فَتِلْكَ عِبادَةُ الْحُرَصَاءِ وَهُوَ الطّمَعُ ؛ وَآخَرُونَ يَعْبُدُونَهُ فَرَقاً مِنَ النّارِ ، فَتِلْكَ عِبادَةُ الْعَبِيدِ وَهِيَ الرّهْبَةُ ؛ وَلَكِنّي أَعْبُدُوهُ حُبّاً لَهُ عَزّ وَجَلّ ؛ فَتِلْكَ عِبادَةُ الْكِرَامِ وَهُوَ الْأَمْنُ ؛ لِقَوْلِهِ عَزّ وَجَلّ : «وَهُم مّن فَزَعِ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ» وَلِقَوْلِهِ عَزّ وَجَلّ : «قُلْ إنْ كُنْتُمْ تُحِبّونَ اللَهَ فَاتّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ اللَهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ» فَمَنْ أَحَبّ اللَهَ أَحَبّهُ اللَهُ عَزّ وَجَلّ ، وَمَنْ أَحَبّهُ اللَهُ عَزّ وَجَلّ كَانَ مِنَ الآمِنِينَ . (12)

أجل حقّاً ، فإنّ العبادة الحقيقيّة ليست معقولة بدون التوجّه إلى الله ؛ لذلك يتضاعف التوجّه بمضاعفة العبادة المستمرّة ؛ إلى أن تتراكم هذه التوجّهات تدريجاً فتصبح ملكة في النفس ؛ وتورثها اليقين والمعرفة والشهود . وهذا مبدأ عامّ وكلّيّ ، فضلاً عن وجود الشواهد القرآنيّة والروائيّة الجمّة عليه ، فإنّ الاعتبار العقليّ يدعمه أيضاً ؛ لأنّ حبّ كلّ شيء والشوق إليه يؤدّي إلى الانشداد والتعلّق به ؛ وهذا التوجّه الذي هو نفس العمل يوطّد ذلك الحبّ والشوق ويرسّخه في القلب ؛ وهذا الرسوخ الذي هو العلم يؤدّي إلى تأكيد رسوخ ذلك الشيء في القلب ؛ وإذا ما استقرّ ذلك الشيء في القلب مؤكّداً ، وأصبح ملكة ، فإنّ ظهوراته ستنجلي ، وآثاره وخواصّه كلّها ستشرق .

إلى أن يتمكّن الشخص العابد المتوجّه إلى محبوبه الحقيقيّ ومعبوده الحقّ أن يشاهد ربّه تدريجيّاً ؛ ويعرفه ، ويعرف أيضاً نفسه والكائنات كلّها في الله ومع الله ؛ وفي هذه الحالة فإنّ التوجّه العباديّ سيثبت في مكانه ويستقرّ في محلّه ؛ لأنّ العبادة ما لم تتجسّد في رؤية المعبود على صعيد الشهود والوجدان والحضور ، فإنّها ليست أكثر من عبادة تصوّريّة ؛ وليست حقّ عبادة المعبود ؛ وذلك لأنّ

معبوده صورة فكريّة وذهنيّة محدودة ؛ ومطابق تلك الصورة أيضاً متوهّم ومحدود في الخارج ؛ وليس ذلك بالمعبود الحقيقيّ والمقصود الأصليّ ؛ بل غير المقصود .

ومن الطبيعيّ أنّ هذا اللون من العبادة ينبغي ألّا يحظى بالقبول من قبل الحقّ تعالى لكنّه قبله بفضله وبرحمته .

وَلَوْلَا فَضْلُ اللَهِ عَلَيْكُمْ وَ رَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا . (13)

وأمّا العارفون بالله والمقرّبون إلى حريمه المقدّس فإنّهم لا يعبدون الله بالمفهوم الفكريّ والصورة الخياليّة الذهنيّة أبداً ، ولا يعبدون المعادل الخارجيّ لذلك المفهوم أبداً ، بل إنّ عبادتهم تختصّ بالذات الحقيقيّة لربّهم جَلّتْ عظمتُه ؛ فهم يدعون الله حضوريّاً وشهوديّاً سُبْحَنَ اللَهِ عَمّا يَصِفُونَ * إلّا عِبَادَ اللَهِ الْمُخْلَصِينَ . (14) وسبيل الوصول إلى هذا الهدف هو تمكّن ذكر الله في القلب . قال تعالى :

فَاذْكُرُوا اللَهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدّ ذِكْرًا . (15)

وهذا الشهود والعرفان له درجات ومراتب متنوّعة ؛ وكلّما تحقّقت منه درجة ، توفّرت المعرفة بقدرها ؛ فالدرجة الأُولى مشاهدة التوحيد الأفعاليّ ، والفناء فيه ؛ والدرجة الثانية مشاهدة التوحيد الاسميّ ، والفناء فيه ؛ والدرجة الثالثة مشاهدة التوحيد الذاتيّ ، والفناء في الذات المقدّسة للحقّ تعالى .

ولا يتحقّق الكمال لأحد إلّا إذا تحقّقت الدرجات الثلاث من الفناء فيه ؛ وبكلام آخر ، إذا فنى في فعل الحقّ واسمه وذاته ؛ ولابدّ للإنسان في سيره إلى الحقّ تعالى أن يجتاز هذه المراحل الثلاث ليظفر بمقام التوحيد المطلق .

بَيدَ أنّ الموضوع اللافت للنظر هنا أنّ الإنسان لا يصل إلى أيّ مرقاة من مراقيه الكماليّة هذه إلّا بفنائه وببقاء ذلك الكمال في محلّه ؛ لأنّ الفناء هو عبارة عن اجتياز الحدود العدميّة ، لا اجتياز أصل الوجود .

لذلك فإنّ أصل الوجود باق في السير إلى الله ، وفي تحقّق هذه الدرجات من الفناء ؛ ويتحقّق اجتياز الدرجات والمراتب حتّى تخترق الحدود كلّها ، فلا يبقى شيء إلّا الذات المقدّسة لوجود الحقّ المطلق تعالى شأنُهُ .

ولهذا نجد الإنسان في كلّ مرحلة من هذه المراحل يطلّع على جميع أنواع الفيوضات المترشّحة عن تلك المرتبة إلى مراتبها الأوطأ والأدنى ؛ ويتحقّق بتلك الآثار وخواصّها ، حتّى يصل إلى التوحيد الذاتيّ ؛ فلا يبقى منه أيّ اسم ورسم وَالْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِلَهِ . وفي ضوء ذلك ، فإنّ أوليآء الله في كلّ منزل من المنازل ، وفي كلّ مرحلة من المراحل يتحقّقون بفيوضات ذلك المنزل ، وتلك المرحلة ، غاية الأمر أنّ ذلك ليس منهم ، وإنّما هو من الله .

وعندما يصلون إلى الغاية المنشودة ، أي : العبوديّة المطلقة والخالصة ، ومقام الولاية ، وارتفاع الحجب النفسانيّة والروحيّة كلّها ؛ فلا يبقى بينهم وبين المعبود حجاب ، وهذا هو مقام الولاية ، فإنّهم عندئذٍ يسمّون ويتّصفون بجميع أسماء الحقّ وصفاته . وهذا هو مقام أوليآء الحقّ سبحانه وتعالى .

وقد ذكر الكبار من أهل الحكمة في كتبهم فصلاً في مقامات الأولياء ؛ بينهم الشيخ الرئيس ابن سينا الذي بسط الكلام حول ذلك عموماً في النمط التاسع من إشاراته . ولمّا كان قصدنا في هذا الكتاب

«معرفة الإمام» الحديث عن ولاية الأئمّة الطاهرين سلام الله عليهم أجمعين على وجه الخصوص ، لذلك نكتفي بمقدار قليل من الآيات والروايات حول آثار الوليّ وصفاته المطلقة ، حتّى تستبين حالات أُولئك العِظام وصفاتهم ؛ وحيثما عثرنا في ما بعد على آية أو حديث في فضائلهم ومناقبهم وكراماتهم ومعجزاتهم الباهرة ، فلا ننظر إليها بعين التأمّل ، لأنّ حالهم حاصل مقامهم ؛ وحالنا حاصل مقامنا .

كار پاكان را قياس از خود مگير

گر چه باشد در نوشتن شير شير

ولمّا كانت أسماء أوليآء الله ورسومهم قد فنيت في ذات الحقّ ، فمسك الحقّ زمام أُمورهم بيده ، فالله هو المتجلّي في الحقيقة ، إذ تجلّى في مرآة وجودهم ، وولاية أمرهم مع الحقّ ، ولن يتسنّى لأحد أبداً أن يطلّع على كمالهم النهائيّ والغائيّ ، لأنّه قال عزّ من قائل :

وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا . (16)

إنّ أوليآء الله لمّا بلغوا البحر الواسع اللّا متناهيّ من الرحمة ، والجود ، والوجود ؛ فلا يلحظ أثر من النقص عندهم ؛ لَاخَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ فلا يخافون فوت شيء منهم على نحو اليقين أو الاحتمال في المستقبل ؛ ولا يأسون على شيء فقدوه في الماضي . ولو كان لشخص إناء فيه ماء ، فإنّه يخاف من احتمال إراقته كلّه أو بعضه في المستقبل ؛ ويأسى على إراقته في الماضي ؛ لأنّ الماء هو رأسمال وجوده ، وبفقدانه ، يرى أنّه قد فقد حياته .

بَيدَ أنّ أوليآء الله يموجون في بحر الرحمة وهم عائمون في ذلك المحيط الخضمّ ؛ متمكّنون في منهل الرحمة وفيض الوجود ؛ مستقرّون في محلّ الأمن والأمان الأمين ؛ فكيف يُتصوّر صدق الفقدان عليهم ، سواء فيما فاتهم أو فيما سيأتيهم ؟

وهل ينقص ماء البحر إذا اغترف منه أحد شيئاً ؟ وهل يزيد إذا أضاف إليه ماءً ؟ لا يكون ذلك أبداً . وهكذا حال أوليآء الله وصفتهم .

إنّ أوليآء الله هم وجه الله ؛ فهم باقون ببقاء الله . قال عزّ اسمه : مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَهِ بَاقٍ . (17) وقال تعالى :

كُلّ شَيْءٍ هَالِكٌ إلّا وَجْهَهُ . (18)

إنّ وجه كلّ شيء هو عبارة عمّا يواجهه الإنسان بواسطته ؛ ووجه الأشياء ليس بمنفصل عنها ؛ ولذلك فإنّ أوليآء الله الذين يمثّلون وَجْهَ اللَهِ متمكّنون في سُبُحات وجه الله من خلال خطواتهم الصادقة ، ومنصهرون في غمار أنواره ؛ خارجون عن تبعة الأعمال ، ولا يخصّون بزمان خاصّ أو مكان خاصّ .

فَأَيْنَمَا تُوَلّوُا فَثَمّ وَجْهُ اللَهِ . (19)

كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الجَلَلِ وَالْإِكْرَامِ . (20)

يتّفق قرّاء القرآن بأجمعهم على أنّ (ذُو الْجَلاَلِ) مرفوعة نعتاً للوجه ، لا للربّ . وليس أن يقال إنّها نعت مقطوع على تقدير هُوَ ؛ لأنّها في مقام نعت الوجه ، لا نعت الربّ .

والشاهد على هذا المعنى ما جاء في قوله تعالى : تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ، وقوله : وَسَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ في مقام بيان جمال الاسم وتقديسه ؛ لا جمال الذات وتقديسها .

ولمّا كان الإكرام بمعنى الجمال ، فالجلال والإكرام في الآية الشريفة جامعان لصفات الجمال والجلال ؛ ولذلك فلا صفة من صفات الله العليا ولا اسم من أسمائه الحسنى خارجاً عن هاتين الصفتين ؛ وأوليآء الله الذين يمثّلون وجه الله ، ويتصّفون بصفة واسم الجمال والجلال والجميل والجليل ، يتمتّعون بصفات الحقّ وأسمائه كلّها .

وقد تمكّنوا في هذه الصفات والأسماء حتّى لم يبق لهم اسم ورسم ، غير صفات الله وأسمائه . وقد كشف الغطاء ؛ وليس معهم وفيهم سوى اسم وجه الله المتّصف بنعتي : الجلال والإكرام .

وأُثر عن الإمام موسى بن جعفر عليهما السلام قوله : لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ خَلْقِهِ حِجَابٌ إلّا خَلْقُهُ ، فَقَدِ احْتَجَبَ بِغَيْرِ حِجَابٍ مَحجُوبٍ ، واسْتَتَرَ بِغَيْرِ سَتْرٍ مَسْتُورٍ . الحديث . (21)

فلا حجاب لأولياء الله إلّا وجودهم المرآتيّ والآيتيّ ، فهم ينتمون إلى الممكن لا الواجب ؛ وطبيعيّاً فنحن نعلم أنّ وجودهم ظلّيّ وتابع ومرآتيّ وشبيه بالمرآة ، وله معنى حرفيّ .

ومن هذا المنطلق ، ما جاءت به الرواية المأثورة عن مجيء الملائكة عند قبض روح وليّ الله ، وإتيانهم برسالة من الله تبشّره بالجنّة ، وقد كتب فيها : مِنَ الْمَلِكِ الْحَيّ الْقَيّوم إِلَى الْمَلِكِ الْحَيّ الْقَيّومِ . الحديث. (22)

وكما قيل ، فإنّ أوليآء الله في مقام القرب ، وفي الحجاب الأقرب ؛ وقد سمّاهم الله : المقرّبين ؛ لأنّه ذكرهم ووصفهم باسم السابقين ، وأثنى عليهم بصفة السابقين إلى الخيرات . قال تعالى : وَالسّبِقُونَ السّبِقُونَ * أُولَئِكَ الْمُقَرّبُونَ . (23) وقال : ثُمّ أَوْرَثْنَا الْكِتَبَ الّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَ تِ بِإِذْنِ اللّهِ . (24)

وقد نفى الله عنهم كلّ لون من ألوان الشرك العلميّ والعمليّ، ووصفهم بأنّهم من الموقنين بأيات الله والمشفقين منه ، وعدّهم من المسارعين في الخيرات .

إِنّ الّذِينَ هُم مّنْ خَشْيَةِ رَبّهِم مّشْفِقُونَ * وَالّذِينَ هُم بِآيَتِ رَبّهِمْ يُؤْمِنُونَ * وَالّذِينَ هُم بِرَبّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ . إلى أن قال : أُولَئِكَ يُسَرِعُونَ فِى الْخَيْر تِ وَهُمْ لَهَا سَبِقُونَ. (25)

وقد وعد الله المقرّبين أن يرفع عن قلوبهم حجاب الجهل بالنسبة إلى عوالم الغيب ؛ وأن يطلعهم على أسرار عالم علّيّين والمُلك و لملكوت .

قال جلّ من قائل:

كَلّآ إِنّ كِتَبَ الْأَبْرَارِ لَفِى عِلّيّينَ * وَمَا أَدْرَيكَ مَا عِلّيّونَ * كِتبٌ مّرْقُومٌ * يَشْهَدُهُ الْمُقَرّبُونَ . (26)

وقد وعدهم الله أن يبدّل وجودهم بحياة خالصة ؛ ويرحمهم بنور معنويّ يمشون به في الأرض .

قال تعالى:

أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِى بِهِ فِي النّاسِ كَمَن مّثَلُهُ فِى الظّلُمَتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مّنْهَا . (27)

ولأولياء الله نور إلهيّ يعيشون به بين الناس وهم في معاشرتهم ومخالطتهم للناس يتمتّعون بالحواسّ والقوى الربّانيّة ، وقد ميّزوا بين العلم والجهل ، والحقّ والباطل والسعادة والشقاء ، والإلهامات الرحمانيّة والإلقاءات الشيطانيّة ، وفرزوا بعضها عن بعض .

وبيّن الله أنّ هذا النور هو الروح ذو الفهم والعقل ، وقد جعله لهداية من يشاء من عباده . قال عزّ اسمه :

وَكَذَ لِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مّنْ أَمْرِنَا ما كُنتَ تَدْرِى مَا الْكِتَبُ وَلَا الْإِيمَنُ وَلَكِن جَعَلْنَهُ نُورًا نّهْدِى بِهِ مَن نّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا . (28)

إنّ الله تبارك وتعالى يهدى أوليآءه بنوره الخاصّ ، أي بالنور الذي ينسبه إلى نفسه ، وهم يستمتعون بهذا النور .

قال تعالى:

يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَهِ بِأَفْوَ هِهِمْ وَاللَهُ مُتِمّ نُورِهِ . (29)

وقال :

يَأَيّهَا الّذِينَ ءَامَنُوا اتّقُوا اللَهَ وَءَامِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ . (30)

وقال:

أَفَمَن شَرَحَ اللَهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلَمِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِن رّبّهِ . (31)

ويهدي الله بهذا النور الخاصّ أفراداً من عباده أكملوا إيمانهم وأصبحوا في عداد الذين يشملهم قوله عزّ من قائل : رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَهِ . (32)

يهدي خاصّة عباده بهذا النور الذي تشرق به السماوات والأرض ؛ وهو نور معنويّ يختصّ به ، ويفوق جميع الأنوار الموجودة في السماوات والأرض علوّاً وغلبةً وقوّة .

وما أروع وأسمى الآيات الواردة في سورة النور ، إذ تتكفّل بشرح هذا النور وكيفيّة نزوله في عالم الإمكان ؛ ومنه يهدي الله خاصّة عباده ، وقد جعله في بيوت رفيعة عظيمة من حيث الشأن والمنزلة . قال : جلّ شأنه :

اللَهُ نُورُ السّمَوَ تِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَوةٍ (33)

فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ الزّجَاجَةُ كَأَنّهَا كَوْكَبٌ دُرّىّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مّبَرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لّا شَرْقِيّةٍ وَلَا غَرْبِيّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِى اللَهُ لِنُورِهِ مَن يَشَآءُ وَيَضْرِبُ اللَهُ الْأَمْثَلَ لِلنّاسِ وَاللَهُ بِكُلّ شَىءٍ عَلِيمٌ * فِى بُيُوتٍ أَذِنَ اللَهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوّ وَالْأَصَالِ * رِجَالٌ لّا تُلْهِيهِمْ تِجَرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَهِ وَإِقَامِ الصّلَوةِ وَإِيتَآءِ الزّكَوةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَرُ * لِيَجْزِيَهُمُ اللَهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مّن فَضْلِهِ وَاللَهُ يَرْزُقُ مَن يّشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ . (34)

يلاحظ في هذه الآيات أنّ الله قد أخبر بقوله :

يَهْدِى اللَهُ لِنُورِهِ مَن يّشَآءُ،

وأنّه قال بأنّ نوره نور السماوات والأرض .

ثمّ جعل لنوره حجابين ؛ وهما من نور أيضاً ، ويضيئان من نوره ؛ وتضيء السماوات والأرض منهما أيضاً . أحدهما المشكاة ونورها أقلّ إذ تأخذه ممّا في داخلها ؛ وفي داخلها زجاجة تنير بواسطة المصباح .

فالمصباح . إذَن . يشعّ بالنور على الزجاجة التي هو في داخلها ؛ ونور الزجاجة أكثر من نور المشكاة ، وهو القيّم على النور . ولعلّ نور الأرض مكتسب من المشكاة ؛ ويفوق ذلك نورُ السماوات من الزجاجة ،

لأنّه يقول جلّ شأنه:

يُدَبّرُ الْأَمْرَ مِنَ السّمَآءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ . (35)

ولم يرد في هذه الآية الشريفة ذكر لما وراء السماوات والأرض ، حتّى يعلم من أين نوره . وكذلك لم يرد ذكر لمواصفات المصباح ، غير أنّه قال فقط : من شجرة زيتونة مباركة لا شرقيّة ولا غربيّة ، لتُشرق عليها الشمس في بعض الأوقات ، ولا تشرق في بعضها الآخر ؛ وبالتالي فإنّ ثمرتها ستكون غير طريّة ؛ بل هي تستمتع بنور الشمس المشرقة على العالم وتؤتي أفضل الأُكل .

وقال كذلك : زيتها يضيء باستمرار ولو لم تمسسه نار .

ثمّ قال : مثل هذه المشكاة وما في داخلها في بيوت أذِن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه ، وبالغدوّ والآصال كناية عن الاستمرار والمواظبة ، رجال لا يلهيهم أمر من أُمور الدنيا عن الصلاة والزكاة والقيام بالأعمال الصالحة .

نعم هؤلاء الرجال هم أوليآء الله ، لأنّه تعالى يصفهم بقوله : إنّهم غير غافلين عن ذكر الله ، وعن العمل الصالح . وهم غير محجوبين عن ذكره أبداً ، وغير ملتفتين إلى غير الله ؛ بل هم متوجّهون إلى الله فقط ؛ وهذا هو معنى الولاية ، وأصحابها هم أوليآء الله .

أُولئكم من المخلصين الأطهار الذين قطعوا درجات الإخلاص ، فبلغوا منزل الخُلُوص ؛ واجتازوا اسم المخلِصين فأصبحوا من المخلَصِين .

إنّ المقرّبين وأوليآء الحقّ تبارك وتعالى هم من المخلَصين لا محالة ؛ وقد نزلت فيهم آيات من القرآن الكريم ووصفتهم أوّلاً : بأنّهم بلغوا مقاماً ودرجة استطاعوا معها ، وبسبب القرب وكشف الغطاء ،

أن يصفوا الله كما هو أهله:

سُبْحَنَ اللَهِ عَمّا يَصِفُونَ * إِلّا عِبَادَ اللَهِ الْمُخْلَصِينَ . (36)

ثانياً : أنّ ربّهم استثناهم من أهوال يوم القيامة ، وهولها ودهشتها ، من الصَعْقَة ، والفَزَع ، ونفخة الصور ، والسؤال والحساب ، والكتاب ، والوقوف ، والحضور ؛ وذلك لأنّهم اجتازوا هذه المراحل في الدنيا قبل موتهم .

فَإِنّهُمْ لَمُحْضَرُونَ * إِلّا عِبَادَ اللَهِ الْمُخْلَصِينَ . (37)

ثالثاً : أنّهم تحرّروا من ربقة الشيطان وأغوائه ومصيدته ؛ فليس له عليهم سلطان ،

قَالَ فَبِعِزّتِكَ لَأُغْوِيَنّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ . (38)

وفي ضوء ذلك ، فقد صرف عنهم كلّ لون من ألوان الإثم والسوء والفحشاء والمنكر .

كَذَ لِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السّوءَ وَالْفَحْشَآءَ إِنّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ . (39)

رابعاً : أنّ جزاء كلّ أحد على أساس عمله ؛ إلّا هذه المجموعة التي لا تنال جزاءً حيال عملها ؛ لأنّها لا عمل لها غير الذات الأحديّة المقدّسة جزاءً لها.

وَمَا تُجْزَونَ إِلّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ . إِلّا عِبَادَ اللَهِ الْمُخْلَصِينَ .

أجل ، لقد كان هذا مِقدَراً ممّا مَنّ الله به على أوليائه ؛ وممّا تقدّم أنّ من عنايات الحقّ وفضله على أوليائه : حصول الفناء في ثلاث مراحل الأفعال ، والصفات ، والذات .

إنّ أوّل شيء يصل فيهم إلى مرحلة الفناء هو الأفعال . وأقلّ شيء فيهم عدّه العلماء في الأفعال الفانية ستّة أشياء : المَوْت ، والحَياة ، والمَرَض ، والصحّة ، والفَقْر ، والغِنَى .

أي أنّهم في هذه الأشياء الستّة لا يرون فعلاً من أنفسهم أو من غيرهم ؛ بل يُشاهدون ذلك من الحقّ سبحانه ، كالذي يرى حركة ، بدون أن يرى محرّكها ويشاهده ؛ بَيدَ أنّه يعلم أنّ لها محرّكاً ؛ وفي هذه الحالة ، فإنّ الحقّ سبحانه يقوم في مقام أفعالهم ؛ وفعلهم . إذَن . هو فعل الحقّ عينه .

وفيما يخصّ التوحيد الأفعاليّ لأولياء الله الملازم للفناء في الأفعال ، فقد جاء في كتاب «التوحيد» للشيخ الصدوق عن الإمام الصادق عليه السلام في الآية الشريفة :

فَلَمّآ ءَاسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ. (40)

قال :

إنّ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَا يَأْسَفُ كَأَسَفِنَا وَلَكِنّهُ خَلَقَ أَوْلِيَآءَ لِنَفْسِهِ يَأْسَفُونَ وَيَرْضَوْنَ وَهُمْ مَخْلُوقُونَ مَرْبُوبُونَ فَجَعَلَ رِضَاهُمْ رَضَا نَفْسِهِ وَسَخَطَهُمْ سَخَطَ نَفْسِهِ .

وَذَلِكَ لِأَنّهُمْ جَعَلَهُمُ الدّعَاةَ إِلَيْهِ وَالأَدِلّاءَ عَلَيْهِ فَلِذَلِكَ صَارُوا كَذَلِكَ وَلَيْسَ أَنّ ذَلِكَ يَصِلُ إِلَى اللَهِ كَمَا يَصِلُ إِلَى خَلْقِهِ وَلَكِنْ هَذَا مَعْنَى مَا قَالَ مِنْ ذَلِكَ . وقال بعد ذلك : وَقَدْ قَالَ أَيضْاً : مَنْ أَهَانَ لِي وَلِيّاً فَقَدْ بَارَزَنِي بِالْمُحَارَبَةِ وَدَعَانِي إِلَيْهَا .

وَقَدْ قَالَ أَيضاً :

إنّ الّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إنّمَا يُبَايِعُونَ اللّهَ . (41)

وقد قال أيضاً :

مّن يُطِعِ الرّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللّهَ . (42)

وكُلّ هَذا وَشِبْهُهُ عَلَى ما ذَكَرْتُ لَكَ وَهَكَذَا الرّضَا وَالْغَضَبُ وَغَيْرُهُمَا مِنَ الْأَشْيَاءِ مِمّا يُشاكِلُ ذَلِكَ . الحديث . (43)

حقّاً فقوله عليه السلام وكلّ هذا وشبهه إشارة إلى الآيات والروايات الجمّة المأثورة في هذا الحقل ؛ كالآية الشريفة :

وَمَا رَمَيْتَ إذْ رَمَيْتَ وَلكِنّ اللّهَ رَمَى . (44)

وقوله تعالى :

وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إنْ هُوَ إلّا وَحْيٌ يُوحَى . (45)

وقوله تعالى :

لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ . (46)

وكقول رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم :

فاطِمَةُ بِضْعَةٌ مِنّي مَنْ آذَاهَا فَقَدْ آذَانِي وَمَنْ آذانِي فَقَدْ آذَى اللهَ . الحديث . (47)

ويظهر الفناء في الأوصاف بعد الفناء في الأفعال . وأُصول هذا الفناء ، كما تفيده الروايات المأثورة عن الأئمّة الطاهرين سلام الله عليهم أجمعين ، خسمة أشياء هي : الْحَياة ، والْعِلْم ، وَالْقُدْرَة ، والسّمْع ، وَالْبَصَر . ويقوم الله بهذه الأشياء الخمسة بدل وليّه ؛ أي : أنّ السالك يرى أنّ الحياة ، و العلم ، والقدرة ، والسمع ، والبصر من الله مطلقاً ؛ ويدركها منه تعالى ؛ فلا يستطيع أن ينسبها إلى نفسه ، ولا يستطيع أن ينسبها إلى غيره من الممكنات .

وجاء في «الكافي» ضمن حديث روي عن الإمام الباقر عليه السلام أنّه قال : إنّ اللهَ جَلّ جَلَالُهُ قالَ : ما تَقَرّبَ إلَيّ عَبْدٌ مِنْ عِبَادِي بِشَيْءٍ أَحَبّ إلَيّ مِمّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ ، وَإنّهُ لَيَتَقَرّبُ إلَيّ بِالنّافِلَةِ حَتّى أُحِبّهُ ، فَإذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الّذِي يَسْمَعُ بِهِ ، وَبَصَرَهُ الّذِي يَبْصُرُ بِهِ ، وَلِسَانَهُ الّذِي يَنْطِقُ بِهِ ، وَيَدَهُ الّتي يَبْطِشُ بِهَا ، إنْ دَعَانِي أَجَبْتُهُ ، وَإنْ سَأَلَنِي أَعْطَيْتُهُ . الحديث . (48)

وهذا الحديث ممّا رواه الفريقان : الشيعة والسنّة ، وهو من الأحاديث المتداولة الرائجة .

وممّا يؤيّد صحّة متنه قوله تعالى في الآية المباركة :

قُلْ إن كُنتُمْ تُحِبّونَ اللّهَ فَاتّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ اللّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ . (49)

أجل ، إنّ الإنسان قبل بلوغ هذه المرحلة ، كان بين الناس ، يعاشرهم ويتحدّث معهم بقواه النفسانيّة من عين ، وأُذن ، ولسان ، ويد ؛ وها هو الآن يعيش بينهم بنور الله ؛ يعاشر ويخالط ويتحدّث ، بَيدَ أنّ تلك القوى قد تغيّرت وتبدّلت ؛ واستعيض عنها بنور الله ؛ وها هي العين ، والأُذن ، واللسان ، واليد قد أضحت لله وليس له فيها شيء .

چو تافت بر دل من پرتو جمال حبيب

بديد ديده جان حسن در كمال حبيب (50)

نقل المسعوديّ في «إثبات الوصيّة» ضمن خطبة لأمير المؤمنين عليه السلام حول انتقال النبيّ الأعظم صلّى الله عليه وآله وسلّم من آدم إلى حين ولادته ، أنّه صلّى الله عليه وآله هكذا يخاطب ربّه :

سُبْحَانَكَ ، أَيّ عَيْنٍ تَقُومُ نُصْبَ بَهَاءِ نُورِكَ ؟ وَتَرْقَى إلَى نُورِ ضِيآءِ قُدْرَتِكَ ؟ وَأَيّ فَهْمٍ يَفْهَمُ مَادُونَ ذَلِكَ إلّا أَبْصَارٌ كَشَفْتَ عَنْهَا الْأَغْطِيَةَ ؛ وَهَتَكْتَ عَنْهَا الْحُجُبَ الْعَمِيّةَ ؛ وَفَرّقْتَ أَرْوَاحَهَا إلَى أَطْرَافِ أَجْنِحَةِ الْأَرْوَاحِ فَنَاجَوْكَ فِي أَرْكَانِكَ ، وَوَلَجُوا بَيْنَ أَنْوَارِ بَهَائِكَ ، وَنَظَرُوا مِنْ مُرْتَقَى الْتُرْبَةَ إلَى مُسْتَوَى كِبْرِيَائِكَ ، فَسَمّاهُمْ أَهْلُ الْمَلَكُوتِ زُوّاراً ، وَدَعَاهُمْ أَهْلُ الْجَبَرُوتِ عُمّاراً . الخطبة . (51)

يلاحظ هنا أنّه يقول بصراحة : إنّ تلك الأبصار التي كشفت عنها الأغطية تستطيع أن تنظر إلى بهاء نور عظمتك ، وضياء قدرتك ؛ وهذا لا يكون إلّا بفناء الصفة في صفات الله وأسمائه . لأنّه ما لم يتحقّق مقام الفناء في صفة الإبصار ، فإنّ رؤية نور الواحد الأحد محال ؛ وعند الفناء ، لا يكون هناك شيء آخر يحيط به ويكتنفه غير الله ؛ فهو وحسب ؛ وهو الذي يرى نفسه .

ومن الروايات الدالّة على فناء الصفة ، رواية نقلها الصدوق في «التوحيد» عن هِشام في حديث الزنديق الذي سأل الإمام الصادق عليه السلام عن نزول الله تعالى إلى السماء الدنيا ؛ فقال في جوابه : لَيْسَ كَنُزُولِ جِسْمٍ عَنْ جِسْمٍ إلَى جِسْمٍ . وواصل كلامه إلى أن قال : وَلَكِنّهُ يَنْزِلُ إلَى سَمَاءِ الدّنْيَا بِغَيْرِ مُعَانَاةٍ وَلَا حَرَكَةٍ فَيَكُونَ هُوَ كَما فِي السّمَاءِ السّابِعَةِ عَلَى الْعَرْشِ كَذَلِكَ فِي سَمَاءِ الدّنْيَا .

وأضاف هنا عليه السلام قائلاً : إنّمَا يَكْشِفُ عَنْ عَظَمَتِهِ ، وَيُرِي أَوْلِيَآءَهُ نَفْسَهُ حَيْثُ شَآء ؛ وَيَكْشِفُ مَا شَآءَ مِنْ قُدْرَتِهِ ؛ وَمَنْظَرُهُ بِالْقُرْبِ وَالْبُعْدِ سَوَاءٌ . (52)

إنّ كشف نفسه لأوليآئه ليس إلّا الفناء الوصفيّ ، أي : الفناء في عالم البصر ، وفي عالم علم الله وبصيرته ؛ لأنّ رؤية الله تعالى تستحيل مع البقاء وعدم حصول الفناء الممكن ، وذلك لأنّ معناه إحاطة المحدود بغير المحدود ؛ وأمّا في الفناء ، فليس شيء غير ذاته المقدّسة وهو البصير ؛ ولذلك فهو يذكّر بأن هذا الكشف إنّما هو لأوليآئه الذين رفعوا عنهم كلّ حجاب وكشفوا كلّ غطاء .

ونقل المرحوم ابن فهد في «عُدّة الداعي» عن وَهَب بن منبه فِيما أَوْحَى اللهُ إلَى دَاوُدَ : يَا دَاوُدُ ! ذِكْرِي لِلذّاكِرِينَ ؛ وَجَنّتِي لِلمُطِيعِينَ ؛ وَحُبّي لِلمُشْتَاقِينَ ؛ وَأَنَا خَاصّةٌ لِلْمُحِبّينَ . (53)

وفي الأدعية المتعارفة والمتداولة كثير من هذه المواضيع والطلبات التي يطرحها الداعون ؛ فقد جاء في المناجاة الشعبانيّة لأمير المؤمنين عليه السلام قوله :

إلَهِي وَأَلْهِمْنِي وَلَهاً بِذِكْرِكَ إلَى ذِكْرِكَ ! وَاجْعَلْ هَمّي إلَى رَوْحِ نَجاحِ أَسْمَائِكَ وَمَحَلّ قُدْسِكَ !

إلى أن يقول : إلَهِي هَبْ لِي كَمَالَ الْانْقِطَاعِ إلَيْكَ ، وَأَنِرْ أَبْصَارَ قُلُوبِنَا بِضِيَاءِ نَظَرِهَا اِلَيْكَ ، حَتّى تَخْرِقَ أَبْصَارُ الْقُلُوبِ حُجُبَ النّورِ فَتَصِلَ إلَى مَعْدِنِ الْعَظَمَةِ وَتَصِير أَرْوَاحُنَا مُعَلّقَةً بِعِزّ قُدْسِكَ .

إلَهِي وَاجْعَلْنِي مِمّنْ نَادَيْتَهُ فَأَجَابَكَ وَلَاحَظْتَهُ فَصَعِقَ لِجَلَالِكَ ، فَنَاجَيْتَهُ سِرّاً وَعَمِلَ لَكَ جَهْراً .

ويقول إلَيه : إلَهِي وَأَلْحِقْنِي بِنُورِ عِزّكَ الْأَبْهَجِ فَأَكُونَ لَكَ عارِفاً وَعَنْ سِواكَ مُنْحَرِفاً وَمِنْكَ خَائِفاً مُراقِباً . (54)

وتأتي المرحلة الثالثة من الفناء ، بعد الفناء في الأوصاف ، وهذه المرحلة هي الفناء في الذات ؛ أي أنّ ذات وليّ الله تندكّ وتفنى في ذات الله ؛ ويضمحلّ وجوده ، حتّى لا يبقى منه أثر .

وهنا يمحى ويزول كلّ اسم ورسم ؛ فالحقّ يقوم مقامه .

وهذا المقام أكبر وأسمى من أن تستطيع الألفاظ استيعابه والتعبير عنه ، أو أن تجد الإشارة إليه طريقها . وإنّ إطلاق المقام عليه . مبدئيّاً . مجاز ؛ وهذه من مواهبه جلّ شأنه لرسوله الأكرم : محمّد بن عبد الله صلّى الله عليه وآله وسلّم وهو مفتوح من بعده لأبنائه الطاهرين ؛ وكذلك فهو مفتوح لأولياء الله من أُمّته ، بمدلول الروايات الجمّة التي تدلّ على أنّ الله سبحانه وتعالى يلحق شيعتهم بهم في الدرجات الأُخرويّة .

وجاء حول الفناء في الذات رواية مأثورة في معراج رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم حول وليّ الله ، أنّ الله يقول : وَيُنْقَلُ مِنْ دارِ الْفَناءِ إلَى دَارِ الْبَقَاءِ ، وَمِنْ دارِ الشّيْطَانِ إلَى دارِ الرّحْمَنِ . (55)

ويستبين لنا من هذا أنّ ما وعده الله سبحانه وتعالى للأمم من المقامات والكرامات في الآخرة ، قد عيّنه ورزقه لأوليائه في هذه الدنيا ؛ وأنّ التحاقهم بإمامهم قد تحقّق هنا أيضاً .

ومن المواهب التي مَنّ بها الحقّ تبارك وتعالى على أوليآئه ، تسييرهم في عوالم متوسّطة تتحقّق بين منطلق السير ، وبين الوصول والفناء في الههم وربّهم .

ووردت في هذا المجال روايات جمّة في الكتب الأخلاقيّة والعرفانيّة المفصّلة ، لا سيّما في كتاب «بحار الأنوار» للمرحوم المجلسيّ رضوان الله عليه . ونتطرّق فيما يلى إلى قدر من الرواية الواردة حول معراج رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم المُصَدّرة بنداء «يا أحمد» كمثال على ما نقول :

فقد جاء في «إرشاد القلوب» (56) مرفوعاً وفي «بحار الأنوار» عن «إرشاد القلوب» وبسندين آخرين عن بعض كتب الحديث ، وبعض الكتب القديمة التى عُثر عليها ، جاء فيها رواية عالية المضمون للغاية ، وفيها نقاط دقيقة وعجائب حول السير والسلوك إلى الله . وهي رواية جامعة وكاملة حقّاً ، ولم تترك تعليماً مفيداً من التعاليم الخاصّة بالسير في مقام الولاية إلّا ذكرته ؛ وننقل فيما يلي ملخّصاً لها :

يا أحْمَدُ : هَلْ تَدْري أيّ عَيْشٍ أهْنَأُ ، وَأَيّ حياةٍ أَبْقَى ؟! قَالَ : اللّهُمّ لَا؟

قال : أمّا الْعَيْشُ الْهَنِيءُ ، فَهُوَ الّذِي لَايَفتُرُ صَاحِبُهُ عَنْ ذِكْرِي ؛ وَلَا يَنسَى نِعْمَتِي ؛ وَلَا يَجْهَلُ حَقّي ؛ يَطْلُبُ رِضَايَ فِي لَيْلَه وَنَهَارِه !

وَأَمّا الْحَيَاةُ الْبَاقِيَةُ ، فَهِيَ الّتِي يَعْمَلُ لِنَفْسِهِ ، حَتّى تَهُونَ عَلَيْهِ الدّنْيَا ؛ وَتَصْغُرَ فِي عَيْنِهِ ؛ وَتَعْظُمَ

الْآخِرَةُ عِنْدَهُ ؛ وَيُؤثِرَ هَوَايَ عَلَى هَوَاهُ ؛ وَيَبْتَغِي مَرْضَاتِي ؛ وَيُعَظِّمَ حَقّ عَظَمَتِي ، وَيَذْكُرَ عِلْمِي بِهِ ، وَيُرَاقِبَنِي بِاللّيْلِ وَالنّهَارِ عِنْدَ كُلّ سَيّئَةٍ أَوْ مَعْصِيَةٍ ؛ وَيَنْقَى قَلْبَهُ عَنْ كُلّ مَا أَكْرَهُ ؛ وَيُبْغِضَ الشّيْطَانَ وَوَساوِسَهُ ؛ وَلَا يَجْعَلَ لِإِبْلِيسَ عَلَى قَلْبِهِ سُلْطَاناً وَسَبِيلاً .

فَإِذَا فَعَلَ ذَلِكَ ، أَسْكَنْتُ قَلْبَهُ حُبّاً حَتّى أَجْعَلَ قَلْبَهُ لِي ؛ وَفَرَاغَهُ وَاشْتِغَالَهُ وَهَمّهُ وَحَدِيثَهُ مِنَ النّعْمَةِ الّتِي أَنْعَمْتُ بِهَا عَلَى أَهْلِ مَحَبّتِي مِنْ خَلْقِي ! وَأَفْتَحَ عَيْنَ قَلْبِهِ وَسَمْعَهُ حَتّى يَسْمَعَ بِقَلْبِهِ وَيَنْظُرَ بِقَلْبِهِ إِلَى جَلَالِي وَعَظَمَتِي ؛ وَأُضَيّقَ عَلَيْهِ الدّنْيَا وَأُبَغّضَ إِلَيْهِ ما فِيهَا مِنَ اللّذّاتِ ؛ وَأُحَذّرَهُ مِنَ الدّنْيَا وَمَا فِيهَا كَمَا يُحَذّرُ الرّاعِي غَنَمَهُ مِنْ مَرَاتِعِ الْهَلَكَةِ .

فَإِذَا كَانَ هَكَذَا يَفِرّ مِنَ النّاسِ فِرَاراً ، وَيُنْقَلُ مِنْ دَارِ الْفَنَاءِ إِلَى دَارِ الْبَقَاءِ ؛ وَمِنْ دَارِ الشّيْطَانِ إِلَى دَارِ الرّحْمَنِ .

يَا أَحْمَدُ ! وَلَأُزَيّنَنّهُ بِالْهَيْبَةِ ، وَالْعَظَمَةِ ؛ فَهَذَا هُوَ الْعَيْشُ الهَنِيءُ وَالْحَيَاةُ الْبَاقِيَةُ ؛ وَهَذَا مَقَامُ الرّاضِينَ .

فَمَنْ عَمِلَ بِرِضَايَ أُلْزِمُهُ ثَلَاثَ خِصَالٍ : أُعَرّفُهُ شُكْراً لَا يُخَالِطُهُ الْجَهْلُ ؛ وَذِكْراً لَا يُخَالِطُهُ النّسْيَانُ ؛ وَمَحَبّةً لَا يُؤْثِرُ عَلَى مَحَبّتِي مَحَبّةَ الْمَخْلُوقِينَ .

فَإِذَا أَحَبّنِي أَحْبَبْتُهُ ؛ وَأَفْتَحُ عَيْنَ قَلْبِهِ إِلَى جَلَالِي ؛ وَلَا أُخْفِي عَلَيْهِ خاصّةَ خَلْقِي ؛ وَ أُنَاجِيهِ فِي ظُلَمِ اللّيْلِ ، وَنُورِ النّهَارِ ؛ حَتّى يَنْقَطِعَ حَدِيثُهُ مَعَ الْمَخْلُوقِينَ ؛ وَمُجَالَسَتُهُ مَعَهُمْ ؛ وَأُسْمِعُهُ كَلَامِي وَكَلَامَ مَلَائِكَتِي ؛ وَأُعَرّفُهُ السّرّ الّذِي سَتَرْتُهُ عَنْ خَلْقِي ؛ وَأُلْبِسُهُ الْحَيَاءَ حَتّى يَسْتَحْيِيَ مِنْهُ الْخَلْقُ كُلّهُمْ ؛ وَيَمْشِيَ عَلَى الْأَرْضِ مَغْفُوراً لَهُ ؛ وَأَجْعَلُ قَلْبَهُ وَاعِياً وَبَصِيراً ؛ وَلَا أُخْفِي عَلَيْهِ شَيئاً مِنْ جَنّةٍ وَلَا نَارٍ .

وَأُعَرّفُهُ مَا يَمُرّ عَلَى النّاسِ فِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ مِنَ الْهَوْلِ وَالشّدّةِ ؛ وَمَا أُحَاسِبُ الأَغْنِيَاءَ وَالْفُقَرَاءَ وَالْجُهّالَ وَالْعُلَمَاءَ .

وَأُنَوّمُهُ فِي قَبْرِهِ ؛ وَأُنْزِلُ عَلَيْهِ مُنْكَراً وَنَكِيراً حَتّى يَسْأَلَاهُ ؛ وَلَا يَرَى غَمْرَةَ الْمَوْتِ وَظُلْمَةَ الْقَبْرِ ، واللّحْدِ ، وَهَوْلَ الْمُطّلَعِ ؛ ثُمّ أَنْصِبُ لَهُ مِيزَانَهُ ؛ وَأَنْشُرُ دِيوَانَهُ ؛ ثُمّ أَضَعُ كِتَابَهُ فِي يَمِينِهِ فَيَقْرَؤُهُ مَنْشُوراً .ثُمّ لَا أَجْعَلُ بَيْنِي وَبَيْنَهُ تَرْجُمَاناً ؛ فَهَذِهِ صِفَاتُ الْمُحِبّينَ .

يَا أَحْمَدُ ! اجْعَلْ هَمّكَ هَمّاً وَاحِداً ! فَاجْعَلْ لِسَانَكَ لِسَاناً وَاحِداً ! وَاجْعَلْ بَدَنَكَ حَيّاً لَا تَغْفُلُ عَنّي ؛ مَنْ يَغْفُلْ عَنّي لَا أُبَالِي بِأَيّ وَادٍ هَلَكَ . الحديث . (57)

وروى في «الكافي» بإسناده أنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم صادف حَارِثَةَ بْن مَالِكِ بْنِ النّعْمَانِ الأنْصاريّ ، فقال له : كيف أنت يا حارثة ؟!

فقال : مُؤْمِنٌ حقّاً ! فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ صَلّى اللهُ عَلَيهِ وآلِهِ وسَلّمَ : لِكُلّ شيْءٍ حَقِيقَةٌ ؛ فَمَا حَقِيقَةُ قَوْلِكَ ؟! فَقَالَ : يا رَسُولَ اللهِ ! عَزَفَتْ نَفْسِي عَنِ الدّنْيَا فَأَسْهَرْتُ لَيْلِي ؛ وَأَظْمَأتُ هَوَاجِرِي ؛ وَكَأَنّي أَنْظُرُ عَرْشَ رَبّي ؛ وَقَدْ وُضِعَ لِلْحِسَابِ ؛ وَكَأَنّي أَنْظُرُ إِلَى أَهْلِ الْجَنّةِ يَتَزَاوَرُونَ فِي الْجَنّةِ ؛ وَكَأَنّي أَسْمَعُ عُوَاءَ أَهْلِ النّارِ فِي النّارِ .

فَقَالَ رَسُولُ اللَهِ صَلّى اللَهُ عَلَيهِ وآلِهِ وسَلّمَ : عَبْدٌ نَوّرَ اللَهُ قَلْبَهُ ؛ أَبْصَرْتَ فَاثْبُتْ . الحديث . (58)

وقد ذكرنا بحول الله وقوّته في الجزء الثاني من كتاب «معرفة المعاد» المجلس التاسع شيئاً من حالات أوليآء الله . وهذه المواضيع التي ذكرناها هنا تنبئ عن موجز لعالم من الأخبار والآثار والقصص والحكايات الحيّة عن أوليآء الله ؛ ولو تدبّرناها بذهن صاف وفكر راسخ ، فسنجد أنّ طريق الولاية وبلوغ مقام العبوديّة الخالصة للحقّ المتعال مفتوح ؛ وغير موصد بوجه أحد ، غاية الأمر أنّ أئمّة الدين هم معلّمو هذا الطريق ، وهداة هذا السبيل . فَلِلَهِ دَرّهُمْ وَعَلَيْهِ أَجْرُهُم . ومن لوازم مقام الإمامة أن يأخذوا بِيَدِ المأموم ؛ فيقودوه تلقاء المكان الذي ذهبوا إليه ؛ والسلام علينا وعلى عباد الله الصالحين .

تعليقات:

1) الآيات 62 . 64 ، من السورة 10 : يونس .

2) الآية 119من السورة 4 : النساء .

3) الآيتان 29 و30 ، من السورة 7 : الأعراف .

4) الآية 27 ، من السورة 7 : الأعراف .

5) الآيتان 29 ، 30 ، من السورة 53 : النجم .

6) آيات السورة 102 : التكاثر .

7) الآية 28 ، من السورة 18 : الكهف .

8) الآية 8 ، من السورة 73 : المزّمل .

9) الآية 31 ، من السورة 3 : آل عمران .

10) أُصول الكافي» طبع الحيدريّ ، ج 2 ، باب العبادة ص . 84

11) نهج البلاغة» ج 2 ، الحكمة . 237

12) الخصال» باب الثلاثة ، الطبعة الحروفيّة ، ص . 188

13) الآية 21 ، من السورة 24 : النور .

14) الآيتان 159 و 160 ، من السورة 37 : الصافّات .

15) الآية 200 ، من السورة 2 : البقرة .

16) الآية 110 ، من السورة 20 : طه .

17) الآية 96 ، من السورة 16 : النحل .

18) الآية 88 ، من السورة 28 : القصص .

19) الآية 115 ، من السورة 2 : البقرة .

20) الآيتان 26 و 27 ، من السورة 55 : الرحمن .

21) نسخة مخطوطة من رسالة الولاية للأُستاذ الفقيد آية الله العلاّمة الطباطبائيّ رضوان الله عليه و قد استنسختها بخطّي ، ص . 32

22) المصدر السابق ، ص . 42

23) الآيتان 10 و 11 ، من السورة 56 : الواقعة .

24) الآية 32 ، من السورة 35 : فاطر .

25) الآيات 57 . 61 ، من السورة 23 : المؤمنون .

26) الآيات 18 . 21 ، من السورة 83 : المطفّفين .

27) الآية 122 ، من السورة 6 : الأنعام .

28) الآية 52 ، من السورة 42 : الشورى .

29) الآية 8 ، من السورة 61 : الصفّ .

30) الآية 28 ، من السورة 57 : الحديد .

31) الآية 22 ، من السورة 39 : الزمر .

32) الآية 37 ، من السورة 24 : النور .

33) كان الناس في قديم الأيّام يستضيئون بالفوانيس التي تُضاء بالزيت أو النفط . وكانوا يعملون فتحة في الجدار على هيئة الرفّ فيضعون الفانوس هناك ، وكانوا يسمّون هذه الفتحة بالكوّة أو المشكاة .

34) الآيات 35 . 38 ، من السورة 24 : النور .

35) الآية 5 ، من السورة 32 : السجدة .

36) الآيتان 159 و 160 من السورة 37 : الصافّات .

37) الآيتان 127 و 128 ، من السورة 37 : الصافّات .

38) الآيتان 83 و 84 ، من السورة 38 : ص .

39) الآية 24 ، من السورة 12 : يوسف .

40) الآية 55 ، من السورة 43 : الزخرف .

41) الآية 10 ، من السورة 48 : الفتح .

42) الآية 80 ، من السورة 4 : النساء .

43) التوحيد» للشيخ الصدوق،باب 26، ص169،168؛ وذكر الكليني هذه الرواية أيضاً في «الكافي» مسندة عن الإمام الصادق، ج1 من الأُصول، الطبعة الحروفيّة الحيدريّة، ص .144

44) الآية 17 ، من السورة 8 : الأنفال .

45) الآية 4 . 3 ، من السورة 53 : النّجم .

46) الآية 128 ، من السورة 3 : آل عمران .

47) بحار الأنوار» طبع كمباني ج 10 ، ص . 13 الحديث بهذا اللفظ عن جابر .

48) روى الكلينيّ هذا الحديث بسندين متّصلين . «أُصول الكافي» ج 2 ، ص 352 ، عن الطبعة الحيدريّة .

49) الآية 31 ، من السورة 3: آل عمران .

50) الشعر للمغربيّ ؛ ويقول الشاعر هنا :

لمّا أشرق نور جمال الحبيب على قلبي ، رأت عين قلبي الحسن في كمال الحبيب .

51) إثبات الوصيّة» الطبعة الحجريّة ، ص . 95

52) بحار الأنوار» كتاب الاحتجاج ، الطبعة الكمباني ، ج 4 ، ص . 137 وقد نقل المجلسيّ هذه الجملات عن بعض نسخ «التوحيد» للصدوق .

53) عدّة الداعي» ص . 186

54) الإقبال» لابن طاووس ص 685 إلى ص 687 ، يروي ذلك عن ابن خالويه .

55) إرشاد القلوب» باب 54 ، حديث المعراج ، ص 284 من طبع المصطفويّ .

56) نفس المصدر .

57) بحار الأنوار» الطبعة الكمباني 17 : 8 و 9 الطبعة الحروفيّة ج 77 : 28 و . 29 وذكر هذا الحديث أيضاً الشيخ الحرّ العامليّ في «الجواهر السنيّة» الطبعة الحجريّة من ص 145 إلى ص . 154

58) ذكر صاحب «الكافي» هذه الرواية بهذا المضمون عن الإمام الصادق عليه السلام في الجزء الثاني من «أُصول الكافي» ص 54 ؛ وكذلك ذكرها بمضمون قريب لذلك المضمون في ص 53 ؛ ورواها المجلسيّ في «بحار الأنوار» في ج 15 من الطبعة الكمباني ، في القسم الثاني ، وهو خاصّ بكتاب الإيمان والكفر ، في ص 63 و 64 ؛ وذلك عن «الكافي» ، وفي ص 67 و 68 عن «المحاسن» .

.

الدرس الخامس والستّون إلى السابع والستّين: الولاية التكوينيّة والتشريعيّة لرسول الله والأئمّة عليهم السلام

بِسْمِ اللَهِ الرّحْمَنِ الرّحِيمِ

وصلّى اللهُ على محمّد وآله الطّاهرين

ولعنة اللَه على أعدائهم أجمعين من الآن إلى قيام يوم الدين ولا حول ولا قوّة إلّا باللَه العليّ العظيم

قال الله الحكيم في كتابه الكريم :

النّبِىّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَ جُهُ أُمّهَتُهُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ (فِي الوراثة) فِى كِتَبِ اللَهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَجِرِينَ (الذين تآخوا فيما بينهم) إلّآ أن تَفْعَلُوا إِلَى أَولِيَآئِكُم مّعْرُوفًا (فتوصوا إليهم وحينذاك يُقدّمون في الإرث على أُولى الأرحام) كَانَ ذَ لِكَ فِى الْكِتَبِ مَسْطُورًا . (1)

إنّ من جملة المسائل والأحكام الشرعيّة ولاية رسول الله صلّى الله عليه وآله والأئمّة عليهم السلام على الناس ؛ وتقسم هذه الولاية إلى قسمين : القسم الأوّل : الولاية الحقيقيّة المعبّر عنها بالولاية التكوينيّة . والقسم الثاني : الولاية الاعتباريّة المعبّر عنها بالولاية التشريعيّة .

وبعد أن استبان في الدروس الماضية معنى الولاية في اللغة وفي المحاورات ؛ لابدّ أن نرى الآن كيف تكون ولاية أُولئك العظام ؟ هل هي مكتسبة أو ذاتيّة ؟ مضافاً إلى ذلك كيف يكون تصوّر حقيقة هذا المعنى بحقّهم ؟ إنّنا بإذن الله سنتناول هذا الموضوع في درسنا الحالي بشكل تستبين فيه المسألة كالشمس الساطعة .

لا ريب أنّ حقيقة الذات الإلهيّة على أساس التوحيد ؛ وأنّ الأدلّة العقليّة والبراهين الفلسفيّة من جهة ، والشهود الوجدانيّ والعرفان القلبيّ من جهة ثانية ، والآيات والروايات المتواترة والمتظافرة من جهة ثالثة ، كلّها على خطّ واحد ، وتعتبر توحيد الذات المقدّسة للحقّ المتعال من البديهيّات ، والضروريّات ، واليقينيّات من جميع الجوانب .

أي : أنّ الله واحد بجميع مختصّاته من الذات ، والصفات ، والأسماء والأفعال ؛ وليست شائبة الاثنينيّة والغيريّة مشهودةً في أيّ مرتبة من هذه المراتب ؛ ولا يمكن أن تكون مشهودة .

والذات المستقلّة للقيّوم بالذات ، والوجود المحض البسيط الخارج عن كلّ لون من ألوان القيد والتعيّن واحد في عوالم الوجود كلّها ، وذلك هو الوجود الأقدس للحقّ تبارك وتعالى .

وكلّ صفة مثل : العلم ، والقدرة ، والحياة ، وغيرها ؛ وكلّ اسم مثل : العالم ، والقادر ، والحي وغيرها تختصّ بالأصالة والحقيقة بذات الحقّ في العوالم جميعها ؛ وأنّ ذلك العلم واحد ، والقدرة واحدة ، والحياة واحدة ؛ وكذلك العالم ، والقادر ، والحيّ فإنّه واحد في كلّ منها أيضاً ؛ وهو الذات المقدّسة للحقّ الموصوفة بهذه الصفات . فصفة العلم واحدة ، واسم العالم واحد ؛ وذلك لذات الحقّ المتعال .

وكلّ فعل بالأصالة والحقيقة يختصّ بالله في عوالم الوجود كلّها . كلّ موجود من الموجودات لا يمكن أن يكون له فعل بشكل مستقل ؛ إلّا أن يكون ذلك الفعل بالأصالة لله ؛ فالأفعال جميعها في

العالم فعل واحد ؛ وكلّها فعل الله .

إنّ هذه المراتب الثلاث للتوحيد : أي : التوحيد في الذات ؛ والتوحيد في الأسماء والصفات ، والتوحيد في الأفعال هي من خصائص الإلهيّين ، وكلّهم متّفقون عليها ؛ وفي ضوء هذا المبدأ ، فإنّ كلّ مدرسة من مدارس الإلهيّين التي كانت أرسخ ، واستطاعت أن تأتي ببرهان أقوى ؛ قد أوضحت التوحيد أكثر فأكثر . ومن بين جميع الإلهيّين نجد أنّ توحيد الأُمّة الإسلاميّة هو الأفضل والأرسخ لأنّ حامله إليها هو مُحَمّدُ بن عَبْد اللهِ عليه الصلاة والسلام الذي كان قد بلغ الدرجة القصوى من التوحيد ، وترك هذا الباب مفتوحاً لأُمّته .

وكانت شعاراته تتجلّي في : اللهُ أَكْبَرُ ، وقُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ، ولَا إِلَهَ إِلّا اللَّهُ وَحْدَهُ وَحْدَهُ ، وهُوَ الْأَوّلُ وَالآخِرُ وَالظّاهِرُ وَالْبَاطِنُ ، وَهُوَ الْعَلِيمُ وَهُوَ الْحَكِيمُ وَهُوَ الْحَيّ وَهُوَ السّمِيعُ وَهُوَ الْبَصِيرُ وَالْحَمْدُ لِلهِ وَسُبْحَانَ اللَهِ وأمثالها . وهذه الشعارات صورة ناطقة تدلّ بوضوح على التوحيد الصرف الخالص لذات الحقّ المقدّسة في جميع المراتب .

لذلك فإنّ الموجودات من المُلكيّة والمَلكوتيّة ، ومن النفوس القدسيّة للعوالم المجرّدة حتّى الهيولى الأوّليّة ومادّة المواد لا أصالة لها ؛ بل الأصالة لذاته ؛ أمّا الموجودات فظلّيّة وتبعيّة ومرآتيّة ؛ أي : أنّها مُظهرة لوجود الله .

ولم تصدر الموجودات عن ذات الحقّ المقدّسة على نحو التولّد ؛ فيكون لها استقلالها ، كولادة المولود من والده ؛ بل هو جلّ شأنه لَمْ يَلِدْ ؛ وكذلك فإنّ الأصالة الملحوظة فيها هي ليست أصالتها ، بل هي أصالة الحقّ ؛ لأنّه تعالى لَمْ يُولَدْ ؛ إذ له وجود خالص وبسيط ووحدة بالصرافة ، وله تشخّص فهو لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ، فَسُبْحَانَ اللَهِ الْوَاحِدِ الْقَهّارِ .

إنّ تكوين الكائنات والموجودات من العقول المجرّدة والنفوس الكلّيّة ، وصولاً إلى عالم الطبع والمادّة ، كلّها لا تشكّل خروجاً عن الذات المقدّسة ؛ أي : أنّه تعالى لم يوجدها بإرادته الأزليّة مستقلّة ، لأنّ الإيجاد الاستقلاليّ يُنافي الأحديّة والواحديّة ؛ بل إنّ إيجادها على نحو ظِلّيّ وتَبَعيّ وَعَرَضِيّ ؛ فكلّها تمثّل ظلّ الله . ولذلك فإنّ التكوين لا يعني الإيجاد الاستقلاليّ ، وأنّ المخلوق لا يعني وجوداً مستقلاً ؛ بل إنّ التكوين يعني الإيجاد الظلّيّ والعَرَضيّ والإظهار في مرآة التجلّي ؛ والمخلوق يعني الوجود الظلّيّ والظهور في التجلّي ؛ فالمخلوق مظهر ومَجْلَى ، والتكوين ظهور وتجلّي .

إنّ القرآن الكريم يعتبر الموجودات كلّها آيات الله ؛ أي : دلالاته وعلاماته وبراهينه ومراياه ، وأنّى دار الحديث عن التغييرات والحوادث والظواهر المادّية ، أو الموجودات الروحيّة والتجرّديّة ، فإنّه يذكرها كلّها بوصفها آيات ودلالات .

إنّ خلق السماوات والأرض ؛ واختلاف الليل والنهار ؛ والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس ؛ ونزول المطر من السماء ؛ وإحياء الأرض به ؛ وبثّ كلّ دابّة على الأرض ؛ وتصريف الرياح ؛ والسحاب المسخّر بين السماء والأرض ؛ (2) وتسخير الليل والنهار ؛ والشمس والقمر والنجوم ؛ (3) والزرع ؛ والزيتون والنخيل ، والأعناب ، ومن كلّ الثمرات ؛ (4) وثمرات النخيل والأعناب ؛ (5) والنحل وحياتها وكيفيّة خروج العسل من بطونها ، (6) وضياء النهار وظلمة الليل ، (7) وخلق الإنسان من

تراب ، (8) وخلق الأزواج ، (9) واختلاف الألسن والألوان ، (10) والمنام في الليل واليقظة في النهار ، (11) وتسخير الطيور في جوّ السماء ، (12) وظهور البرق في السماء خوفاً من الضرر وطمعاً في المنفعة ، (13) وما ذرأ الله في الأرض مختلفاً ألوانه من الشجر والثمر والحبوب والخُضَر وغيرها ؛ (14) وآلاف الحوادث والظواهر كلّها آيات الله .

النبيّ عيسى وأُمّه آية ، (15) وناقة النبيّ صالح آية أيضاً . (16)

وإجمالاً فإنّ كلّ شيء آية ؛ سواء في الآفاق ، أو في الأنفس ؛ كلّها دلالات لله ومرآة لله ؛ إذ يُظهر الله هذه الآيات ليُظهر نفسه ؛ ذلك أنّ المرآة لا ذاتيّة لها ؛ وليس لها تجلّ ذاتيّ ؛ وكلّ ما لها هو تقبّلها لانعكاس الصور فيها .

وما أروع وأسمى ما توضّحه الآيتان 53 و 54 من السورة 41 : فصّلت ؛ يقول جلّ من قائل :

سَنُرِيهِمْ ءَايَتِنَا فِى الْأَفَاقِ وَفِى أَنْفُسِهِمْ حَتّى يَتَبَيّنَ لَهُمْ أَنّهُ الْحَقّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبّكَ أَنّهُ عَلَى كُلّ شَىْءٍ شَهِيدٌ * أَلَآ إِنّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مّن لّقَآءِ رَبّهِمْ أَلَآ إِنّهُ بِكُلّ شَىْءٍ مُحِيطٌ .

ولمّا كان الضمير في «أَنّهُ» عائداً إلى الله في الظاهر ؛ و«شَهِيدٌ» إمّا بمعنى شاهد ؛ وهو اسم فاعل ؛ أو بمعنى مشهود ، وهو اسم مفعول ؛ فالآية . على كلّ التقديرين . تنبئنا أنّ الله مشهود في كلّ شيء ؛ أو أنّه شاهد وحاضر في كلّ شيء ؛ فالأشياء . إذَن . مظهر لوجود الله ؛ وينبغي أن نرى الله فيها ، لأنّها لا وجود لها إلّا بالحقّ ؛ وأصالتها واستقلالها وجود الحقّ سبحانه وتعالى .

بَيدَ أنّ هذا الموضوع خافٍ على العامّة ، فهم ينظرون إلى الأشياء نظراً استقلاليّاً ، ولهذا فهم لا يرون الله ؛ ومن هذا المنطق فهم في خيبة ومرية من لقاء ربّهم ؛ وما أوهى هذا الشكّ ، وأبين خطبه وخطأه ! وربّهم بكلّ شيء محيط ؛ وكلّ شيء يوجد به أوّلاً ، ثمّ يتّخذ له وجوداً وانتماءً .

وحاصل الكلام أنّه ليس هناك موجود مؤثّر في عوالم الوجود كلّها إلّا الله تبارك وتعالى . ولو كان هناك موجود مؤثّر فبحوله وقوّته وليس هناك إلّا ظهور الله تعالى وتجليّة ؛ إذَن ، كلّ ما هو قائم يستند على الحقّ سبحانه وتعالى .

ومن هنا يستبين لنا بجلاء أنّ الوَلاية هي مع الموجودات جميعها ، صغيرها وكبيرها ؛ ذرّتها ومجرّتها ؛ وهي مع كلّ شيء ، من الهيولى الأوّليّة حتّى الحجاب الأقرب والأعلى درجة من الموجودات القدسيّة المجرّدة .

لأنّه ما لم تكن هناك ولاية ، فلا وجود لأيّ موجود ، ولا يعقل أن يتقمّص موجود رداء الوجود .

ذلك لأنّنا قلنا أنّ الوَلاية هي عبارة عن حصول شيئين حصولاً ليس بينهما ما ليس منهما .

وحيث ما يوجد كلّ موجود ، فلابدّ أن لا تكون بينه وبين الحقّ أيّ فجوة وثغرة ، سواء في وجوده أو في علمه وقدرته وحياته ، وذلك لكي يكون موجوداً ، وإلّا فإنّ إيجاده محال .

ونحن نجد وندرك بالوجدان موجودات كثيرة بأشكال وسجايا متنوّعة ، في الآفاق وفي الأنفس ؛ وهذه كلّها خلقت مع الولاية ؛ أي : لا فجوة ولا حجاب بينها وبين ذات الحقّ المقدّسة إلّا وجودها وكيانها وتعيّنها . ولو صادف أحياناً وجود شيء بينها وبين الحقّ غير تعيّنها وماهيّتها ، لاستحال الخلق في هذه الحالة ، ولفصمت عرى الارتباط بين الله والموجودات .

إنّ الموجودات كلّها مع الله ؛ ومرتبطة به ، بل إنّ وجودها هو عين ارتباطها ؛ وهذا هو معنى الوَلاية . إذَن ، وجود كلّ موجود ملازم للولاية ؛ والولاية لله الحقّ ، وولايته مع كلّ موجود . ومن هنا نفهم حسناً قوله تعالى :

وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنتُمْ (17) ،

وقوله تعالى :

عَلَى كُلّ شَىْءٍ شَهِيدٌ وَبِكُلّ شَىْءٍ مُحِيطٌ .

وندرك جيّداً أيضاً كيف يكون الوليّ أحد أسماء الله ، لأنّ ما يلزمه هذا الاسم هو وجود ولايته مع الموجودات جميعها ، كالعليم ، والقدير ، والسميع ، والبصير ، ونفهم جيّداً أيضاً ما هو المعنى الذي تحمله الآيات الكريمة التي تنسب الولاية إلى الله .

قال تعالى:

قُلْ أَغَيْرَ اللَهِ أَتّخِذُ وَلِيّاً فَاطِرِ السّمَوَ تِ وَالْأَرْضِ (18)

أي : أنّ ما يلزمه ويفرضه الخلق هو الولاية . إذَن ، كيف يمكن أن نتّخذ وليّاً غير الله في عالم التكوين ، أو في عالم التشريع ؟

ولمّا كنّا نعلم أنّ اختلاف الموجودات في قربها من الحقّ تعالى وبعدها عنه هو اختلاف حجبهم ؛ أي : كثرة التعيّنات وقلّتها ؛ أو بكلمة بديلة ، اتّساع الماهيّات والحدود والقيود الوجوديّة أو ضيقها ، وأنّ عالم الكثرة والوجود ظهر بهذا الشكل الباهر الجميل وفقاً لذلك الاختلاف ، فلا يتكافأ . إذَن . حظّ الموجودات كلّها من الولاية ، كما لا يتكافأ حظّها من علم الحقّ وحياته وقدرته . وكلّما كان الموجود إلى الحقّ أقرب ، وماهيّته أوسع ، ووجوده أفسح ، وتجرّده أكثر ، كانت ولايته أكثر ، أي : كان حجابه أقلّ ؛ وكلّما كانت ماهيّته أضيق ، ووجوده أصغر ، وتجرّده أقل ، كانت ولايته أقل ؛ أي : كان حجابه أكثر .

ولمّا كنّا نعلم أنّ شدّة الولاية متلازمة مع شدّة النور والعلم والحياة والقدرة وسائر أسماء الله الأُخرى ؛ فإنّ ضعفها يتلازم مع ضعف النور والعلم والأسماء الإلهيّة الأُخرى . ولذلك فإنّ كلّ موجود أقرب إلى الله عموماً ، أي : أنّ حجابه أقلّ وولايته أقوى ؛ فإنّ شعاع نوره وحياته وعلمه وقدرته يمتدّ في العالم أكثر ، وإحاطته أشدّ وأشمل وسيطرته وهيمنته على ما سوى الله أكثر ، وتدبيره وتكفّله في عالم الإمكان أوسع ؛ وبكلمة بديلة ، فإنّ مقداراً كبيراً من الموجودات الممكنة يقع تحت إشعاع نوره ، وفي قبضته وتدبيره والعكس بالعكس .

ونحن نرى بالوجدان أنّ تأثيرات وتأثّرات تجري في هذا العالم ؛ بعضها صغير كطيران الذباب ، وحركة البعوض ؛ وبعضها كبير كخلق الفيل . بعضها كالذرّة ، وبعضها كالشمس والقمر والكواكب الثابتة والسيّارة . بعضها كفهم وإدراك دابّة بسيطة مثل دودة بين طيّات التراب ، وبعضها كعلم وإدراك جبرئيل والروح وهو من الملائكة المقرّبين .

وفي ضوء ذلك ، لابدّ أن يكون علم هذه المخلوقات المقرّبة وقدرتها، وسعة حياتها ، وتألّق نورها المعنويّ أقوى ، فهي تدير عالماً بذلك بأكمله ، على عكس تلك الذرّة والدودة اللتين ليس لهما هذا العلم

والحياة ؛ ولا حاجة لهما طبعاً .

وفي ضوء هذا الكلام فإنّ المخلوقات جميعها ، من المادّة التافهة الضعيفة ، إلى جبرئيل الروح الذي يحظى بمقام أفضل من سائر الملائكة . لكلّ واحد منها درجة خاصّة ، وله حدّ معيّن من العلم والحياة والقدرة . وبالتالي حدّ خاصّ من الوجود ؛ وتبعاً لذلك فإنّ كلّ واحد في درجة خاصّة ومنزل معيّن من الوَلَاية .

أجل ، لاريب ولا شكّ في كلّ ما قلناه حتّى الآن ؛ والأدلّة العقليّة معنا خطوة فخطوة ، وشهود العارفين العظام ووجدانهم يدعم هذه المواضيع بكلّ تفاصيلها ؛ كما جاءت بذلك الآيات والروايات التي تفوق حدّ الإحصاء وإمكانيّة الاستقصاء .

وينبغي الآن أن نرى : أين يكون موقع الإنسان على درب الولاية الطويل ؟ وما هو مقدار حصّته من الماء المعين لمنهل شريعة الوحدة ؟

لا يخالجنا الشكّ أنّ الإنسان مهما كان شكله أو صورته أو مكانه أو عرقه ، فهو يتمتّع بقابليّة يمكنه من خلال حركتها أن يوصل درجة استعداده إلى الفعليّة والظهور ، وأن يوسّع نطاق وجوده بمقدار ملحوظ ، وأن يزيد من علمه وقدرته .

فلم يحز أحد من الناس ملكة العلم والطبّ ، وأنواع المهن والصناعات ، والكتابة وما ماثلها منذ ولادته ، بل حازها وتمكّن منها بواسطة التمرّس ، وجهاد النفس ، والتربية والتعليم في مدرسة خاصّة .

ويمكن أن يكون سير الإنسان باتّجاه الماديّات ، وإزدياد الشهوات ، والجاه ، وسائر الشؤون الاعتباريّة الدنيويّة ، فيظفر بموقع مرموق في هذا المجال . كما يمكن أن يتركّز نشاطه على مضاعفة المعنويّات ، والعلم والفكر ، وطهارة الباطن ، وصفاء القلب ، وتعزيز الفكر ، ومن ثمّ اجتياز المراحل الماديّة الجزئيّة وبلوغ حقائق العلم والقدرة والحياة في آخر المطاف .

إنّ السير إلى الله ، وبلوغ مقام العزّ الشامخ للحقّ تعالى جبلّة فطر عليها الإنسان . وإمكان بلوغ هذه الدرجة ، من ذاتيات النفس الناطقة .

وقد أثبتنا في الدروس السابقة أنّ الإنسان بوسعه أن يحظى بدرجات وكمالات في السير إلى الله . وأن يصل ، في مراحل الفَنَاء في الله إلى ، مرحلة الفَنَاء في الفعل ، والفناء في الاسم والصفة ، والفناء في الذات . ويبلغ بذلك مقام الوصول . فطريق العرفان والتكامل مفتوح أمامه .

ولابدّ أن نعلم . طبعاً . أنّ الإنسان الذي نتكلّم عنه ، لا نعني به ذلك الجسم الماديّ والطبيعيّ المحدود الذي يشغل حيّزاً من الفراغ يبلغ مترين ، بل نعني به : نفسه الناطقة وروحه التي يتيسّر لها التحرّك والسير في تلك المراحل .

وعندما يبلغ الإنسان مقام أيّ اسم من أسماء الحقّ تعالى ، فإنّه يصبح مظهراً لذلك الاسم ؛ ويتجلّى ذلك الاسم في وجوده . فلو كان مظهراً لاسم الجمال مثلاً ، فإنّه يصبح جميلاً . وكذا لو كان مظهراً لاسم الجلال فإنّه يصبح جليلاً . ولو كان مظهراً لاسم العليم ، فإنّه يصبح عالماً . ولو كان مظهراً لاسم القدير ، فإنّه يصبح قادراً .

وكما تختلف المظهريّة تبعاً لتباين درجات الوصول . فالإنسان العادي هو بالمقدار الملحوظ مظهر

اسم العليم ، والسميع ، والبصير ، والقدير ، والحيّ .

ولذلك فقد اكتفى بهذا المقدار من الحياة ، والعلم ، والقدرة ، والبصر ، والسمع . فكلّما ازداد سير الإنسان نحو الحقّ ، واصّاعدت مظهريّة الأسماء والصفات ، فإنّ تجلّي هذه الأسماء والصفات يتضاعف أكثر فيه .

أي : كلّما اجتاز الإنسان محدوديّة وجوده ومادّيّته ، فإنّه يلج البحر الخضمّ للأسماء والصفات أكثر ، فينال بذلك حظّاً أكبر .

حتّى يبلغ محلاًّ يكون فيه المظهر التامّ للاسم والصفة . أي : يصل إلى مقام الفناء المطلق في الاسم والصفة ، كما في اسم العالم ، والقادر ، والرحمن ، والرحيم ، وغيرها . وفي مثل هذه الحالة ، فإنّ ذلك الاسم سيتجلّى في الإنسان بنحو أتمّ وأكمل .

وإذا بلغ أحد مقام الفناء في اسم العالم وصفة علم الحقّ تعالى ، فإنّه يصبح المظهر التامّ لاسم العالم وصفة علم الحقّ تعالى . أي : يطّلع على كلّ مكان ، وكلّ أحد ، وكلّ شيء ، ويصبح ما كانَ وَما يَكُونُ وَمَا هُوَ كَائنٌ عنده سواء . فالعلم بالمجرّدات ، والعلم بالمادّيّات ، والعلم بالدنيا ، والعلم بالآخرة ، سيكون بأجمعه حاضراً عنده . أي : أنّه يدرك الموجودات بالعلم الشهوديّ ، والحضوريّ والوجوديّ .

وإذا بلغ أحد مقام الفناء في اسم الحيّ ، وصفة حياة الحقّ تعالى فإنّه يصبح المظهر التامّ لذلك الاسم ، ولصفة حياة الحقّ تعالى . أي : أنّه موجود مع جميع الموجودات بحياة الحقّ . وتكون له المعيّة في الحياة مع كلّ شيء اعتباراً من الذرّة الصغيرة حتّى الأشياء الكبيرة .

وكذلك إذا بلغ أحد مقام الفناء في اسم القادر ، وصفة قدرة الحقّ تعالى ، فإنّه يصبح المظهر التامّ لذلك الاسم والصفة ، ويكون قادراً على القيام بكلّ شيء ، الكبير والصغير عنده سواء . ويصبح قادراً على كلّ شيء بقدرة الحقّ المتعال ، كالإحياء والإماتة ، وشفاء الأمراض ، وإحداث تغيير وتبديل في الأُمور والأوضاع بإذن الحقّ تعالى .

وإذا بلغ أحد مقام الفناء في اسم «الله» أو في اسم «هُوَ» فلأن الله اسم جامع لصفات الحقّ كلّها فإنّه لذلك سيكون مظهراً لكلّ صفة واسم . وسيكون له الإحياء ، والإماتة ، والقدرة على كلّ أمر من الأُمور ، والعلم بكلّ حادثة من الحوادث .

ومن الطبيعيّ فإنّ علينا أن لا ننسى بأنّ هذه الأعمال تتحقّق تحت عنوان : المظهريّة والتجلّي . أي : بإذن الله تعالى . وبكلمة بديلة ، العمل هو عمل الله ذاته الذي يتجلّى في هذه الآية وهذه المرآة ، لأنّ كلّ موجود عدا الحقّ مهما كان العنوان والتعبير . ليس له استقلال في الوجود ، أو استقلال فيالاسم والصفة . وفي هذه الحالة ، فإنّ الحقّ هو الذي يهب ظهور اسمه وصفته .

كما أنّ الاسم والصفة في جميع الموجودات مختصّان بالحقّ وحسب . غاية الأمر ، أنّهما يظهران ويتجلّيان في ماهيّات وتعيّنات متباينة بأشكال متنوّعة . وإلّا فإنّ الحقّ المتعال لا يتنازل أبداً عن مقام عزّ قدسه الشامخ ، ولا يمنح أيّ موجود صفة أو اسماً بصورة مستقلّة ، فإنّ هذا المنح يتنافى مع سعة عزّه ، وهو تبارك وتعالى لا يُذلّ ولا ينكسر ولا يعجز أبداً ، وما برح ثابتاً في مقام عِزّه .

وبعد أن بلغ الإنسان مقام الفناء التامّ ، وتيسّر له الفناء في الذات ، والصفة ، و الاسم ، والفعل ، وطوى أسفاره الأربع . الأُول : السّفَرُ مِنَ الْخَلْقِ إِلَى الْحَقّ ؛ والثاني : السّفَرُ فِي الْحَقّ بِالْحَقّ في الأسماء والصفات مع الحق ؛ والثالث : السّفَرُ مِنَ الْحَقّ إِلَى الْخَلْقِ بِالْحَقّ ؛ والرابع : السّفَرُ فِي الْخَلْقِ بِالْحَقّ ، فإنّه يصبح إنساناً كاملاً ، ويبلغ درجة كماله المطلق ، وتبلغ جميع القوى والقابليّات الإلهيّة المودعة في وجوده مقام الفعل المحض ، ويكون إنساناً بالفعل ، ويصبح مرآة مَجْلُوّة لصفات الجمال والجلال والذات الأحديّة ، وتكتمل ولايته ، أي أنّه يصبح وليّاً مطلقاً بالولاية الإلهيّة الحقّة . إذَن ، يكون مع جميع الموجودات بولاية الحقّ تعالى ، ويتصرّف في كافّة الأُمور بإذن الله ، لأنّ هذا ما يلازم مقام الولاية المطلقة .

بل إنّ الولاية المطلقة للحقّ سبحانه وتعالى ليست شيئاً غير هذه الولاية . وفي ضوء هذا الأساس ، يقول جلّ من قائل :

لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَنَ فِى أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ . (19)

وهذه هي الدرجة العليا من القوام الإنسانيّ ، وهي صلاحيّته وفقاً لخلقه ، للعروج إلى الرفيق الأعلى ، والظفر بالحياة الأبديّة السرمديّة عند الله ، والتحقّق بأسمائه عزّ وجلّ وصفاته الكلّيّة .

ومن هذا المنطلق يقول الله أيضاً :

وَعَلّمَ ءَادَمَ الْأَسْمَآءَ كُلّهَا . (20)

وهذا هو معنى خليفة الله ؛ ومؤدّى الحديث الشريف المأثور عن الرسول الأكرم صلّى الله عليه وآله وسلّم :

خَلَقَ اللَهُ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ . (21)

وفي مقام هذا الإنسان ومنزلته ومرتبته ودرجته ، يقول الإمام جعفر ابن محمّد الصادق عليهما السلام :

إنّ الصّورةَ الإنسانيّةَ هِيَ أَكْبَرُ حُجّةِ اللَهِ عَلَى خَلْقِهِ ؛ وَهِيَ الْكِتَابُ الّذِي كَتَبَهُ بِيَدِهِ ؛ وَهِيَ الْهَيْكَلُ الّذِي بَنَاهُ بِحِكْمَتِهِ ؛ وَهِي مَجْمُوعُ صُورَةِ الْعَالَمِينَ ؛ وَهِيَ الْمُخْتَصَرُ مِنَ الْعُلُومِ فِي اللّوحِ الْمَحْفُوظِ ؛ وَهِي الشّاهِدُ عَلَى كُلّ غَائِبٍ ؛ وَهِيَ الْحُجّةُ عَلَى كُلّ جَاحِدٍ ، وَهِىَ الطّرِيقُ الْمُسْتَقِيمُ إِلَى كُلّ خَيْرٍ ؛ وَهِيَ الصّرَاطُ الْمَمْدُودُ بَيْنَ الْجَنّةِ وَالنّارِ . (22)

ومن هذا المنطلق أيضاً ، تميّز الإنسان بوقوع الملائكة ساجدين له ؛ وفاق في مقامه ومنزلته جمع الملائكة ، (23) وبلغ الحجاب الأقرب الذي يمثّل أقرب الموجودات وهو الروح . وهو أعظم من الملائكة . ولهذه المناسبة يقولون لحقيقة الإنسان : روح الإنسان ، لأنّه قابل للوصول إلى مقام الروح ، وإلّا فإنّ الروح ليست اسماً وعَلَماً لحقيقة الإنسان . (24)

يقول السيّد حيدر الآمليّ : وصاحب هذا المقام هو مرجع الكلّ ، ومبدؤه ومصدر الكلّ ومنشؤه .

هو المبدأ وإليه المنتهى المعبّر عنه : لَيْسَ وَراءَ عَبّادَانَ قَرْيَةٌ . [25] وإليه تستند كلّ العلوم والأعمال ؛ وإليه تنتهى جميع المراتب والمقامات ، نبيّاً كان (صاحب هذا المقام) أو وليّاً أو وصيّاً أو رسولًا .

وباطن هذه النبوّة هو الولاية المطلقة ؛ والولاية المطلقة هي عبارة عن حصول مجموع هذه الكمالات بحسب الباطن في الأزل ؛ وإبقاءها إلى الأبد ؛ كقول أمير المؤمنين عليه السلام :

كُنتُ وَلِيّاً وَآدَمُ بَيْنَ الْمَاءِ وَالطّينِ . وكقول رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم : أَنا وَعَلِيّ مِنْ نُورٍ وَاحِدٍ . وكقوله فيه : خَلَقَ اللهُ رُوحِي وَرُوحَ عَلِيّ بْنِ أَبي طَالِبٍ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ الْخَلْقَ بِأَلْفي عَامٍ . الحديث .

وكقوله فيه : بُعِثَ عَلِيّ مَعَ كُلِّ نَبِيّ سِرّاً وَمَعِيَ جَهْراً .

ولاقتضاء هذه المرتبة ، قال أمير المؤمنين عليه السلام في خطبة البيان :

أَنَا وَجْهُ اللَهِ ؛ أَنَا جَنْبُ اللهِ ؛ أَنَا يَدُ اللهِ ؛ أَنَا الْقَلَمُ الأَعْلَى ؛ أَنَا اللّوْحُ الْمَحْفُوظُ ؛ أَنَا الْكِتَابُ الْمُبِينُ ؛ أَنَا الْقُرْآنُ النّاطِقُ ؛ أَنا كهيعص ؛ الم ذَلِكَ الْكِتَابُ ؛ أَنَا طَاءُ الطّوَاسِيمِ ؛ أَنَا حَاءُ الْحَوامِيمِ ؛ أَنَا الْمُلَقّبُ بِيَاسِينِ ؛ أَنَا صادُ الصّافّاتِ ؛ أَنا سِينُ الْمُسَبّحَاتِ ؛ [26] أَنا النّونُ وَالْقَلَمِ ؛ أَنَا مَايِدَةُ الْكَرَمِ ؛ أَنا خَلِيلُ جَبْرَئِيلَ ؛ أَنَا صِفْوَةُ مِيكَائِيلَ ؛ أَنا الْمَوصُوفُ بِـ «لا فَتَى» ؛ أَنَا الْمَمْدُوحُ فِي «هَلْ أَتَى» ؛ أَنَا النّبَأُ الْعَظِيمُ ؛ أَنَا الصّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ ؛ أَنَا الأَوّلُ ؛ أَنَا الآخِرُ ؛ أَنَا الظّاهِرُ ؛ أَنَا الْبَاطِنُ ؛ إِلَى آخِرِهِ . [27]

حذار من أن تبدو هذه المطالب مستبعدة ؛ لأنّ بُعْدَها فيما لو قام الإمام بهذه الأفعال بصورة مستقلّة ؛ أمّا إذا كان الإمام مرآة محضة والآية الأكمل للحقّ ، وكانت هذه الأفعال مظهراً للذات الأحديّة تجلّت في مرآة وجوده ، إذا كان كلّ ذلك ، فكيف يمكن أن نستبعد قيام الإمام بتلك الأفعال ؟ وإذا كان العمل في باب التوحيد منحصراً بالحقّ المتعال ؛ فما هو الفرق . عندئذٍ . بين عمل صغير من أعمال الإمام ، كقلع باب خيبر ، وقتل عَمْرو بن عَبْد ود ، ومَرْحَبْ ، وصناديد قريش في خَيْبَر ، والأحزاب ، وبَدْر ؛ وبين عمل كبير ، كطوفان نوح ، وإرسال الريح السموم على عاد ، وأمثالهما ، لأنّ الفعل في كلتا الحالتين هو فعل الحقّ تبارك وتعالى .

يقول ابن سينا في «الإشارات»: فَإِذَا عَبَرَ الرّياضَةَ إِلَى النَيْلِ ، صارَ سِرّهُ مِرْآةً مَجْلُوّةً مُحاذِياً بِهَا شَطْرَ الْحَقّ ؛ وَدَرّتْ عَلَيْهِ اللّذّاتُ الْعُلَى ؛ وَفَرِحَ بِنَفْسِهِ لِمَا بِهَا مِنْ أَثَرِ الْحَقّ ، وَكَانَ لَهُ نَظَرٌ إِلَى الْحَقّ وَنَظَرٌ إِلَى نَفْسِهِ وَكَانَ بَعْدُ مُتَرَدّداً . [28]

ثمّ يقول : ثُمّ إِنّهُ لَيَغِيبُ عَنْ نَفْسِهِ ؛ فَيَلْحَظُ جَنَابَ الْقُدْسِ فَقَط ؛ وَإِن لَحِظَ نَفْسَهُ فَمِنْ حَيْثُ هِيَ لَاحِظَةٌ ؛ لاَ مِنْ حَيْثُ هِيَ بِزِينَتِهَا ؛ وَهُنَاكَ يَحِقّ الْوُصُولُ . [29]

وهذه آخر درجات السلوك إلى الله ، أي : مقام الوصول . ثمّ يقول : اَلْعِرْفَانُ مُبْتَدِئٌ مِنْ تَفْرِيقٍ وَنَفْضٍ وَتَرْكٍ وَرَفْضٍ مُمْعِنٌ فِي جَمعٍ هُوَ جَمْعُ صِفَاتِ الْحَقّ ؛ لِلذّاتِ الْمُرِيدَةِ بِالصّدْقِ مُنْتَهٍ إِلَى الْوَاحِدِ ؛ ثُمّ وُقُوفٌ . [30]

(التفريق هو أن ينفصل العارف عن كلّ شيء يشغله عن الحقّ ؛ والنّفْض تحريكه لنفسه ونفضها من آثار تلك الشواغل ، بحيث لا تلتفت إليها أيّ التفات ، وهذا لتكميل النفس من أجل التجرّد عمّا

سوى الحقّ . والتّرك يعني الانقطاع عن كلّ شيء ونسيانه وصولاً للحقّ ، والرّفض يعني ترك جميع اللذّات وصولاً للحقّ) .

يقول الخواجه نصير الدين الطوسيّ رضوان الله عليه في شرح هذه المواضيع : «إنّ العارف إذا انقطع عن نفسه واتّصل بالحقّ ، رأى كلّ قدرة مستغرقة في قدرته المتعلّقة بجميع المقدورات ، وكلّ علم مستغرقاً في علمه الذي لا يعزب عنه شيء من الموجودات ، وكلّ إرادة مستغرقة في إرادته التي يمتنع أن يتأبّى عليها شيء من الممكنات .

بل كلّ وجود فهو صادر عنه فائض من لدنه .

وفي هذه الحالة ، صار الحقّ حينئذٍ بصره الذي به يبصر ، وسمعه الذي به يسمع ، وقدرته التي بها يفعل ، وعلمه الذي به يعلم ، ووجوده الذي به يوجد .

فصار العارف حينئذٍ متخلّقاً بأخلاق الله تعالى بالحقيقة ؛ وهذا معنى قول الشيخ : اَلْعِرْفَانُ مُمْعِنٌ فِي جَمِيعِ صِفَاتٍ هِيَ صِفَاتُ الْحَقّ لِلذّاتِ المُرِيدَةِ بِالصّدْقِ .

ثمّ إنّه بعد ذلك يعاين كون هذه الصفات وما يجري مجراها متكثّرة بالقياس إلى الكثرة ، متّحدة بالقياس إلى مبدئها الواحد ؛ فإنّ الذاتيّ هو بعينه قدرته الذاتيّة ، وهي بعينها إرادته ؛ وكذلك سائرها .

وإذ لا وجود ذاتيّاً لغيره فلا صفات مغايرة للذات ولا ذات موضوعة للصفات ؛ بل الكلّ شيء واحد كما قال عزّ من قائل :

إِنّمَا اللّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ (31) .

فهو هو لا شيء غيره . وهذا معنى قوله : مُنْتَهٍ إِلَى الْوَاحِدِ ؛ وَهناك لا يبقى واصف ولا موصوف ، ولا سالك ولا مسلوك ، ولا عارف ولا معروف ، وهو مقام الوقوف . (32)

وقال ابن سينا أيضاً في النمط العاشر من «الإشارات» : وَإِذَا بَلَغَكَ أَنّ عَارِفاً حَدّثَ عَنْ غَيْبٍ فَأَصَابَ مُتَقَدّماً بِبُشْرَى أَوْ نَذِيرٍ فَصَدّقْ ! وَلَا يَتَعَسّرَنّ عَلَيْكَ الإيمانُ بِهِ ! (33)

ثمّ قال : اَلتّجْرِبَةُ وَالْقِيَاسُ مُتَطَابِقَانِ عَلَى أَنّ لِلنّفْسِ الإنسانيّةِ أَن تَنَالَ مِنَ الْغَيْبِ نَيْلاً مَا فِي حالَةِ الْمَنَامِ ؛ فَلَا مَانِعَ مِنْ أَنْ يَقَعَ ذَلِكَ النّيْلُ فِي حَالِ الْيَقَظَةِ ؛ إلّا ما كانَ إِلَى زَوَالِهِ سَبِيلٌ ؛ وَلِارْتِفَاعِهِ إِمْكَانٌ . (34)

إلى أن قال : وَلَعَلّكَ قَدْ تَبْلُغُكَ عَنِ الْعَارِفِينَ أَخْبَارٌ تكادُ تَأْتِي بِقَلْبِ الْعادَةِ فَتُبَادِرُ إِلَى التّكْذِيبِ ؛ وَذَلِكَ مِثْلُ مَا يُقَالُ : إِنّ عَارِفاً اسْتَسْقَى لِلنّاسِ فَسُقُوا ؛ أَوِ اسْتَشْفَى لَهُمْ فَشُفُوا ؛ أَوْ دَعَا عَلَيْهِمْ فَخُسِفَ بِهِمْ وَزُلْزِلُوا ؛ أَوْ هَلَكُوا بِوَجْهٍ آخَرَ .

وَدَعَا لَهُمْ ، فَصُرِفَ عَنْهُمُ الْوَبَاءُ ؛ وَالْمَوَتَانُ ؛ وَالسّيْلُ ، والطّوفَانُ ؛ أَوْ خَشَعَ لِبَعْضِهِمْ سَبُعٌ ، أَوْ لَمْ يَنْفِرْ عَنْهُمْ طَائِرٌ ؛ أَوْ مِثْلُ ذَلِكَ مِمّا لَا تُؤْخَذُ فِي طَرِيقِ الْمُمْتَنِعِ الصّرِيحِ فَتَوَقّفْ ، وَلَا تَعْجَلْ ! فَإِنّ لِأَمْثَالِ هَذِهِ أَسْبَاباً فِي أَسْرَارِ الطّبِيعَةِ . (35)

ثمّ قال : إِنّ الْأُمورَ الْغَرِيبَةَ تَنْبَعِثُ فِي عَالَمِ الطّبِيعَةِ مِنْ مَبَادِي ثَلَاثَةَ : أَحَدُهَا الْهَيْئَةُ النّفْسانيّةُ

الْمَذْكُورَةُ . وعندها قال : وَالسّحْرُ مِنْ قَبيلِ الْأَوّلِ ، بَلِ الْمُعْجِزَاتُ وَالْكَرَامَاتُ .

يقول مُحي الدين بن عربي في كتابه «فصوص الحِكَم» في فَصّ الآدميّ وهو يتحدّث عن حقيقة آدم وخلافته :

فَهُوَ مِنَ الْعَالَمِ كَفَصّ الْخَاتَمِ مِنَ الْخَاتَمِ الّذِي هُوَ مَحَلّ النّقْشِ وَالْعَلَامَةِ الّتِي بِهَا يَخْتِمُ الْمَلِكُ عَلَى خَزَآئِنِهِ ؛ (36) وَسَمّاهُ خَلِيفَةً مِنْ أَجْلِ هَذَا : لِأَنّهُ الْحَافِظُ خَلْقَهُ كَمَا يَحْفَظُ بِالْخَتْمِ الْخَزَائِنُ ؛ فَمَا دَامَ خَتْمُ الْمَلِكِ عَلَيْهَا لَا يَجْسُرُ أَحَدٌ عَلَى فَتْحِهَا إِلّا بِإِذْنِهِ ، فَاسْتَخْلَفَهُ فِي حِفْظِ الْعَالَمِ ؛ فَلَا يَزَالُ الْعَالَمُ مَحْفُوظاً مَادَامَ فِيهِ هَذَا الإنسانُ الْكَامِلُ . (37)

وقال القيصريّ في شرح هذه الفقرة : اَلْحَقّ يَحْفَظُ خَلْقَهُ بِالإنسَانِ الْكَامِلِ ؛ عِنْدَ اسْتِتَارِهِ بِمَظَاهِرِ أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ عِزّةً ؛ وَكَانَ هُوَ الْحَافِظَ لَهَا قَبْلَ الاسْتِتَارِ وَالاخْتِفَاءِ وَإِظْهَارِ الْخَلْقِ .

فَحِفْظُ الإنْسَانِ لَهَا بِالْخِلاَفَةِ فَتُسَمّى بِالْخَلِيفَةِ لِذَلِكَ ؛ وَحِفْظُهُ لِلْعَالَمِ عِبَارَةٌ عَنْ إِبْقَاءِ صُوَرِ أَنْوَاعِ الْمَوْجُودَاتِ عَلَى مَا خُلِقَتْ عَلَيْهَا الْمُوجِبِ لإِبْقَآءِ كَمالاَتِهَا وَآثَارِهَا بِاسْتِمْدَادِهِ مِنَ الْحَقّ التّجَلّيَاتِ الذّاتِيّةِ ؛ وَالرّحْمَةَ الرّحْمَانِيّةَ وَالرّحِيمِيّةَ بِالأَسْمَاءِ وَالصّفَاتِ الّتِي هَذِهِ الْمَوْجُودَاتُ صَارَتْ مَظَاهِرَهَا وَمَحَلّ اسْتِوآئِهَا .

إِذِ الْحَقّ إِنّمَا يَتَجَلّى لِمِرْآةِ قَلْبِ هَذَا الْكَامِلِ ، فَيَنْعَكِسُ الأنوارُ مِنْ قَلْبِهِ إِلَى الْعَالَمِ ؛ فَيَكُونُ بَاقِياً بِوُصُولِ ذَلِكَ الْفَيْضِ إِلَيْهَا ؛ فَمَا دَامَ هَذَا الإِنْسَانُ الْكَامِلُ مَوْجُوداً فِي الْعَالَمِ ؛ يَكُونُ مُحْفُوظاً بِوُجُودِهِ وَتَصَرّفِهِ في عَوَالِمِهِ الْعِلْوِيّةِ وَالسّفْلِيّةِ .

فَلَا يَجْسُرُ أَحَدٌ مِنْ حَقَائِقِ الْعَوَالِمِ وَأَرْوَاحِهَا عَلَى فَتْحِ الْخَزَائِنِ الإِلَهِيّةِ وَالتّصَرّفِ فِيهَا إِلّا بِإِذْنِ هَذَا الْكَامِلِ ، لِأَنّهُ صَاحِبُ الاسمِ الأعظَمِ الّذِي بِهِ يُرْبِي الْعَالَمَ كُلّهُ .

فَلَا يَخْرُجُ مِنَ الْبَاطِنِ إِلَى الظّاهِرِ مَعْنىً مِنْ مَعَانِي إِلّا بِحُكْمِهِ ؛ وَلَا يَدْخُلُ مِنَ الظّاهِرِ فِي الْبَاطِنِ شَيْءٌ إِلّا بِأَمْرِهِ ، وَإِن كَانَ يَجْهَلُهُ عِنْدَ غَلَبَةِ الْبَشَرِيّةِ عَلَيْهِ . (38)

إلى أن يقول : وَقَدْ صَرّحَ شَيْخُنَا رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في كِتَابِ «الْمِفْتَاحِ» أَنّ مِنْ عَلَامَاتِ الْكَامِلِ أَنْ يَقْدِرَ عَلَى الإِحْيَاءِ وَالإِمَاتَةَ وَأَمْثَالِهِمَا . (39)

ويقول الشيخ عبد الكريم الجيليّ في كتاب «الإنسان الكامل» : «اعلم أنّ (الإنسان) هو نسخة الحقّ تعالى كما أخبر صلّى الله عليه وآله وسلّم حيث قال : خَلَقَ اللهُ آدَمَ عَلَى صُورَةِ الرّحْمَنِ . وفي حديث آخر : خَلَقَ اللّهُ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ .

وذلك أنّ الله تعالى حَيّ عَلِيمٌ قادِرٌ مُرِيدٌ سَمِيعٌ بَصِيرٌ مُتَكَلّمٌ ، وكذلك الإنسان حيّ عليم إلخ ، [إلى آخر الصفات] . ثمّ يقابل الهويّة بالهويّة ، والأنيّة بالأنيّة ، والذات بالذات ، والكلّ بالكلّ ، والشمول بالشمول ، والخصوص بالخصوص .

وله مقابلة أُخرى يقابل الحقّ بحقائقه الذاتيّة .

واعلم أنّ الإنسان الكامل هو الذي يستحقّ الأسماء الذاتيّة والصفات الإلهيّة استحقاق الأصالة والملك بحكم المقتضى الذاتيّ ، فإنّه المعبّر عن حقيقته بتلك العبارات والمشار إلى لطيفته بتلك الإشارات ليس لها مستند في الوجود إلّا الإنسان الكامل . فمثاله للحقّ مثال المرآة التي لا يرى الشخص صورته إلّا فيها ، وإلّا فلا يمكنه أن يرى صورة نفسه إلّا بمرآة الاسم : الله ، فهو مرآته والإنسان الكامل

أيضاً مرآة الحقّ ؛ فإنّ الحقّ تعالى أوجب على نفسه أن لا ترى أسماؤه وصفاته إلّا في الإنسان الكامل ، وهذا معنى قوله تعالى :

إِنّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السّمَوَ تِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَنُ إِنّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا . (40)

يعني قد ظلم نفسه بأن أنزلها من تلك الدرجة جهولاً بمقداره ، لأنّه محلّ الأمانة الإلهيّة وهو لا يدري .

إلى أن يقول : وَلِلإِنْسَانِ الْكَامِلِ تَمَكّنٌ مِنْ مَنْعِ الْخَوَاطِرِ عَنْ نَفْسِهِ جَلِيلِهَا وَدَقِيقِهَا ؛ ثُمّ إِنّ تَصَرّفَهُ فِي الْأَشْيَاءِ لَا عَنِ اتّصَافٍ وَلَا عَنْ آلَةٍ وَلَا عَنِ اسْمٍ وَلَا عَنْ رَسْمٍ ؛ بَلْ كَمَا يَتَصَرّفُ أَحَدُنَا فِي كَلَامِهِ وَأَكْلِهِ وَشُرْبِهِ الخ . (41)

وقال الملّا هادي السبزواريّ رحمة الله ضمن بحثه في علم الباري تعالى بالأشياء بالعقل البسيط والإضافة الإشراقيّة : «اعلم أنّ ها هنا مقامين : مقام الكثرة في الوحدة ، يعني أنّ المرتبة الأعلى من الوجود بوحدتها وبساطتها جامعة لكلّ الوجودات ، ويترتّب عليها بفردانيّتها من الكمال ما يترتّب على الجميع» . ثمّ قال :

مِثالُهُ الإنْسَانُ الْكَامِلُ بِالْفِعْلِ حَيْثُ إِنّهُ بِوَحْدَتِهِ جامِعٌ لِكُلّ ما فِي الْوُجُودِ مِنَ الصّوَرِ وَالْمَعَانِي وَالأَشْبَاحِ وَالْأَرْواحِ ؛ لَيْسَ مِنَ اللَهِ بِمُسْتَنْكَرٍ أَنْ يَجْمَعَ الْعَالَمَ فِي وَاحِدٍ ؛ فَهُوَ بِحَيْثُ كَانَ الْكُلّ مِنَ الدّرّةِ إِلَى الذّرّةِ مَرَائِيّ ذاتِهِ كَمَا هُوَ مِرْآةُ الْحَقّ وَمَقَامُ الْوَحْدَةِ فِي الْكَثْرَةِ . (42)

وقال السبزواريّ أيضاً :

فَلَك دوران زند بر محور دل
وجود هر دو عالم مَظْهر دل
هر آن نقشى كه بر لوح از قلم رفت
نوشته دست حقّ بر دفتر دل (43)

وقال أيضاً :

جمله عالم چون تن ، و انسان دل است
هر چه مجوئى ز انسان حاصل است
هر دو عالم جسم ، و جانش آدم است
زانكه آدم اصل جمله عالم است (44)
هست انسان مركز دور جهان
نيست بي انسان مَدار آسمان
هر دو عالم گشتهاست أجزاى او
برتر از كَوْن و مكان مأواى او
لا مكان اندر مكان كرده مكان
بى نشان گشته مقيّد در نشان

صد هزاران بحر در قطره نهان
ذرّهای گشته جهان اندر جهان
این أبَد عین أزَل آمد یقین
باطن اینجا عین ظاهر شد ببین (45)

وقال المرحوم السبزواريّ المتخلّص بالأسرار أيضا :

اختران پرتو مِشكاة دل انور ما
دل ما مَظهر كُلّ ، كل همگی مظهر ما (46)
نه همين اهل زمين را همه باب اللّهيم
نُه فلك در دَوَانند به گرد سر ما
بَرِ ما پير خرد طفل دبيرستان است
فلسفی مُقتبِسی از دل دانشور ما
گر چه ما خاك نشينان مرقّع پوشيم
صد چو جَم خفته بدريوزهگری بر در ما
چشمه خضر بود تشنه سراب ما را
آتش طور شراری بود از مجمر ما
ای كه انديشه سرداری و سر مىخواهی
به كدوئی است برابر سر و افسر بر ما
گو به آن خواجه هستی طلب و زهد فروش
نبود طالب كالای تو در كشور ما
بازی بازوی نصريم نه چون نَسر به چرخ
دو جهان بيضه و فَرْخ است به زير پر ما (47)
ماه گر نور و ضيا كسب نمود از خورشيد
خور بود مكتسب از شعشعه اختر ما
خسرو ملك طريقت به حقيقت مائيم
كُلَه از فقر به تارك زِ فنا افسر ما
عالم و آدم اگر چه همگی اَسرارند
بود اَسرار كمينی ز سگان در ما (48)

وفي حاشيته على «الأسفار الأربعة» للحكيم المتألّه صدر المتألّهين الشيرازيّ أعلى الله درجته ضمن بحثه في العلّة الغائيّة حيث قال : ثُمّ إلى عِبَادَةِ الإنسانِ وَتَشَبّهِهِ بِالْمَبْدَأ الأَعْلَى فِي الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ وَإِدْرَاكِهِ

لِلْمَعْلُومَاتِ وَتَجَرّدِهِ عَنِ الْجِسْمَانِيّاتِ ؛ فَعِبَادَتُهُ أَجَلّ الْعِبَادَاتِ الْأَرْضِيّةِ ، وَمَعْرِفَتُهُ أَعْظَمُ الْمَعَارِفِ الْحَيْوَانِيّةِ ؛ وَلَهُ فَضِيلَةُ النّطْقِ وَشَرَفُ الْقُدْرَةِ وَكَمَالُ الْخِلْقَةِ . يقول السبزواريّ : «قيّد [الملّا صدرا] في عبارته عبارة الإنسان بالأرضيّة والحيوانيّة ، لأنّه أين عبادته من عبادات الأفلاك والفلكيّات اللاتي لا يغشاها نوم العيون ولا فترة الأبدان .

عبدت على الدوام الله تعالى وما مسّها أعياء ولغوب ، وأين معرفته من معرفة الملائكة المعصومين ، سيّما المقرّبين كما قيل :

دوست كجا و تو كجا اى دَغَل

نور أزَل را چه به بَلْ هُمْ أضَلّ (49)

لكن في هذا النوع الأخير صنف أفضل المَلَك فضلاً عن الفلك .

نه فلك راست مسلّم نه ملك را حاصل

آنچه در سِرّ سويداى بنى آدم ازوست (50)

وهم خلاصة عباد الله المعبود ونخبة عالم الوجود سيّما المحمّديّون منهم الذين قالوا : رُوحُ الْقُدُسِ فِي جِنَانِ الصّاقُورَةِ ، ذَاقَ مِنْ حَدَائِقِنَا الْبَاكُورَةِ . (51)

وقيل في رئيسهم وسيّدهم :

احمد ار بگشايد آن پرّ جليل

تا أبد مدهوش ماند جبرئيل (52)

بل مطلق هذا الصنف من الإنسان هم على هذا النحو ، قال الشيخ فريد الدين العطّار النيسابوريّ قدّس سرّه :

روز و شب اين هفت پرگار اى پسر

از براى توست بر كار اى پسر

طاعت روحانيان از بهر توست

خُلْد و دوزخ عكس لطف و قهر توست

قدسيان يكسر سجودت كردهاند

جزء و كلّ ، غرق وجودت كردهاند

از حقارت سوى خو منگر بسى

ز انكه ممكن نيست پيش از تو كسى

ظاهرت جزو است و باطن كلّ كلّ

خويش را قاصر مبين در عين ذُلّ

چون در آيد وقت رفعتهاى كلّ

از وجود توست خلقتهاى كلّ (53)

والسرّ في ذلك أنّ الإنسان الكامل بالفعل واقع تحت الاسم الأعظم وهو اسم الجلالة والملك تحت

الأسماء التنزيهيّة كالسبّوح والقدّوس أمّا الفلك تحت الدائم والرافع والربّ ونحوه ، فالإنسان معلّم بجميع الأسماء التنزيهيّة والتشبيهيّة .

ألا ترى أنّ روح الفلك دائماً روح مضاف ، وروح هذا الإنسان روح مرسل يطلق عن وثاق الجسم الطبيعيّ ، بل المثاني بل عن العالمين الصوريّين فيخلع النعلين ويطرح الكونين ؟ والملك المقرّب وإن كان روحاً مطلقاً إلّا أنّه ليس معلماً بجميع الأسماء التنزيهيّة والتشبيهيّة . هؤلاء الصنف هم الخواتم في السلسلة الصعوديّة ، وهم العقول الصاعدة الغنيّة عن استعمال البدن وآلاته .

وكأنّهم وهم في جلابيب أبدانهم قد نضوها ، فهم بإزاء العقول التي هي فواتح السلسلة النزوليّة وإن بقي حجاب ما ، فسيرفع رأساً كما قال عليّ عليه السلام عند الخلع : فُزْتُ وَرَبِّ الْكَعْبَةِ . فعبادتهم كيفاً أجلّ من عبادة الفلك ، فربّ قليل من خالص العمل يرجح على الكثير كثرة وافرة كذا المعرفة بالنسبة إلى الملك ، فإنّ الإنسان الكامل يعرف الله تعالى بجميع أسمائه ، وحينئذٍ فلعلّ مراده قدّس سرّه الإنسان البشريّ بما هو بشر» . (54)

وأمّا صدر المتألّهين قدّس الله سرّه فإنّه لم يذكر مقامات الإنسان الكامل ودرجاته في موضع واحد أو موضعين من كتبه ، بل ذكرها في أغلب المواضع ، ولا سيّما في «الأسفار» فإنّه ذكرها في مواضع كثيرة منها ، بل يمكن أن نعتبر «الأسفار الأربعة» مقامات الإنسان الكامل ودرجاته ونضع لكتاب «الأسفار» عنوان الإنسان الكامل ، ويمكن القول حقّاً إنّه أحسن ما صنّف في هذا الموضوع لغاية الآن من حيث شموليّته ؛ ونذكر فيما يلي مقطعاً موجزاً منه كمثال :

وَهَذَا أيضاً مِنْ لَطَائِفِ صُنْعِ اللَهِ وَحِكْمَتِهِ فِي خَلْقِ الإنْسَانِ الْكَامِلِ ؛ وَصَيْرُورَتِهِ إنْسَاناً كَبيراً بَعْدَ مَا كَانَ عَالَماً صَغيراً ، فَكَأنّ الْوُجُودَ كُلّهُ كَشَخْصٍ وَاحِدٍ دَارَ عَلَى نَفْسِهِ ؛ وَكَأنّهُ كِتَابٌ كَبيرٌ ، فَاتِحَتُهُ عَيْنُ خَاتِمَتِهِ ؛ وَالْعَالَمُ كُلّهُ تَصْنيفُ اللَهِ ، وَابْتَدَأ بِالْعَقْلِ وَاخْتَتَمَ بِالْعَاقِلِ ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى :

أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَهُ الْخَلْقَ ثُمّ يُعِيدُهُ إنّ ذَ لِكَ عَلَى اللَهِ يَسيرٌ * قُلْ سِيرُوا فِى الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمّ اللَهُ يُنْشِئُ النّشْأَةَ الْأَخِرَةَ إنّ اللَهَ عَلَى كُلّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . (55)

إنّ الشاعر العربيّ ابن الفارض يشبه الشاعر الفارسيّ حافظ الشيرازيّ في شعره العرفانيّ ، وله في نظم السلوك قصيدة تعرف بالتائيّة الكبرى ، وصف فيها مقام الإنسان الكامل بشكل باهر . تقع هذه القصيدة في سبعمائة وواحد وستّين بيتاً ، ذكر فيها مراحل السلوك كلّها بنظم بديع وأُسلوب لطيف ، ونكتفي هنا بذكر مقدار موجز من أواخرها حيث يتحدّث الشاعر عن تحقّق الأسماء والصفات الإلهيّة في الإنسان الكامل .

وَإنّي وَإنْ كُنْتُ ابْنَ آدَمَ صُورَةً
فَلِي فِيهِ مَعْنىً شَاهِدٌ بِأُبُوّتي (56)
وَنَفْسِى عَلَى حَجْرِ التّجَلّي بِرُشْدِهَا
تَجَلّتْ وَفى حِجْرِ التّجَلّى تَرَبّتِ

وَفِي الْمَهْدِ حِزْبِي الأَنْبياءُ وَفي عَنَا

صِبري لَوْحِيَ الْمَحْفُوظُ وَالْفَتْحُ سُورَتي

وَقَبْلَ فِصَالِي دُونَ تَكْلِيفِ ظَاهِرِي

خَتَمْتُ بِشَرْعِيَ الْمُوضِحي كُلّ شِرْعَةِ

فَهُمْ والأُلَى قَالُوا بِقَوْلِهِمْ عَلَى

صِرَاطِي ، لَمْ يَعْدُوا مَوَاطِئَ مِشْيَتي

فَيُمْنُ الدّعَاةِ السّابِقِينَ إلَيّ فِي

يَميني وَيُسْرُ اللاّحِقينَ بِيَسْرَتي

وَلَا تَحْسَبَنّ الْأمْرَ عَنّيَ خَارِجاً

فَمَا سَادَ إلّا دَاخِلٌ فِي عُبُودَتي

وَلَوْلَايَ لَمْ يُوجَدْ وُجُودٌ وَلَمْ يَكُنْ

شُهُودٌ وَلَمْ تُعْهَدْ عُهُودٌ بِذِمّةِ

فَلَا حَيّ إلّا مِنْ حَيَاتِي حَيَاتُهُ

وَطَوْعُ مَرَادِي كُلّ نَفْسٍ مُرِيدَةِ

وَلَا قَائِلٌ إلّا بِلَفْظِي مُحَدّثٌ

وَلَا نَاظِرٌ إلّا بِنَاظِرِ مُقْلَتِي

إلى أن يقول :

تَسبّبْتُ فِي التّوحِيدِ حَتّى وَجَدْتُهُ

وَوَاسِطَةُ الأَسْبَابِ إحْدَى أَدِلّتِي

وَوَحّدْتُ فِي الْأَسْبَابِ حَتّى فَقَدْتُهَا

وَرَابِطَةُ التّوْحِيدِ أَجْدَى وَسِيلَةِ

وَجَرّدْتُ نَفْسِي عَنْهُمَا فَتَجَرّدَتْ

وَلَمْ تكُ يوماً قَطّ غَيْرَ وَحِيدَةِ

وَغُصْتُ بِحَارَ الْجَمْعِ بَلْ خُضْتُهَا عَلَى انْ

فِرَادِي فَاسْتَخْرَجْتُ كُلّ يَتِيمَةِ

لِأسْمَعَ أَفعَالِي بِسَمْعٍ بَصِيرَةِ

وَأشْهَدَ أَقْوَالِي بِعَيْنٍ صَحِيحَةِ

فَإنْ نَاحَ فِي الْأيْكِ الْهَزَارُ وَغَرّدَتْ

جَوَاباً لَهُ الْأطيَارُ فِي كُلّ دَوْحَةِ

وَأَطْرَبَ بِالْمِزْمَارِ مُصْلِحُهُ عَلَى

مُنَاسَبَةِ الْأوتَارِ مِنْ يَدِ قِينَةِ

وَغَنّتْ مِنَ الْأشْعَارِ مَا رَقّ فَارْتَقَتْ

لِسِدْرَتِهَا الْأسْرَارُ فِي كُلّ شَدْوَةِ

تَنَزّهْتُ فِي آثَارِ صُنْعِي مُنَزّهاً

عَنِ الشّرْكِ بِالْأغْيَارِ جَمْعِي وَأُلْفَتِي

فَبِي مَجْلِسُ الْأذْكَارِ سَمْعُ مُطَالِعٍ

وَلِي حَانَةُ الْخَمّارِ عَيْنُ طَلِيعَةِ

وَمَا عَقَدَ الزّنّارَ حُكْماً سِوَى يَدِي

وَإِنْ حُلّ بِالْإقْرَارِ بِي فَهْيَ حَلّتِ

وَإِنْ نَارَ بِالتّنْزِيلِ مِحْرابُ مَسْجِدٍ

فَمَا بَارَ بِالْإنْجِيلِ هَيْكَلُ بِيعَةِ

وَأسفَارُ تَوْرَاةِ الْكَلِيمِ لِقَوْمِهِ

يُنَاجِي بِهَا الْأَخْبَارُ فِي كُلّ لَيْلَةِ

وَإِنْ خَرّ لِلْأَحْجَارِ فِي الْبِدّ عَاكِفٌ

فَلَا وَجْهَ لِلْإنْكَارِ بِالْعَصَبيّةِ

فَقَدْ عَبَدَ الدّينارَ مَعْنىً مُنَزّهٌ

عَنِ الْعَارِ بالْإشْرَاكِ بِالْوَثَنِيّةِ

وَقَدْ بَلَغَ الْإنْذَارُ عَنّيَ مَنْ بَغَى

وَقَامَتْ بِيَ الْأعْذَارُ فِي كُلّ فِرْقَةِ

وَمَا زَاغَتِ الأَبْصَارُ مِن كُلّ مِلّةِ

وَمَا رَاغَتِ الأَفْكَارُ مَن كُلّ نِحْلَةِ

وَمَا اخْتَارَ مَنْ لِلشّمْسِ عَنْ غِرّةٍ صَبَا

وَإِشْرَاقُهَا مِنْ نُورِ أسْفَارِ غُرّتي

وَإِنْ عَبَدَ النّارَ الْمَجُوسُ وَمَا انْطَفَتْ

كَمَا جَاءَ فِي الْأخْبَارِ فِي أَلْفِ حِجّةِ

فَمَا قَصَدُوا غَيْرِي وَإنْ كَانَ قَصْدُهُمْ

سِوَايَ وَإنْ لَمْ يُظْهِرُوا عَقْدَ نِيّةِ

رَأَوْا ضَوْءَ نُورِي مَرّةً فَتَوَهّمُو

هُ نَاراً فَضَلّوا فِي الْهُدَى بِالْأشِعّةِ

وَلَوْلَا حِجَابُ الْكَوْنِ قُلْتُ وَإنّمَا

قِيَامي بِأحْكَامِ الْمَظَاهِرِ مُسْكِتي

فَلَا عَبَثٌ وَالْخَلْقُ لَمْ يُخْلَقُوا سُدًى

وَإِنْ لَمْ يَكُنْ أَفْعَالُهُمْ بِالسّدِيدَةِ

عَلَى سِمَةِ الْأَسْمَاءِ تَجْرِي أُمُورُهُمْ

وَحِكْمَةُ وَصْفِ الذّاتِ لِلْحُكْمِ أَجْرَتِ

يُصَرّفُهُمْ فِي الْقَبْضَتَيْنِ وَلَا وَلَا

فَقَبْضَةُ تَنْعِيمٍ وَقَبْضَةُ شِقْوَةِ

أَلَا هَكَذَا فَلْتَعْرِفِ النّفْسَ أَوْ فَلَا

وَيُتْلَ بِهَا الْقُرْآنُ كُلّ صَبِيحَةِ

وَلِي مِنْ مُفِيضِ الْجَمْعِ عِنْدَ سَلَامِهِ

عَلَيّ بِأَوْ أَدنَى ، إِشَارَةُ نِسْبَةِ (57)

وَمِنْ نُورِهِ مِشْكَاةُ ذَاتِيَ أَشْرَقَتْ

عَلَيّ فَنَارَتْ بِي عِشَائِي كَضَحْوَتي

وَآنَسْتُ أَنْوَارِي فَكُنْتُ لَهَا هُدًى

وَنَاهِيكَ مِنْ نَفْسٍ عَلَيْهَا مُضِيئَةِ

وَبَدْرِيَ لَمْ يَأْفُلْ وَشَمْسِيَ لَمْ تَغِبْ

وَبِي تَهْتَدِي كُلّ الدّرارِي الْمُنِيرَةِ

إنّ الأُمور التي نقلناها في هذا الدرس عن الفلاسفة الكبار والعرفاء العظام من المسلمين حقائق تتكشف للسالك وهو يعيش العرفان وشهود الحقّ جلّ وعزّ في عالم الفناء المطلق الذي يتمثّل في الفناء في الذات ، والفناء في جميع أسمائه وصفاته ؛ أي في مقام الولاية الكلّيّة إذ لا حجاب ولا غشاوة ، وحتّى حجاب الإنّيّة للسالك قد تمزّق وزال بما للكلمة من معنى ؛ وفي هذا المقام تتحدّث ذات الحقّ المقدّسة نفسها ، وترى ، وتسمع ، وتأخذ وتبطش .

وحذارِ من أن لا يصدّق الإنسان هذه الأُمور ، فيحملها على المجازفة والمبالغة ، لأنّ هذه الحقائق كلّها هي في مقام العرفان والتوحيد ؛ أي أنّها في الحقيقة تصدر عن الشخص المتحقّق بالتوحيد ، أي : عن الشخص الفاني ، الباقي ببقاء الحقّ ؛ أي : من الحقّ جلّ وعزّ نفسه ؛ لأنّ مصدر الفعل والأصالة في العالم ليس غيره ؛ غاية الأمر ، أنّ الناس قبل مقام اللقاء والعرفان والفناء يخالون أنفسهم مستقلّين في أُمورهم ، وذلك من وحي جهلهم . أمّا الآن فقد فهموا في عالم التوحيد أنّهم كانوا على خطأ في فعلهم وقولهم ؛ فالوجود المؤثّر والمستقلّ الوحيد ليس إلّا الذات الأحديّة فحسب تَبَارَكَ اسْمُ رَبّكَ ذِى الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ . وغاية سيرنا إلى الله مقام التوحيد ؛ أمّا إنكار هذه المعارف فإنّه يحول دون سيرنا إلى الله ، ويوصد طريق العرفان الإلهيّ بوجوهنا ، ويبخس حقّنا بنقصان حظّنا من المواهب الإلهيّة المعطاءة واللا متناهيّة ، ويحدّ من الاستعداد غير المتناهي لبلوغ مقام عزّه الشامخ ، ويقيّده بأغلال الدنيا وحطامها التافه والأُمور الاعتباريّة الخادعة الملهية ، إلى أن يحين الأجل بغتة فيتلى علينا

قوله تعالى:

أَلْهَكُمُ التَّكَاثُرُ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ .

وكان رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم هوالرائد على طريق الولاية المطلقة ، والسبّاق الفريد في هذا المضمار ، ومن مشكاة نوره استمدّ الأنبياء السابقون المكرّمون ، بما فيهم أُولو العزم .

وقد فتح طريق التوحيد المطلق والعرفان المحض والشهود الأسمائيّ والصفاتيّ والذاتيّ لأُمّته بشكل مطلق ومرسل ؛ وقد حظيت أُمّته بمواهب لم تحظ بها أُمم الأنبياء السابقين .

وانتقل هذا الفيض من بعده لمولى الموحّدين وأمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه الصلاة والسلام وبنيه الكرام الأحد عشر واحداً بعد الآخر ، وأصبح هذا المقام بشكل أكمل وأتمّ لبقيّة الله الحجّة بن الحسن العسكري أرواحنا له الفداء . ووجود سائر الأولياء والعرفاء الإلهيّون الحقيقيّون من بركات وجود أُولئك العظام ، وفي عصر الغيبة ينالون نصيبهم من بركات هذه المرآة الإلهيّة التامّة ؛ فيبلغون الكمال ؛ ويقطفون ثمرة الوصول والفناء .

أجل ، فإنّ نبيّنا المقدّس صلّى الله عليه وآله وسلّم هو فاتح هذا الطريق لأُمّته ، وكان ولا يزال لأئمّة الحقّ والهدى عليهم السلام جميعاً هذا المقام ؛ فالولاية التكوينيّة أمر بسيط من منظار أهل البصائر والفضائل والعرفاء الحقيقيّين ؛ ويظفر بها كلّ من وطأت قدمه هذا المضمار بفضل الحقّ ورحمته .

وحينئذٍ أفلا نأسف أن ننكر على رسول الله والأئمّة هذا المقام ؟ ونكتفي بالألفاظ الجوفاء وحدها لبلوغ المقامات ، ونخال أنّ كلّ فضيلة وكرامة هي أمر اعتباريّ وهميّ فحسب ؟

إنّ الولاية التكوينيّة هي من الأُمور الضروريّة واللوازم الحتميّة للسير في طريق المعرفة ، والعرفان ، وشهود الحقّ . والمنكرون لها أيديهم خالية من المعارف الإلهيّة ؛ ولم تترطّب شفاههم بماء حياة الولاية ، ولم ينهلوا من الماء المعين للشهود والوجدان ، أكبادهم حرّى ، مثلهم كالكلاب العاوية في البيداء القاحلة ، حائرة في تيه الجهل وأرضه الحصباء .

مَه فشاند نور و سگ و عوعو كند

هر كسى بر باطن خود متتد (58)

ذكر العلاّمة الفقيد أُستاذنا المعظّم آية الله الطباطبائيّ رضوان الله عليه في رسالة الولاية موجزاً عن مقامات ودرجات ولاية الأئمّة الاثنى عشر للشيعة ، الخلفاء المنصوبين من قبل رسول الله صلّى الله عليه وآله ننقله فيما يلي نصّاً :

ومن الأخبار في هذا الباب ، ما في «البحار» ، عن «المحاسن» عن رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم أنّه قال:

إنّا مَعَاشِرَ الْأَنْبِيَاءِ نُكَلّمُ النّاسَ عَلَى قَدْرِ عُقُولِهِمْ .

وهذا التعبير إنّما يحسن إذا كان هناك من الأُمور ما لا يبلغه فهم السامعين من الناس ، وهو ظاهر . لأنّه قال : نُكَلّمُ ، ولم يقل : نَقُولُ أَو نُبَيّنُ أَو نَذْكُرُ ، ونحو ذلك . وفي هذا دلالة على أنّ المعاف التي بيّنها الأنبياء عليهم السلام إنّما وقع بيانها على قدر عقول أُممهم وما تستوعبه وتتّسع له أفكارهم ، لأنّهم شاءوا الميل من الصعب إلى السهل ، لا أنّهم اقتصروا بهذا المقدار من المعارف الكثيرة إرفاقاً بالعقول ، اقتصاراً من المجموع بالبعض .

وبعبارة أُخرى : فإنّ تعبير رسول الله ناظر إلى الكيف دون الكمّ ، فيدلّ على أنّ حقيقة هذه المعارف درايةٌ وراءها ما تسير العقول لإدراكه في المعارف بالبرهان والجلال والخطابة ، وقد بيّنها الأنبياء عليهم السلام بجميع طرق العقول من البرهان والجدل والوعظ كلّ البيان ، وقطعوا في شرحها كلّ طريق ممكن .

ومن هنا يعلم أنّ للمعارف الإلهيّة مرتبة فوق مرتبة البيان اللفظيّ ؛ لو نزلت إلى مرتبة البيان لدفعتها العقول العاديّة ، أمّا لكونها خلاف الضرورة عندهم ، أو لكونها منافية للبيان الذي بيّنت لهم به وقبلته عقولهم .

ومن هنا يظهر أنّ نحو إدراك هذه المعارف بحقائقها غير نحو إدراك العقول . وهو الإدراك الفكريّ ، فإنّهم ذلك !

ومنها الخبر المستفيض المشهور : (59)

إنّ حَدِيثَنَا صَعْبٌ مُسْتَصْعَبٌ لَا يَحْتَمِلُهُ إلّا مَلَكٌ مُقَرّبٌ أَوْ نَبِيّ مُرْسَلٌ أَوْ عَبْدٌ مُؤْمِنٌ امْتَحَنَ اللهُ قَلْبَهُ لِلإيمَانِ.

ومنها ، وهو أدلّ على المقصود من سابقه ، ما في «البصائر» مسنداً عن أبي الصامت ، قال : سمعتُ أبا عبد الله عليه السلام يقول : إنّ مِنْ حَدِيثِنَا مَا لَا يَحْتَمِلُهُ مَلَكٌ مُقَرّبٌ وَلَا نَبِيّ مُرْسَلٌ وَلَا عَبْدٌ مُؤْمِنٌ . قلتُ : فمن يحتمله ؟ قال : نَحْنُ نَحْتَمِلُهُ .

والأخبار في هذا المساق أيضاً مستفيضة ، وفي بعضها : قلتُ : فمن يحتمله ، جعلت فداك ؟! قال : مَنْ شِئنَا .

وفي «البصائر» أيضاً عن المفضّل ، قال : قال أبو جعفر عليه السلام :

إنّ حَدِيثَنَا صَعْبٌ ، مُسْتَصْعَبٌ ، ذَكْوَانٌ ، أَجْرَدُ ، وَلَا يَحْتَمِلُهُ مَلَكٌ مُقَرّبٌ ، وَلَا نَبِيّ مُرْسَلٌ ، وَلَا عَبْدٌ امْتَحَنَ اللَهُ قَلْبَهُ لِلإيمانِ .

أمّا الصّعْبُ فَهُوَ الّذِي لَمْ يُرْكَبْ بَعْدُ ؛ وَأَمّا الْمُسْتَصْعَبُ فَهُوَ الّذِي يُهْرَبُ مِنْهُ إذا رُئِيَ ، وَأَمّا الذّكْوَانُ فَهُوَ ذَكَاءُ الْمُؤْمِنِينَ ؛ وَأمّا الأَجْرَدُ فَهُوَ الّذِي لَا يَتَعَلّقُ بِهِ شَيْءٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِن خَلْفِهِ وَهُوَ قَوْلُ اللَهِ : «اللَهُ نَزّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ» فَأَحْسَنُ الْحَدِيثِ حَدِيثُنَا ، وَلَا يَحْتَمِلُ أَحَدٌ مِنَ الْخَلَائِقِ أَمْرَهُ بِكَمَالِهِ حَتّى يَحُدّهُ لِأَنّهُ مَنْ حَدّ شَيْئاً فَهُوَ أَكْبَرُ مِنْهُ ؛ وَالْحَمدُ لِلهِ عَلَى التّوْفِيقِ ؛ وَالإنْكَارُ هُوَ الْكُفْرُ . (60)

قوله : لَا يَحْتَمِلُ ، إلى قوله : حَتّى يَحُدّهُ مع ما في صدر الحديث من نفي الاحتمال ، يدلّ على أنّ حديثهم عليهم السلام أمر ذو مراتب ، يمكن أن يحتمل بعض مراتبه بواسطة التحديد ، ويشهد له تعبيره عن الحديث في رواية أبي الصامت بقوله عليه السلام : مِنْ حَدِيثِنَا . فيكون حينئذٍ مورد هذه الرواية مع الرواية الأُولى : لَا يَحْتَمِلُهُ إلّا مَلَكٌ مُقَرّبٌ مورداً واحداً لكونه مشكّكاً ذا مراتب ؛ ويكون أيضاً كالتعميم النبويّ السابق إنّا مَعَاشِرَ الأَنْبِيَاءِ نُكَلّمُ النّاسَ عَلَى قَدْرِ عُقُولِهِمْ .

والعلّة في عدم تحديد الخلائق حديثهم لأنّ ظروفهم التي بها يحتملون ما يحتملون ، وهى ذواتهم وحدود وجودهم ، محدود ، فيصير ما يحتملونه محدوداً ، وهو السبب في عدم إمكان أحد احتمال حديثهم بكماله ، لأنّه أمر غير محدود وخارج عن حدود الإمكان ، وهو مقامهم من الله سبحانه حيث لا

يحدّه حدّ ، وهو الوَلاية المُطْلَقَةَ . وسيجيء إن شاء الله العزيز في بعض الفصول الأخيرة كلام فيه أبسط من هذا .

ومنها أخبار أُخر تؤيّد ما مرّ ، كما عن «بصائر الدرجات» مسنداً ، عن مُرازِم ، قال أبو عبد الله عليه السلام : إنّ أَمْرَنَا هُوَ الْحَقّ ؛ وحَقّ الْحَقّ ؛ وَهُوَ الظّاهِرُ ؛ وَبَاطِنُ الظّاهِرُ ؛ وَبَاطِنُ الْبَاطِنِ ؛ وَهُوَ السّرّ ؛ وَسِرّ السّرّ ؛ وَسِرّ الْمُسْتَسِرّ ؛ وَسِرّ مُقَنّعٌ بِالسّرّ .

وما في بعض الأخبار : إنّ لَلْقُرْآنِ ظَهْرَاً وَبَطْنَاً ، وَلِبَطْنِهِ بَطْنَاً ، إلَى سَبْعَةِ أَبْطُنٍ . وما في خبر آخر : إنّ ظَاهِرَهُ حُكْمٌ ، وَبَاطِنَهُ عِلْمٌ .

وما في بعض أخبار الجبر والتفويض ، كما عن «توحيد» الصدوق مسنداً عن مُرازم ، عن الصادق عليه السلام في حديث ، قال : فَقُلتُ لَهَ : فأيّ شَيءٍ هُوَ ، أَصْلَحَكَ اللَهُ ؟ ! قَالَ : فَقَلّبَ يَدَهُ مَرّتَيْنِ أَو ثَلاثاً ، ثُمّ قَالَ عَلَيهِ السّلامُ : لَوْ أَجَبْتُكَ فِيه لَكَفَرْتَ !

وفي الأبيات المنسوبة إلى السجّاد عليه السلام قوله :

وَرُبّ جَوْهَرِ عِلْمٍ لَوْ أَبُوحُ بِهِ
لَقِيلَ لِي أَنْتَ مِمّنْ يَعْبُدُ الْوَثَنَا

ومن الروايات ، أخبار الظهور التي تفضي بأنّ القائم المهديّ عليه السلام بعد ظهوره يبثّ أسرار الشريعة ، فيصدّقه القرآن .

وما في «بصائر الدرجات» مسنداً عن مسعدة بن صدقة ، عن جعفر (الصادق) عليه السلام عن أبيه (الباقر) عليه السلام ، قال : ذَكَرْتُ التّقِيّةَ يَوْمَاً عِنْدَ عَلِيّ بْنِ الْحُسَيْنِ عَلَيْهِ السّلامُ . فَقَالَ لِي : لَوْ عَلِمَ أَبُوذَرّ ما فِي قَلْبِ سَلْمَانَ لَقَتَلَهُ وَقَدْ آخَى بَيْنَهُمَا رَسُولُ اللَهِ صَلّى اللَهُ عَلَيهِ وَآلِهِ وَسَلّمَ . الحديث .

وفيالخبر أنّ أبا جعفر عليه السلام حدّث جابراً (61) بأحاديث ، وقال : لو أذعتَها ، فعليك لعنة الله والملائكة والناس أجمعين .

وما في «بصائر الدرجات» أيضاً عن المفضّل ، عن جابر ، حديث ملخّصه : أنّه شكى ضيق نفسه عن تحمّلها ، وإخفائها بعد أبي جعفر عليه السلام إلى أبي عبد الله عليه السلام فأمره أن يحضر حفيرة ويدلى رأسه فيها ، ثمّ يحدّث بما تحمّله ، ثمّ يطمّها فإنّ الأرض تستر عليه .

وما في «بحار الأنوار» عن «الاختصاص» ، و«بصائر الدرجات» ، عن جابر ، عن أبي جعفر عليه السلام ، في حديث : يَا جَابِرُ ، مَا سَتَرْنَا عَنْكُمْ أَكْثَرُ مِمّا أَظْهَرْنَا لَكُمْ .

ومتفرّقات الأخبار في هذه المعاني أكثر من أن تحصى ، وقد عدّوا جمعاً من أصحاب النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم وأئمّة أهل البيت سلام الله عليهم من أصحاب الأسرار ، كسَلْمَان الفارسيّ ، وأُوَيْسِ الْقَرَنِيّ ، وكُمَيْل بن زياد النخعيّ ، ومَيْثَم التمّار الكُوفيّ ، ورُشَيْد الهَجَريّ ، وجَابِرِ الْجُعْفِيّ رضوان الله تعالى عليهم أجمعين . (62)

تدلّ الآية الكريمة التي صدّرنا بها درسنا هذا ، أعني : قوله تعالى : النّبِيّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ على ولاية رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم على جميع المؤمنين ، وإطلاق هذه الولاية في المجال التكوينيّ والتشريعيّ ، بل حقيقة الولاية في مجال التكوين والحقيقة ، وبعد ذلك في مجال التشريع

والاعتبار .

ومعنى الولاية التكوينيّة : أنّ رسول الله ـ حقّاً ـ هو الواسطة والحجاب بين العبد وربّه ؛ وأنّ جميع الفيوضات تفاض من الله على العباد ، كالحياة والعلم والقدرة وغيرها بواسطته حيث يمثّل مرآة الحقّ ، وهو في مقام الولاية وبدون واسطة .

ومعنى الولاية التشريعيّة : أنّ إرادة رسول الله مقدّمة على كلّ إرادة في مقام اتّخاذ القرار ، والاختيار للمؤمنين ، وتحلّ إرادته بديلة عن إرادة المؤمن . أي : أنّ المؤمن إذا أراد أن ينجز عملاً ، ومنعه رسول الله ، أو إذا لم يرد ، وأمره به ، فيجب عليه أن يقدّم أمر الرسول ونهيه على إرادته وخيرته . ويطبّق أوامره ، سواء في الحرب أو في السلم ، وسواء في أخذ المال أو إعطائه . وسواء في النكاح أو الطلاق أو الجلاء عن الوطن ، أو كسب الرزق ، أو سائر الشؤون الحياتيّة . وأنّ التعاليم الدينيّة والتكاليف الإلهيّة ، كلّها تصدر عن رسول الله ، وطاعتها واجبة .

ومن الحقول التي طبّقت فيها الولاية التشريعيّة لرسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم قصّة زينب . فقد زوّجها رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم بأمره الوَلائيّ من غلامه ودعيّه زيد بن حارثة ، وبعد أن طلّقها زيد ، تزوّجها رسول الله بأمره الوَلائيّ أيضاً .

وتوضيح ذلك : أنّ زَيْنَب وهي بنت عمّة النبيّ ، وأُمّها أُمَيْمَة بنت عبد المطّلب ، وكانت قد تزوّجت رجلاً اسمه جَحْش فأنجبت منه بنتاً تدعى زَيْنَب ، فزَيْنَبِ بِنْتُ جَحْشْ هي بنت أُمَيمَة بنت عبد المطّلب ، وبنت عمّة رسول الله .

وكان زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ غلام رسول الله ؛ وأعْتقه النبيّ ، وسمّاه بعد عتقه : ابنه . وكانت قضيّة الابن بالتبنّي معروفة ومشهورة ومتداولة بين الناس آنذاك .

ومن الطبيعيّ فقد كانت أعمال رسول الله كلّها تنطلق من الحكمة والمصلحة ، وها نحن نقف على قسم منها .

كان العرب في العصر الجاهليّ يعتبرون الابن بالتبنّي ، وهو الدّعِيّ كما يعبّرون عنه ، ابناً حقيقيّاً في الأحكام ، وفي جميع الخصوصيّات من نكاح ، وإرث ، وسائر الأُمور ، فهو كالابن الحقيقيّ . وإذا كانت بنتاً ، فهي كالبنت الحقيقيّة .

ولذلك فإنّهم عندما كانوا يزوّجونه ، فقد كانوا يعتبرون زوجته زوجة حقيقيّة تشملها أحكام المحارم . وإذا ماطلّق الدعيّ زوجته ، فإنّهم كانوا لا يتزوّجونها ، وذلك لأنّهم كانوا يعتقدون أنّها زوجة ابنهم ، وأنّها كنّتهم ، ولها حرمة مؤبّدة .

ومن جهة أُخرى ، كانت الحياة الأرستقراطيّة شائعة بين العرب ؛ فكانت المرأة ذات النفوذ والشخصيّة فيهم تأبى الزواج من عبد مُعتق ليس له شأن من حيث الحسب والنسب .

وكان كبار العرب يزوّجون بناتهم لأشخاص معروفين ، من أهل البيوتات ومن ذوي القبائل والعشائر وممّن لهم مكانة ومنزلة في المجتمع ، ويرون تزويجهُنّ للفقراء ، والعبيد المعتقين أكبر عار عليهم . وكانوا يؤثرون الموت أو تطليق بناتهم على مثل هذا الزواج .

وكان رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم مكلّفاً من ربّه أن ينسف هذه الأحكام الجاهليّة نسفاً .

أوّلاً : أن يعلن للناس أنّ شرف المؤمن بالإيمان والتقوى ؛ لا بالمال والحَسَب والنّسَب ؛ ولذلك فكلّ مسلم فقير ، حتى لو كان عبداً معتقاً ، له الحقّ أن يتزوّج من بنات المتنفّذين والوجهاء ؛ وكذلك يمكن لبنات المتنفّذين والوجهاء الزواج من المؤمنين الفقراء .

فالتكافؤ في الزواج واختيار الزوج والزوجة هو الإيمان والتقوى ، لا التكافؤ في المال والاعتبار والعشيرة والقوم والقبيلة .

وثانياً : أن يعلن للناس أنّ الابن بالتبنّي ليس ابناً حقيقيّاً ، وأنّ التبنّي لا يترتب عليه أيّ أثر من آثار النسب ؛ فالدعيّ ليس ابناً ؛ والدعيّة ليست بنتاً . وأنّ الدعيّ لا يرث ولا يورث ؛ وهو ليس محرماً ؛ والبنت الدعيّة ليست محرماً ؛ والابن الدعيّ ليس محرماً بالنسبة إلى زوجة الإنسان ؛ وزوجته لا تعتبر كنّة للإنسان ، ولا تكون محرماً بالنسبة إليه ؛ فأن طلّق الابن الدعيّ زوجته ، فللإنسان أن يتزوّجها بعده ؛ لأنّها امرأة أجنبيّة بكلّ ما للكلمة من معنى ، وهي ليست من المحارم .

قال تعالى:

وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ذَ لِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَ هِكُمْ وَاللَهُ يَقُولُ الْحَقّ وَهُوَ يَهْدِى السّبِيلَ . (63)

وكان رسول الله يريد تطبيق هذه الأحكام ، بَيدَ أنّه كان يخشى الناس ، ويخشى ممّن كانوا حديثي عهد بالإسلام ، فربّما كانوا سيستوحشون ، ولا يتنازلون للرسالة ، وربّما يرتدّون عن الدين وهم يقولون : جاء محمّد بشريعة تحلّل نكاح المحارم كشريعة المجوس ، والعياذ بالله .

فخشيته الناس كانت لله وبدافع الحرص على الدين ، بَيدَ أنّ الله أمره أن لا يخشى الناس ! وأن يخشاه ، وينفّذ هذا الأمر .

كأمْرِهِ له في بيعة الغدير:

بَلّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رّبّكَ وَإِن لّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النّاسِ . (64)

وكان رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم عند نزول الأحكام العسيرة على الذين لا قبل لهم بها في بادئ الأمر ، يطبّقها في البداية على نفسه وعشيرته الأقربين ، ليعلم الناس أنّ رسول الله بنفسه المقدّسة يجري عليه هذا الحكم ، وأنّه يطبّقه على نفسه ؛ فتزول بذلك كلّ وحشة وقلق ، أو تخفّ وطأتهما .

وعلى سبيل المثال ، فعندما أراد أن يضع الربا ، ويحكم بحرمته ، ويفسخ الأموال الربويّة التي كان يأخذها الناس بعضهم من بعض في الجاهليّة ، ولا يضع لها اعتباراً ، فقد بدأ بربا عمّة العبّاس . وطبّق عليه هذا الحكم ، فأسقط جميع الأموال الربويّة التي كان قد أقرضها للناس ، كما جاء ذلك في خطبة حجّة الوداع التي ألقاها في عرفات فقا جاء : وَوَضَعَ رِبَا الْجَاهِلِيّةَ وَأَوّلُ رِباً وَضَعَهُ رِبا عَمّهِ الْعَبّاسِ رَضِيَ اللَهُ عَنْهُ . (65)

وعندما أراد أن يضع دماء المشركين وغير المسلمين ، فقد بدأ بدم ابن عمّه : رَبيعَة بن الحارث بن عبد المطّلب الذي أُريق أيّام الشرك في الجاهليّة ، حيث قتله هُذَيْل . كما جاء في خطبته ، حيث ورد :

وَوَضَعَ الدّماءَ فِي الْجَاهِلِيّةِ وَأَوّلُ دَمٍ وَضَعَهُ دَمُ ابْنِ عَمّهِ رَبِيعَةَ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ عَبْدِ الْمُطّلِبِ قَتَلَهُ هُذَيْلٌ .

فَقَالَ : أَوّلُ دَمٍ أَبْدَأُ بِهِ مِنْ دِمَآءِ الْجَاهِلِيّةِ مَوْضُوعٌ فَلَا يُطَالَبُ بِهِ فِي الإِسْلاَمِ . (66) وقال في الخطبة : إِنّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ حَرَامٌ عَلَيْكُمْ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا ، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا (67) فِي بَلَدِكُمْ هَذَا . أَلَاكُلّ شَيْءٍ مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيّةِ تَحْتَ قَدَمِي مَوْضُوعٌ ؛ وَرِبَا الْجَاهِلِيّةِ مَوْضُوعٌ ؛ وَأَوّلُ رِبا أَضَعُ رِبا الْعَبّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطّلِبِ .

وعندما أراد النبيّ الأكرم صلّى الله عليه وآله وسلّم أن يطبّق الأمر الأوّل ، وهو التزاوج بين الأشراف والضعفاء ، فإنّه أراد أن يطبّقه على عشيرته الأقربين ، فذهب عند زَيْنَب بنت جَحْش (بنت عمّته) وخطبها لزَيد بن حَارِثَةِ غلامه ودعيّه ، فعزّ على زينب هذا الأمر كما جاء في تفسير «الدرّ المنثور» :

أخرج ابن جرير عن ابن عبّاس ، قال : خَطَبَ رَسُولُ اللَهِ صَلّى اللَهُ عَلَيهِ [وَآلِهِ] وَسَلّمَ زَيْنَبَ بِنْتَ جَحْشٍ لِزَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ فَاسْتَنْكَفَتْ مِنْهُ وَقَالَتْ : أَنا خيْرٌ مِنْهُ حَسَباً ، وَكَانَتْ امْرَأَةً فِيها حِدّةٌ ، فَأَنْزَلَ اللَهُ تَعَالَى :

وَمَا كَانَ لِمُؤمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلّ ضَلَلًا مّبِينًا . (68)

وفي ضوء الأمر الوَلائيّ لرسول الله ، قبلت زينب بالزواج من زيد ، وأصبحت زوجة له ؛ غير أنّ هذا الزواج لم يكن مقروناً بالهدوء والسكينة ، إذ كانت زينب ترى في نفسها الشرف والعظمة ، وترى زوجها غلاماً معتوقاً لابن خالها : مُحَمّد رَسُول اللهِ صَلّى اللَهُ عَلَيهِ وَآلِهِ وَسَلّمَ .

وضاق زيد ذرعاً لفقدان الانسجام النفسيّ مع زوجته ، وجاء إلى رسول الله مِراراً ، وطلب منه أن يطلّق زينب ، فلم يسمح له النبيّ بذلك وكان يقول له : أمسك عليك زوجك ، ولا تطلّقها .

وَإِذْ تَقُولُ لِلّذِى أَنْعَمَ اللَهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتّقِ اللَهَ . (69)

إلى أن تفاقم الوضع وتأزّمت الحياة حتّى بلغ الأمر درجة نفد معها صبر زيد ، وشعر بالتعب ، فجاء إلى رسول الله وقال له : لا طاقة لي على العيش مع زينب ، فأْذَنْ لي بطلاقها ، فأذِن له النبيّ ، وطلّقها .

وهنا كلّف النبيّ أن يطبّق الحكم الثاني ، وهو إلغاء الآثار المترتبّة على التبنّي ؛ فبدأ بنفسه في المرحلة الأُولى إذ أُمِر بزواج زينب ، امرأة دعيّه التي هي في حكم كنّته ؛ ليتّضح للناس عمليّاً أنّ زوجة الدعي ليست كنّة ، وأنّ زواجها ليس فيه إشكال . بَيدَ أنّ النبيّ كان يخشى الناس ، لأنّ الأمر جديد عليهم ، فإذا تزوّج زينب ، فإنّ الناس سيقولون : تزوّج كنّته ، فيرتدّوا عن الدين ، ولعلّ الأمر ينقلب على الإسلام في تلك الظروف .

جاءت هذه الآية لتخاطبه صلّى الله عليه وآله قائلة : أتخشى الناس ! لا تخش ! طبّق أمر الله ، والله أحقّ أن تخشاه ! إنّك تخفي في نفسك ما الله مبديه:

وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا اللَهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النّاسَ وَاللَهُ أَحَقّ أَن تَخْشَهُ . (تتمّة الآية)

تزوّج رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم زينب بأمر الله مع خشيته الناس ، وذلك رفعاً لهذه البدعة الجاهليّة ؛ وقد سدّده الله وأعانه ؛ واستبان ضعف المؤاخذة التي طرحها الناس ؛ وقد نُفّذ هذا الحكم بحمد لله ، ولم تعد آثار الابن الحقيقيّ مترتّبة على الابن بالتبنّي (الدعي) .

فَلَمّا قَضَى زَيْدٌ مّنْهَا وَطَرًا زَوّجْنَكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِى أَزْوَ جِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَهِ مَفْعُولًا . (بقيّة الآية 37) .

جاء قضاء الوَطَر . الذي يعني الاستمتاع والدخول . مرّتين في هذه الآية لتفهمنا على أنّ الزواج من امرأة الدعي حتّى بعد المضاجعة والمواقعة صحيح لا غبار عليه ؛ وأنّ هذا الحكم لا يقتصر على عدم المواقعة فقط .

هذه هي حقيقة قصّة زينب ، وقد تبيّن الأمر الولائيّ لرسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم وفقاً للآية القرآنيّة الشريفة والتفاسير الشيعيّة ؛ بَيدَ أنّ كثيراً من تفاسير أهل السنّة نقل القصّة بصورة غير مستحسنة .

ولمّا استند المستشرقون على تواريخ أهل السنّة وتفاسيرهم لمعرفة الإسلام ؛ فلهذا صاروا ينظرون إلى الإسلام من منظار سنّيّ ، وبالتالي استشكلت الأُمور عليهم .

يقول غوستاف لوبون الفرنسيّ في كتاب «تاريخ الحضارة الإسلاميّة والعربيّة» :

«بلغ حبّ النبيّ للمرأة درجة أنّه وقعت عينه ذات يوم على زوجة دعيّه زيد صدفة ، وكانت عارية ؛ فرغب فيها . وعندما علم زيد ذلك ، طلّقها ، فتزوّجها النبيّ .وكان لهذا الخبر صدى سيّئ بين الناس ، فاعترض بعضهم على ذلك ؛ إلّا أنّ جَبرَئيلَ الذي كان ينزل على النبيّ كلّ يوم ، أتى بالوحي من عند الله على أنّ هذا العمل الذي قام به النبيّ لم يخلو من المصلحة ؛ فسكت الناس بعد ذلك .» (70)

واستبان ممّا قدّمناه أنّ صورة هذه القضيّة كانت بشكل آخر تماماً ؛ وعلى عكس هذه النظريّة وفي الجهة المقابلة لها تماماً .

يقول العلّامة الطباطبائيّ : إعتذر جمع من المفسّرين عن عمل رسول الله بأنّها حالة جبلّيّة لا يكاد يسلم منها البشر ، فإنّ فيه :

أوّلاً : منع أن يكون بحيث لا يقوى عليه التربية الإلهيّة .

ثانياً : أنّه لا معنى حينئذٍ للعتاب على كتمانه وإخفائه في نفسه ، فلا مجوّز في الإسلام لذكر حلائل الناس والتشبّب بهنّ . (71)

ويلاحظ في تواريخ أهل السنّة وتفاسيرهم مثل هذه الطعون والتهم الرخيصه المشينة منسوبة إلى رسول الله . بينما تخلو منها تواريخ الشيعة وتفاسيرهم بشكل عامّ . ولعلّ السبب في ما يلاحظ عند العامّة هو أنّهم أرادوا . وفقاً لآرائهم . أن يهبطوا بمقام رسول الله عن القدسيّة والطهارة والعصمة ، ويطابقوا ما عندهم في رسول الله مع الأحاديث المجعولة في مدح الشيخين التي ترفع مقامهما ومنزلتهما إلى أبعد مدى ممكن ؛ وحينئذٍ لا يكون هناك فرق بين رسول الله وبينهما . ولو كان موجوداً ، فهو قليل

؛ وهذه أكبر خيانة للتأريخ ، وأكبر تجنّ على الحقيقة إذ يُتّهم النبيّ بأمر غير صحيح إعلاءً لشخص آخر .

ولو قال أحد : إنّ الشيعة قد انتهجوا في مدح عليّ بن أبي طالب وتمجيده كما فعل السنّة في اختلاق الروايات لمدح الشيخين وعثمان . فإنّنا نجيب قائلين : هذا كلام خاطئ ، لأنّ مقاليد الأُمور والحكومة السياسيّة كانت بِيَدِ أنصار الخلفاء ومؤازريهم بعد رسول الله ؛ وكان أنصار عليّ بن أبي طالب بين منبوذ ، وطريد ، وحبيس ، ومضروب ، ومقتول .

ولم يكن هذا الأمر في يوم أو يومين بل استمرّ حتّى عصر رفع التقيّة أيّام الصفويّين وذلك بفتوى العالم الكبير والشيخ الجليل : الشيخ عبد العالي الميسيّ الكَرَكيّ العامليّ ، المعروف بالمحقّق الكركيّ والمحقّق الثاني .

فالسلطة والحكومة وبيت المال والتبليغ والإعلام كلّها كانت بأيدي المعارضين من جميع الجهات ، فأنّى للشيعة أن يختلقوا رواية أو حديثاً ؟ ومتى أستطاعوا ذلك ؟ إنّهم لم يستطيعوا أن ينقلوا الروايات المأثورة في فضائل أئمّتهم ومناقبهم للآخرين وجهاً لوجه ، والشواهد التأريخيّة على ذلك جمّة ، فكيف يتسنّى لهم أن يزيدوا على المرويّات في فضائل الأئمّة روايات يختلقونها ويبثّونها بين الناس ؟ وقد سُئل الشافعيّ عن أمير المؤمنين عليه السلام وهو من كبار المخالفين وأئمّتهم ، فقال : مَا أَقُولُ فِي رَجُلٍ أسَرّ أَوْلِيَاؤُهُ مَناقِبَهُ تَقِيّةً وَكَتَمَها أَعْداؤهُ حَنَقاً وَعَداوةً وَمَعَ ذَلِكَ قَدْ شَاعَ مِنْهُ مَامَلأَتِ الْخَافِقَيْنِ .

وقد أخذ السيّد تاج الدين العامليّ هذا المفاد من الشافعيّ ، فنظم قائلًا :

لَقَدْ كَتَمَتْ آثارَ آلِ مُحَمّدٍ

مُحِبّوهُمْ خَوْفاً وَأَعْدَاؤهُمْ بُغْضا

فَأبْرزَ مِنْ بَيْنِ الْفَرِيقَيْنِ نَبْذَةٌ

بِهَا مَلأَ اللَهُ السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضا (72)

وهذا كلام جدير بالدقّة والتمعّن . والسلام علينا وعلى عباد الله الصالحين .

تعليقات:

1) الآية 6 ، من السورة 33 : الأحزاب .

2) إنّ فِي خَلْقِ السّمَوَ تِ وَالْأَرْضِ وَاختِلَفِ الّيْلِ وَالنّهَارِ وَالْفُلْكِ الّتِى تَجْرِى فِى الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النّاسَ وَمَآ أَنزَلَ اللَهُ مِنَ السّمَآءَ مِن مّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مُوْتِهَا وَبَثّ فِيهَا مِن كُلّ دَآبّةٍ وَتَصْرِيفِ الرّيَحِ وَالسّحَابِ الْمُسَخّرِ بَيْنَ السّمَآءِ وَالْأَرْضِ لَأَيتٍ لِقُومٍ يَعْقِلُونَ . (الآية 164 من السورة 2 : البقرة) .

3) وَسَخّرَ لَكُمُ الّيْلَ وَالنّهَارَ وَالشّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنّجُومُ مُسَخّرَ تٌ بِأَمْرِهِ إِنّ فِى ذَ لِكَ لَأَيَتٍ لّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ . (الآية 12 ، من السورة 16 : النحل) .

4) ينبِتُ لَكُم بِهِ الزّرْعَ وَالزّيْتُونَ وَالنّخِيلَ وَالْأَعْنَبَ وَمِن كُلّ الثّمَر تِ إِنّ فِي ذَ لِكَ لَأَيةً لِقَوْمٍ يَتَفَكّرُونَ . (الآية 11 من السورة 16 : النحل) .

5) وَمِن ثَمَرَ تِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنّ فِى ذَ لِكَ لَأَيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ . (الآية 67 ، من السورة 16 النحل)

6) وَأَوْحَى رَبّكَ إِلَى النّحْلِ أَنِ اتّخِذِى مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشّجَرِ وَمِمّا يَعْرِشُونَ * ثُمّ كُلِى مِن كُلّ الثّمَرَ تِ فَاسْلُكِى سُبُلَ رَبّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مّخْتَلِفٌ أَلْوَ نُهُ فِيهِ شِفَآءٌ لِلنّاسِ إِنّ فِى ذَ لِكَ لَأَيَةً لّقَوْمٍ يَتَفَكّرُونَ . (الآيتان 68 و 69 ، من السورة 16 : النحل) .

7) وَجَعَلْنَا الّيْلَ وَالنّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَاية الّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ النّهَارِ مُبْصِرَةً لّتَبْتَغُوا فَضْلًا مّن رّبّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلّ شَىْءٍ فَصّلْنَهُ تَفْصِيلًا . (الآية 12 ، من السورة 17 : الإسراء) .

8) وَمِنْ ءَايتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مّن تُرَابٍ ثُمّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ . (الآية 20 ، من السورة 30 : الروم) .

9) وَمِنْ ءَايتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مّنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَ جًا لّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَودّةً وَرَحْمَةً إِنّ فِى ذَ لِكَ لَأَيتٍ لّقَوْمٍ يَتَفَكّرُونَ . (الآية 21 ، من السورة 30 : الروم) .

10) وَمِنْ ءَايَتِهِ خَلْقُ السّمَوَ تِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَ نِكُمْ إِنّ فِي ذَ لِكَ لَأَيتٍ لّلْعَلِمِينَ ، (الآية 22 ، من السورة 30 : الروم) .

11) وَمِنْ ءَايَتِهِ مَنَامُكُم بِالّيْلِ وَالنّهَارِ وَابْتِغَآؤُكُم مّن فَضْلِهِ إِنّ فِى ذَ لِكَ لَأَيتٍ لّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ . (الآية 23 ، من السورة 30 : الروم) .

12) أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطّيْرِ مُسَخّرَ تٍ فِى جَوّ السّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنّ إِلّا اللّهُ إِنّ فِى ذَ لِكَ لَأَيتٍ لّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ . (الآية 79 ، من السورة 16 : النحل) .

13) وَمِنْ ءَايَتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزّلُ مِنَ السّمَآءِ مَآءً فَيُحْيِ بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ إِنّ فِى ذَ لِكَ لَأَيتٍ لّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ . (الآية 24 ، من السورة 30 : الروم) .

14) وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنّ فِى ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذّكّرُونَ . (الآية 13 ، من السورة 16 : النّحل) .

15) وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمّهُ ءَايَةً وَءَاوَيْنَهُمَآ إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرارٍ وَمَعِينٍ . (الآية 50 ، من السورة 23 : المؤمنون) .

16) هَذِهِ نَاقَةُ اللّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِى أَرْضِ اللّهِ وَلَا تَمَسّوهَا بِسُوءٍ . (الآية 73 ، من السورة 7 : الأعراف) .

17) الآية 5 ، من السورة 57 : الحديد .

18) الآية 14 ، من السورة 6 : الأنعام .

19) الآية 4 ، من السورة 95 : التين .

20) الآية 31 ، من السورة 2 : البقرة .

21) جامع الأسرار» للسيّد حيدر الآمليّ ص . 135

22) جامع الأسرار» ص 383 ، وذكر في «تفسير الصافي» ذيل ذلك الكلام في ص 55 ، طبع المكتبة الإسلاميّة .

23) راجع الجزء الأوّل من كتاب «معرفة المعاد» ، المجلس الأوّل .

24) لقد نقلنا في كتابنا «مهر تابان» (الشمس الساطعة) مواضيع نفيسة عن العلاّمة الطباطبائيّ رضوان الله عليه حول معنى الروح وأفضليّتها على الملائكة . (القسم الثاني . رقم التسلسل . 240 . 241) .

25) مثل معروف في إيران .

26) وهي خمس سور في القرآن الكريم تبدأ بكلمة سَبّحَ وكلمة يُسَبّحُ وتسمّى سُوَر المُسّبِحَاتِ . وهي : سورة الحديد ، والحشر ، والصفّ ، والجمعة ، والتغابن . وفي المأثور أنّ الرسول الأكرم صلّى الله عليه وآله وسلّم كان يقرأ هذه السور قبل النوم . وعندما سئل عن السبب . قال : في كلّ سورة من هذه السور آية تعادل ألف آية من القرآن . (مهر تابان : مذكّرات العلاّمة الطباطبائيّ رضوان الله عليه ، القسم الثاني ص 13) .

27) 1 . «جامع الأسرار» ص 382 ، . 383

28) الإشارات» ، الطبعة الحروفيّة ج 3 ، ص 91 إلى ص . 93

29) نفس المصدر .

30) نفس المصدر ص 96 إلى . 98

31) الآية 171 من السورة 4 : النساء .

32) الإشارات» وشرحها ، الطبعة الحجريّة ، أواخر النمط التاسع وهو في مقامات العارفين ، وفي الطبعة الحديثة ج 3 ص 389 إلى 390 الطبعة الأُولى : في المطبعة الحيدريّة سنة 1379 هـ .

33) الإشارات» الطبعة الحديثة ج 3 ، ص . 119

34) الإشارات» ج 3 ، ص 119 و . 120

35) شرح الإشارات» النمط العاشر في أسرار الآيات ، وفي الطبعة الحديثة ج 3 ، ص . 150

36) كانت العادة جارية في السابق أن ينقش الناس ولا سيّما الكبار والعلماء والسلاطين أسماءهم أو علاماتهم التي يختصّون بها على فصّ خاتمهم ، ومتى شاءوا ختم كتاب أو سند فإنّهم يخرجونه من أيديهم ويختمون به ثمّ يرجعونه إلى مكانه ؛ ولذلك عرف بالخاتم : أي : ما يُخْتَمُ بِهِ .

37) شرح فصوص الحكم» القيصريّ ، الطبعة الحجريّة ، ص . 72

38) شرح الفصوص» للقيصريّ 7 ص 72 ، . 73

39) شرح القيصريّ» ص . 74

40) الآية 72 ، من السورة 33 : الأحزاب .

41) الإنسان الكامل» ج 2 طبع مطبعة الأزهر في مصر ، سنة 1316 هـ ، ص . 48

42) شرح المنظومة» طبع ناصري ، ص . 166

43) و تعريبهما : يدور الفلك حول محور القلب [قلب العارف] ، و وجود الدنيا والآخرة مظهر للقلب .

وكلّ ما قدّر فياللوح ، فقد خطّته يد الحقّ على دفتر القلب (قلب العارف مظهر المعرفة) .

44) و تعريبهما : العالم كلّه كالجسم و الإنسان قلبه ، و كلّ ما تنشده ، فإنّه يتأتّى من الإنسان . (الإنسان مركز الوجود) .

الدنيا و الآخرة كالجسم و روحه الإنسان لأنّ الإنسان أصل العالم كلّه .

45) وتعريب هذه الأبيات : الإنسان هو محور العالم ، ولايقرّ مدار السماء بدونه .

غدت الدنيا والآخرة أجزاءه ، وسما مكانه على الكَوْن والمكان .

وقد استقرّ هذا الإنسان المجرّد عن المكان في مكان . وأصبح المطلق مقيّداً في العنوان .

وقد اختفت مئات الآلاف من البحار في قطرة (القطرة هنا تعني الإنسان الكامل) . وأصبح العالَم كلّه ذرّة اختفت في عالم (و كأنّ الدنيا استقرّت في ذرّة ، وهذا يشبه البيت المشهور : أتزعم أنّك جرم صغير و فيك انطوى العالم الأكبر) .

وأصبح هذا الأبد (الذي لا آخر له) كالأزل (الذي لا أوّل له) على نحو اليقين ، وأصبح الباطن عين الظاهر ، فتأمّل .

46) وتعريبه : أنّ الكواكب شعاع من مشكاة قلبنا المنوّر . فقلبنا مظهر العالم كلّه والعالم كلّه مظهرنا .

47) وتعريبها : لسنا باب الله لأهل الأرض جميعهم فحسب ، بل وتدور الافلاك التسعة على رؤوسنا .

العقل أمامنا كالطفل الذاهب إلى المدرسة . والفيلسوف هو الذي يقتبس نوره من قلبنا المتنوّر .

نحن وإن جلسنا على التراب وارتدينا خرق الثياب ، لكن مائة من أمثال جمشيد (أحد ملوك إيران) ينامون عند بابنا للاستجداء .

إنّ عين الخضر ظامئة لسرابنا (تودّ أن ترتوي من مائنا) ، ونار الطور جذوة من موقدنا .

فيا من تفكّر بالعلوّ والسيادة وتريد التحكّم والاستكبار ، اعلم أنّ الرأس والتاج يساويان عندنا يقطينة واحدةً .

قل لذاك الثريّ الساعي وراء الوجود والبائع للزهد أن ليس في مُلكِنا من يشتري بضاعتك .

نحن كالعُقاب أهل النصر والمعونة ولسنا كالنسر في السماء . والدنيا والآخرة كالبيضة وفرخ الدجاج تحت جناحنا .

48) وتعريبها : إذا اكتسب القمر نوره وضياءه من الشمس فإنّ الشمس تكتسب نورها من شعاع كوكبنا .

إنّنا ملوك مملكة الطريقة في الحقيقة لا غيرنا ، وعلى رأسنا قبّعة الفقر ، وتاج الفناء في الله في آن واحد .

إنّ العالم والإنسان وإن كانا من الأسرار بَيدَ أنّ الأسرار (الاسم الذي أطلقه الملّا هادي على نفسه) هو شخص تافه من البوّابين على أعتابنا.

49) وتعريبه : شتّان بين الحبيب (الله) وبينك أيّها المضلّل ، وشتّان بين نور الله وبين الذين هم أضل .

50) وتعريبه : الأفلاك والملائك لا تدرك شيئاً ، فما في سرّ الإنسان هو منه جلّ شأنه .

51) روي هذا الحديث كما هو أعلاه ، وقد وجد بخطّ الإمام العسكريّ عليه السلام ؛ وهذا قسم من الحديث ؛ وكلّه موجود في «بحار الأنوار» طبع كمباني 7 : 337 ، والطبعة الحديثة 26 : 264 ، 265 . وأوردوا الصاقورة بالغين أيضاً ،: بَيدَ أنّ المناسب هنا هو الصاقورة بالقاف ، ومعناها كما في «لسان العرب» : السماء الثالثة .

52) لو كشف أحمد (نبيّنا الكريم صلّى الله عليه وآله) أسرار المعراج ، لدهش جبرئيل إلى الأبد .

53) أيّها الفتى ؟ إنّ السماوات السبع منهمكة في عملها ليل نهار من أجلك .

وطاعة الملائكة هي من أجلك،والجنّةُ والنار انعكاس للطفك وقهرك (لو تلطّفت فالجنّة هي المأوى ، ولو قهرت فالنار هي المأوى) .

سجد لك الملائكة أجمعون ، والعالم ، كلّه وجزءه قد استقرّ في وجودك .

لا تنظر إلى نفسك بعين الحقارة ، فلم يسبقك أحد في الوجود (أنت السبّاق قب ل الجميع) .

ظاهرك جزء واحد ، بَيدَ أنّ باطنك هو كلّ الكلّ ، فلا تنظر إلى نفسك من وحي المذلّة وتعدّها قاصرة .

عندما يأن وقت الرفعة والسمّو للعالم كلّه ، فإنّه كلّه يتمتّع بالرفعة والسمّو بفضل وجودك .

54) الأسفار الأربعة» ج 2 ، ص 275 و 276 .

55) الأسفار الأربعة» ج 7 ، ص 18 .

56) هذا البيت هو البيت الحادي والثلاثون بعد الستمائة من التائيّة الكبرى .

57) الحجر بالفتح : المنع ، وبالكسر : الحضن .

والموضحي كانت في الأصل : والمُوضِحُ لي .

اليتيمة : الدرّة الثمينة .

الأيك : الشجر الكثير الملتفّ ، والدوحة : الشجرة الكبيرة .

الهزار : البلبل .

حانة الخمّار : موضع بيع الخمر .

الزّنّار : ما يشدّ على الوسط .

الهيكل : موضع في صدر الكنيسة يقرّب فيه القُبان ، كالمحراب في المسجد .

الأحبار : علماء اليهود .

البِدّ بكسر الباء : المثال ، والتمثال والصنم . والمقصود هنا موضع الأصنام .

وَلَا وَلَا إشارة إلى الحديث الذي رواه أبو الدرداء عن رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم : إنّ الله خلق آدم فضرب بيمينه على يساره فأخرج درّيّة بيضاء كالفضّة ، ومن اليسرى سوداء كالحُثْمَة ، ثمّ قال : هؤلاء في الجنّة ولا أُبالي ، وهؤلاء في النار ولا أُبالي . (شرح تائيّة الملّا عبد الرزّاق الكاشانيّ ، الطبعة الحجريّة ، ص 466) . المقصود هنا السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين إذ كان يقرأها النبيّ في صلاته ولذلك فقد كان يسلّم على جميع عباد الله الصالحين .

58) وتعريبه : يبسط القمر نوره وينبح الكلب ، فكلّ أحد ينسج تبعاً لباطنه . (يشبه هذا البيت ما جاء عن العرب : وكلّ إناء بالذي فيه ينضح) .

59) هذه الأحاديث كثيرة ؛ وجاءت بتعابير متنوّعة بلغت حدّ الاستفاضة . ذكرها المجلسيّ في الجزء الأوّل من «بحار الأنوار» طبع كمباني من ص 117 إلى ص 126 تحت عنوان : «باب إنّ حديثهم عليهم السلام صعب مستصعب وإنّ كلامهم ذو وجوه كثيرة ، وفضل التدبّر في أخبارهم والتسليم لهم ، والنهي عن ردّ أخبارهم» .

60) الصَعْبُ هو الحيوان الشموس الذي لا يركب ؛ في مقابل الذَلُول وهو الحيوان الذي يسهل انقياده ، والمُسْتَصْعَب هو الحيوان الذي يفرّ منه الإنسان خوفاً من حدّته وخشية من ضرره . وقد شبّه الإمام حديثهم هنابهذا الحيوان ، أي : لا قبل لكلّ أحد بالاقتراب من أسرار آل محمّد ؛ والذكوان من ذَكَتْ تَذْكُو النّارُ : اشتدّ لَهِيبُها . وكما ذكر المجلسيّ حديثاً مماثلاً له جاء فيه : ذَكّاء المؤمنين ، أي : هو متّقد ويهيّج الناس على الدوام . والأَجْرَد : هو الذي ليس في جسمه شعر ؛ فهو نظيف ووسيم للغاية . ويؤتي بهذه الكلمة تعبيراً عن النضارة والحسن من باب الاستعارة .

61) هو جابر بن يزيد الجُعفيّ من أعاظم أصحابه عليه السلام ، لا جابر بن عبد الله الأنصاريّ .

62) رسالة «الولاية» للعلّامة الفقيد آية الله الطباطبائيّ رضوان الله عليه ، وهيمن مخطوطاتي ، ص 3 إلى 6 .

63) الآية 4 ، من السورة 33 : الأحزاب .

64) الآية 67 ، من السورة 5 : المائدة .

65) السيرة الحلبيّة» ج 3 ، ص 298 .

66) نفس المصدر .

67) اليوم الحرام هو يوم عرفة ، وهو محترم للغاية ، والشهر الحرام هو شهر ذي الحجّة وهو شهر محترم ، والبلد الحراممكّة ، كانت لها حرمتها ، ولا يمكن الدخول فيها بدون إحرام .

68) الآية 36 ، من السورة 33 : الأحزاب .

69) النصف الأوّل من الآية 37 ، من السورة 33 : الأحزاب .

70) تاريخ الحضارة» ص 121 ، 122 ، ضمن الفصل الرابع .

71) تفسير الميزان» ج 16 ، ص 343 .

72) الكنى والألقاب» ترجمة الشافعيّ ج 2 ، ص 316 ، طبع صيدا .

الدرس الثامن والستّون إلى الحادي والسبعين: الولاية عين التوحيد ، وضروريّة لقوام العالم ونظامه

بِسْمِ اللَهِ الرّحْمَنِ الرّحِيمِ

وصلّى اللهُ على محمّد وآله الطّاهرين

ولعنة اللَه على أعدائهم أجمعين من الآن إلى قيام يوم الدين ولا حول ولا قوّة إلّا باللَه العليّ العظيم

قال الله الحكيم في كتابه الكريم :

إنّ وَلِّىَ اللَهُ الّذِى نَزّلَ الْكِتبَ وَهُوَ يَتَوَلّى الصّلِحِينَ . (1)

لدينا آيات في القرآن الكريم تقصر الولاية على الله ؛ وتجعلها له بصورة تامّة وبدون أيّ استثناء ، كالآيات التالية :

قُلْ أَغَيْرَ اللَهِ أَتّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السّمَوَتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنّى أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ . (2)

ونرى في هذه الآية أنّ الولاية ملازمة لخلق السماوات والأرض . وأنّ واجب الوجود هو الحقّ بذاته ؛ يطعم الناس ويرزق العالم ؛ وهو لا يُطعَم ولا يُرزَق ؛ فالولاية منحصرة به مقصورة عليه .

أَمِ اتّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَآءَ فَاللَهُ هُوَ الْوَلِىّ وَهُوَ يُحْىِ الْمُوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلّ شَىْءٍ قَدِيرٌ . (3)

وَهُوَ الّذِى يُنَزّلُ الْغَيْثَ مِن بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِىّ الْحَمِيدُ . (4)

وَمَا لَكُم مّن دُونِ اللَهِ مِن وَلِىّ وَلَا نَصِيرٍ . (5)

ونلحظ في هذه الآيات كلّها وآيات أُخرى غيرها أنّ الولاية من الصفات المختصّة بالباري عزّ وجلّ ، وأنّ الوليّ من أسمائه المختصّة به .

ونلحظ من جهة أُخرى وجود آيات تنسب الولاية إلى غير الله ، نحو قوله :

وَإِن تَظَهَرَا عَلَيْهِ فَإِنّ اللَهَ هُوَ مَوْلَيهُ وَجِبْرِيلُ وَصَلِحُ الْمُؤمِنِينَ وَالْمَلَئِكَةُ بَعْدَ ذَ لِكَ ظَهِيرٌ . (6)

حيث نرى أنّ هذه الآية المباركة قد ألحقت جبريل وأمير المؤمنين عليهما السلام بالله ، وجعلتهما وليّين لرسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم .

إِنّمَا وَلِيّكُمُ اللَهُ وَرَسُولُهُ وَالّذِينَ ءَامَنُوا الّذِينَ يُقِيمُونَ الصّلَوَةَ وَيُؤْتُونَ الزّكَوةَ وَهُمْ رَ كِعُونَ . (7)

نرى أنّ هذه الآية قد حدّدت ولاية رسول الله ، وولاية أمير المؤمنين عليه السلام الذي تصدّق بخاتمه راكعاً ، مضافاً إلى ما نلحظه من ولاية الله فيها أيضاً .

إنّ جوابنا لحلّ هذه المسألة وعلاج هذا الخلاف الذي يبدو خلافاً في ظاهره هو نفس الجواب الذي قدّمناه في مجالات متعدّدة ؛ وهو : أنّ صفات الله هي صفات لله بالأصالة ، ولغيره بالتبعيّة . فالله نور والآخرون شعاع من هذا النور : والله نور وما عداه ظلّ .

فلا تناقض عندئذٍ ، لأنّ ولاية رسول الله وأمير المؤمنين هي من ولاية الله وبها .

ومثل هذه المسألة كثير في القرآن الكريم . ومن ذلك قوله جلّ اسمه :

أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا . (8)

وقوله : مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا . (9) بينما يقول في موضع آخر : وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ . (10)

عزّة الله هي لله ولذاته ؛ وعزّة رسول الله والمؤمنين هي من الله ، وعرضيّة بالنسبة إليهم . كذلك الولاية فهي لله ذاتيّة ، ولغيره عرضيّة . كوجه صاحب الصورة ، فهو له ذاتيّ ، وللمرآة التي ينظر فيها عرضيّ .

وليس لأحد أن يسلب شكله وصورته من نفسه ؛ بَيدَ أنّه يستطيع أن ينظر في المرآة فينعكس فيها وجهه ، ويستطيع أن يرفع وجهه عن المرآة ؛ فلا يُرَى فيها حينئذٍ وجه ملحوظ .

إنّ وَلاية الله من الصفات والأسماء من لوازم ذاته ؛ وهي ولاية بالأصالة والحقيقة ؛ بَيدَ أنّ الولاية الإلهيّة الكلّيّة والعامّة والمطلقة لرسول الله والأئمّة الطاهرين سلام الله عليهم تَبَعيّة وَعَرَضيّة ؛ ومرآتيّة وآيتيّة ، وهي من الله ، وقد تجلّت في هذه المرايا المتلألأة والآيات المتألّقة .

وما لم تكن الولاية موجودة ، فلن يتحقّق العالم ولن يقرّ له قرار ، ولن يكون له وجود وثبات ، بل هو معدوم فان .

ذلك لأنّ نزول نور الهويّة الإلهيّة في اسم الله وسائر صفات الجمال والجلال يتحقّق بواسطة انعكاس نور الذات والمرايا المختلفة ؛ لكي تتحقّق الكثرة في عالم الإمكان وتتّصل الموجودات بعضها ببعض ، ويرتبط الحادث بالقديم ؛ وهذا الأمر محال بغير الولاية .

كما أنّ الخلق والمخلوقيّة بدون صفة الخلّاقيّة واسم الله الخلّاق محال ، وكذلك المرزوق والمطعوم بدون صفة الرازقيّة والطاعميّة لله محال ؛ والمعلوم بدون العلم ؛ والرحمة بدون الرحمن والرحيم محال ؛ وكذلك إيجاد الموجودات وتربيتها فإنّه محال بدون ولاية ؛ لأنّ الإيجاد والإحياء والإماتة والتربية كلّها في ظلّ الاسم وصفة الوليّ والولاية ؛ ولا إمكان لتحقّقها بدون ذلك .

الولاية قائمة في كلّ كائن وموجود وفقاً لسعة هويّته الوجوديّة وضيقها ، لأنّ الولاية هي عبارة عن عدم وجود حجاب ومسافة بين الخلق والخالق ؛ وإذا ما وجد الحجاب والمسافة ، فالخلقة ممتنعة .

فكلّ موجود هو مع الولاية ولها اعتباراً من التبنة إلى الجبال الراسيات ؛ ومن الذرّة إلى الشمس ومنظومتها ؛ أي : على ارتباط بحت بالله القادر ، والموجِد ، والعالم ، والرازق .

غاية الأمر ، أنّ الموجودات الضعيفة هي تحت ولاية الموجودات القويّة ؛ وهذه أيضاً تحت ولاية الموجودات التي هي أقوى ؛ إلى أن تصل إلى نقطة ، توجِد فيها الولاية الإلهيّة الكلّيّة والمطلقة والعامّة جميع الموجودات تحت هذه الصفة والاسم ، وترزقها ؛ وتميتها وتحييها ؛ وتفيض عليها بالعلم ، والسمع ، والبصر ، والقدرة .

وما يلزم خلقة كافّة الموجودات الكثيرة على اختلاف درجاتها في الوجود هو الارتباط بالولاية الكلّيّة ذات السعة والإحاطة الأكثر ، والقدرة والتناهي الأوسع من جميع الجهات .

وهي التي يقال لها أوّلُ مَا خَلَقَ اللّهُ ، وهي الحجاب الأقرب والمرآة التامّة للذات ، وصفات الجمال والجلال لله جلّ وعلا . ومنها ينطلق عالم الكثرة من المُلك والملكوت ، والعقول ، والنفوس ، وعالم الطبع ؛ وبواسطة اتّساع الولاية في شبكات عالم الإمكان المختلفة تتقمّص الموجودات لباس الوجود تدريجاً ، من الأعلى إلى الأسفل ، ومن القويّ إلى الضعيف ، ومن الوسيع إلى الماهيّة الضيّقة .

وأنّ أوّلُ مَا خَلَقَ اللّهُ التي مرآتها أوسع من الموجودات كلّها ، يمكنها أن تعبّر عن الذات والصفات بدون نقص وبخس ، وهي الولاية المطلقة والكلّيّة ؛ لأنّها . وفقاً للافتراض . الحجاب الأقرب ، وأقرب موجود إلى ساحة الكبرياء المقدّسة من حيث القرب .

وفرقها عن ذات الباري تعالى هو أنّها عَرَضِيّة ومجازيّة ، والذات المقدّسة ذاتيّة وحقيقيّة ، وذلك لعدم وجود أيّ مؤثّر في عالم الوجود غير الذات الإلهيّة . فالفرق بين أوّلِ مَا خَلَقَ ، وبين الموجودات الأُخرى هو أنّ سعة ذلك أكثر ، لا أنّ له وجوداً من ذاته ؛ لا ، ليس الأمر كذلك .

إنّ الكائنات والموجودات جميعها اعتباراً من أوّلِ ما خَلَقَ إلى آخر درجة في الماهيّات الإمكانيّة الضعيفة والوضعيّة ، كلّها فقيرة ومحتاجة إلى الله ؛ بل هي عين الفقر والحاجة . والروح الأمين وسائر الملائكة المقرّبين كلّهم على هذه الشاكلة أيضاً . ولا يستثنى من هذه القاعدة شيء في عالم الإمكان . وكلّ شيء في العالم هو ممكن الوجود غير ذات واجب الوجود .

إنّ أَوّلَ مَا خَلَقَ اللّهُ ، في الوقت الذي يتفوّق على الكائنات والموجودات جميعها إنشآءً وإعداداً وقدرة ، إلّا أنّه يظلّ مرآة . غير أنّها مرآة أوسع وأتمّ وأدلّ . ولن تنفصل عنها صفة الآيتيّة والمرآتيّة أبداً .

إذَنْ ، الولاية الإلهيّة الكلّيّة هي ولاية الله عينها . فالأصل واحد ، إلّا أنّ لها أصالة في الله ، وتبعيّة في الوَلِيّ . الله يدلّ على نفسه ؛ والوليّ يدلّ على الله .

ومعاذ الله أن يخال أحد أنّ الولاية تتمّ بإعطاء الله والاستقلال في وجود وَليّ الله ، فهذا الكلام خاطئ وهو الشرك عينه .

ميان ماه من تا ماه گردون
تفاوت از زمين تا آسمان است
دانه فلفل سياه و خالِ مهرويان سياه
هر دو جان سوزند امّا اين كجا و آن كجا؟
شكَر مازندران و شكَر هندوستان
هر دو شيرينند امّا اين كجا و آن كجا؟ (11)

ومن هذا المنطلق ما جاء في الرسالة 28 من رسائل الإمام أمير المؤمنين عليّ عليه السلام في «نهج البلاغة» ، وهي رسالته التي كتبها إلى معاوية ، يقول فيها : فَإنّا صَنَائِعُ رَبِّنَا وَالنّاسُ بَعْدُ صَنَائِعُ لَنَا . (12)

يقول المجلسيّ رحمة الله عليه في الجزء الثامن من «بحار الأنوار» ، ص 536 ، طبع كمباني : هذا كلام مشتمل على أسرار عجيبة من غرايب شأنهم التي تعجز عنها العقول . ولنتكلّم على ما يمكننا

إظهاره والخوض فيه ، فنقول : صَنِيعَةُ الْمَلِكِ مَنْ يَصْطَنِعُهُ وَيَرْفَعُ قَدْرَهُ . وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى : «وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى» أي : اخْتَرْتُكَ وَأَخَذْتُكَ صَنيعتي لِتَتَصَرّفَ عَنْ إِرَادَتِي وَمَحَبّتِي .

فالمعنى أنّه ليس لأحد من البشر علينا نعمة ، بل الله تعالى أنعم علينا ، فليس بيننا وبينه واسطة ، والناس بأسرهم صنايعنا ، فنحن الوسائط بينهم وبين الله سبحانه .

ويقول ابن أبي الحديد في شرح «نهج البلاغة» المطبوع في عشرين جزءاً ، وذلك في ج 15 ص 194 : «هذا كلام عظيم ، عال على الكلام ، ومعناه عال على المعاني ؛ وَصَنِيعَةُ الْمَلِكِ مَنْ يَصْطَنِعُهُ وَيَرْفَعُ قَدْرَهُ . يقول الإمام : ليس لأحد من البشر علينا نعمة ، بل الله تعالى هو الذي أنعم علينا ، فليس بيننا وبينه واسطة ، والناس بأسرهم صنائعنا ، فنحن الواسطة بينهم وبين الله تعالى . وهذا مقام جليل ظاهره ما سمعت ، وباطنه أنّهم عبيد الله وأنّ الناس عبيدهم . انتهى» .

ويقول الشيخ محمّد عبده في هامش ص 32 : آلُ النّبِيّ أُسَرَاءُ إحْسَانِ اللهِ عَلَيْهِمْ وَالنّاسُ أُسَرَاءُ فَضْلِهِمْ بَعْدَ ذَلِكَ .

إنّ الولاية الإلهيّة الكلّيّة هي ولاية من منظار صفة الله واسمه ؛ بَيدَ أنّا إذا تغاضينا قليلاً ، فلا يعني ذلك عدم وجود الولاية ؛ بل يعني العدم المحض ، والصفر ، والمعدوم ، والفناء .

وكما أنّ للولاية الكلّيّة والمطلقة الأثر التامّ في التكوين والإيجاد ، فإنّ لها كذلك تمام الأثر في مجال الصعود والوصول . أي : لا يبلغ أحد درجة المعرفة والقرب من ذات الحقّ المقدّسة إلّا عبر هذه المرآة ، وهذه الآية الكبرى . لأنّ المرآة على سبيل الفرض كبيرة ؛ ولمّا كان جمال المحبوب ومعرفة المعبود ، بلا مرآة وحجاب متعذّرين على السالك في الوهلة الأُولى ؛ ونور الذات وتشعشعها يعمي بصر كلّ راءٍ ، ويقوده إلى حضيض الضلال ، لذلك فإنّ الوصول إلى هذه المرآة وشرطيّتها للسير في مراحل المعرفة من ألزم اللوازم . وكلنّا نعلم أنّه لا يمكن النظر إلى الشمس ، ولكن يمكن النظر إليها في المرآة .

وما أروع قول العارف المعروف : الشيخ محمّد الشبستريّ في بيان هذه الحقيقة وتوضيحها :

نگنجد نور ذات اندر مَظاهر
كه سُبْحاتِ جَلالش هست قاهر
در آن موضع كه نور حقّ دليل است
چه جاى گفتگوى جبرئيل است؟
بود نور خرد در ذات أنور
بسان چشم سَر در چشمه خُورْ (13)
چه نسبت خاك را با عالم پاك
كه اِدراكست عجز از درك ادراك
در اين مشهد كه أنوار تجلّى است
سخن دارم ولى ناگفتن أولى است
اگر خواهى كه بينى چشمه خُور
ترا حاجت فتد با چشم ديگُر

چو چشم سر ندارد طاقت و تاب
توان خورشيد تابان ديد در آب
ازو چون روشنى كمتر نمايد
در اِدراك تو حالى مىفزايد
عدم آئينه هستى است مطلق
كزو پيداست عكس تابش حقّ
عدم چون گشت هستى را مقابل
در او عكسى شد اندر حال حاصل (14)
شد آن وحدت ازين كثرت پديدار
يكى را چون شمردى گشت بسيار
عدد گر چه يكى دارد بَدايت
وليكن نبودش هرگز نهايت
عدم در ذات خود چون بود صافى
وزو با ظاهر آمد گنج مخفى
حديث كُنْتُ كَنْزاً را فرو خوان
كه تا پيدا ببينى گنج پنهان
عدم آئينه ، عالم عكس ، و انسان
چو چشم عكسْ در وى شخص پنهان
تو چشم عكسى و او نور ديده است
بديده ديده را ديده كه ديده است ؟
جهان انسان شد و انسان جهانى
ازين پاكيزهتر نبود بيانى (15)
چو نيكو بنگرى در اصل اين كار
هم او بيننده ، هم ديده است ، و ديدار
حديث قدسى اين معنى بيان كرد
فَبِى يَسْمَع و بِي يُبْصِرْ عَيان كرد (16)

ويستبين ممّا تقدّم أنّه لا شبهة ولا إشكال في ضرورة مقام الولاية في عالم التكوين ، وضرورته للصعود وبلوغ مقام التوحيد وعرفان الله ؛ وأمّا ولاية رسول الله والأئمّة المعصومين سلام الله عليهم أجمعين ، فهي ظاهرة ومشهودة من آثارهم وخصائصهم وتطبيق تلك المبادئ العامّة المذكورة على أحوالهم العرفانيّة وملكاتهم الإلهيّة . وهذا يتحقّق عن طريقين :

الأوّل : النصوص المأثورة في مقام ولايتهم المسلّم بها ؛ والثاني : المعجزات والكرامات التي تصدر

عن وليّ الله خاصّة ؛ ومن المحال أن تصدر عن غير الواجد لمقام الولاية ، كإحياء الموتى .

وقد ألّف الشيخ الجليل محمّد بن الحسن الحرّ العامليّ عامله الله برحمته كتاباً نفيساً قيّماً في هذا الباب سمّاه : «إثباتُ الْهُدَاةِ بِالنّصُوصِ وَالْمُعْجِزَاتِ» . أثبت فيه ولاية وإمامة رسول الله والأئمّة الاثني عشر ، خلفاء ذلك النبيّ العزيز بالحقّ . وذلك في فصول مستقلّة ، عن طريق المعجزة ، والنصّ المأثور ؛ جزاه الله عن الإسلام والولاية خير الجزاء .

وألّف المرحوم المحدّث السيّد هاشم البحرانيّ تغمّده الله برحمته كتاباً نفيساً وقيّماً سمّاه : «مَدِينَةُ الْمَعَاجِز» في معجزات أُولئك العظام ، وكذلك ألّف كتاب «غاية المرام» في خصوص ولاية أمير المؤمنين عليه السلام وهو غنيّ عن التعريف حقّاً ؛ وكتاب «غاية المرام» مفخرة من مفاخر الشيعة ، ولا مثيل له في عالم العلم والأدب الشيعيّ من حيث الشموليّة التي يمتاز بها .

أجل ، فمن أجل ضرورة الولاية وشرطيّتها في مسير عرفان ربّ العزّة وتوحيده ، كان الحديث الشريف المشهور بحديث سلسلة الذّهَب الذي لا يرتاب أحد في صدوره عن الإمام الثامن من أئمّة أهل البيت عليهم السلام أعنيّ الإمام علىّ بن موسى الرضا عليهما السلام .

وكذلك لا ريب في دلالته على لزوم الولاية ؛ لأنّنا سنأتي هنا بالنصّ في شرطيّته . ثمّ نخوض في الحديث عنه بحول الله وقوّته .

جاء في كتاب «كشف الغمّة» لمؤلّفه عليّ بن عيسى الإربليّ : قال الفقير إلى الله تعالى جامع هذا الكتاب : نقلت من كتاب لم يحضرني اسمه الآن ما صورته :

حدّث المولى السعيد إمام الدنيا وعماد الدين محمّد بن أبي سعد بن عبد الكريم الوزّان في محرّم سنة 596 قال : أورد صاحب كتاب «تاريخ نيسابور» في كتابه :

أنّ عليّ بن موسى الرّضا عليهما السلام لمّا دخل إلى نيسابور في السفر التي فاض فيها فضيلة الشهادة كان في مهد على (بَغْلَة شَهْبَاء) عليها مركب من فضّة خالصة .

فعرض له في السوق : الإمامان الحافظان للأحاديث النبويّة : أبو زُرْعَة ، ومحمّد بن أسلم الطوسيّ رحمهما الله ، فقالا :

أيّها السيّد ابن السادة ! أيّها الإمام ابن الأئمّة ! أيّها السلالة الطاهرة الرضيّة ! أيّها الخلاصة الزاكية النبويّة ، بحقّ آبائك الأطهرين ، وأسلافك الأكرمين إلّا ما أريتنا وجهك المبارك الميمون ، ورويت لنا حديثاً عن آبائك عن جدّك نذكرك به .

فاستوقف البغلة ، ورفع المظلّة . وأقرّ عيون المسلمين بطلعته المباركة الميمونة ، فكانت ذؤابتاه كذؤابتي رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم ، والناس على طبقاتهم قيام كلّهم .

وكانوا بين صارخ وباك ، وممزّق ثوبه ، وممرّغ في التراب ، ومقبّل حزام بغلته ، ومطوّل عنقه إلى مظلّة المهد إلى أن انتصف النهار ، وجرت الدموع كالأنهار ، وسكنت الأصوات وصاحت الأئمّة والقضاة : مَعَاشِرَ النّاسِ اسْمَعُوا ، وَعُوا ، وَلَاتُؤْذُوا رَسُولَ اللَهِ صَلّى اللَهُ عَلَيهِ وَآلِهِ وَسَلّمَ في عِتْرَتِهِ ، وَأَنْصِتُوا .

فأملى صلّى الله عليه هذا الحديث ، وعدّ من المحابر أربع وعشرون ألفاً سوى الدويّ .

والمستملي أَبُو زُرْعَة الرازيّ ، وَمُحَمّدُ بن أَسْلَم الطوسيّ رحمهما الله . فقال صلّى الله عليه : حدّثني أبي موسى بن جعفر الكاظم ، قال : حدّثني أبي جعفرُ بن محمّد الصادق ، قال : حدّثني أبي محمّد بنُ عليّ الباقر ، قال : حدّثني أبي عليّ بن الحسين زَيْنُ العابدين ، قال : حدّثني أبي الحسينُ بن عليّ شَهيدُ أرض كَرْبَلاء ، قال : حدّثني أبي أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب شهيد أرض الكوفة ، قال : حدّثني أخي وابن عمّي مُحَمّد رَسُول اللَهِ صَلّى اللَهُ عَلَيهِ وَآلِهِ وَسَلّمَ قال : حدّثني جَبْرَئيل عَلَيهِ السّلَامُ قَالَ : سَمِعْتُ رَبّ الْعِزّةِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَقُولُ :

كَلِمَةُ لَا إِلَهَ إِلّا اللهُ حِصْنِي ، فَمَنْ قَالَهَا دَخَلَ حِصْنِي ؛ وَمَنْ دَخَلَ حِصْنِي أَمِنَ مِنْ عَذَابِي ، صَدَقَ اللهُ سُبْحَانَهُ ، وَصَدَقَ جَبْرَئِيلُ ، وَصَدَقَ رَسُولُهُ ، وَصَدَقَ الْأَئِمّةُ عَلَيهِمُ السّلَامُ . (17)

ذكر هذا الحديث الشريف بنصّه المتقدّم كلّ من : المحدّث القمّيّ في «سفينة البحار» عن «كشف الغمّة» ، (18) وابن الصبّاغ المالكيّ في «الفصول المُهمّة» ، (19) والمحدّث الأمين السيّد محسن الجبل العامليّ في «أعيان الشيعة» . (20)

بَيدَ أنّ المرحوم الشيخ الصدوق ذكر هذا الحديث في «معاني الأخبار» ، و«عيون أخبار الرضا» ، وكتاب «التوحيد» . ورواه الشيخ الطوسيّ في «الأمالي» ، والشيخ الحُرّ العامليّ في «الجواهر السنيّة» بألفاظ مختلفة ؛ وبأسناد متفاوتة ؛ وفيما يلي ما جاء في تلك الكتب نصّاً :

1 . في «معاني الأخبار» ص 370 روى سند الحديث بعينه عن محمّد ابن موسى المتوكّل ، عن أبي الحسين محمّد بن جعفر الأسديّ ، عن محمّد ابن الحسين الصوفيّ ، عن يوسف بن عقيل ، عن إسحاق بن رَاهَوَيْه ؛ إلى أن قال : سَمِعْتُ اللَهَ عَزّ وَجَلّ يَقُولُ : لَا إِلَهَ إِلّا اللهُ حِصْنِي فَمَنْ دَخَلَ حِصْنِي أَمِنَ[مِنْ] عَذَابِي ؛ فَلَمّا مَرّتِ الرّاحِلَةُ نَادَانَا : بِشُرُوطِهَا وَأَنَا مِنْ شُرُوطِهَا .

وذكر المرحوم الصدوق هذا الحديث بعينه في كتاب «ثواب الأعمال» ص 7 .

2 . روى في «معانى الأخبار» ص 371 عن محمّد بن الحسن القطّان ، عن عبد الرحمن بن محمّد الحسينيّ ، عن محمّد بن إبراهيم بن محمّد الفزاريّ ، عن عبد الله بن بحر الأهوازيّ ، عن أبي الحسن عليّ بن عمرو ، عن الحسن بن محمّد بن جمهور ، عن عليّ بن بلال ، عن الإمام عَليّ بنِ مُوسَى الرّضا عليهما السلام بالسند نفسه عن رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم عن جبرئيل ، عن ميكائيل ، عن إسْرَافِيل ، عن اللوح ، عن القَلَم :

يَقُولُ اللَهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : وَلَايَةُ عَلِيّ بنِ أَبي طَالِبٍ صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِ حِصْنِي ، فَمَنْ دَخَلَ حِصْنِي أَمِنَ نَارِي .

وجاء الحديث في «الجواهر السنيّة» ص 225 عن الصدوق في «الأمالي» ، إلّا أنّ الرواي فيه هو أحمد بن الحسن .

3 . ونقل الصدوق في «عيون أخبار الرضا» ص 315 هذا الحديث نفسه الذي نقله في «معاني الأخبار» ص 370 ، وذلك عن محمّد بن موسى ابن المتوكّل بدون زيادة ونقصان . ولا يختلف عنه إلّا في ثلاثة مواضع جزئيّة لا علاقة لها من قريب أو بعيد بالاختلاف في المعنى . الأوّل : جاء اسم

محمّد بن الحسين الصَوْلي في سلسلة الرواة . الثاني : قال فيه : سَمِعْتُ اللّهَ جَلّ جَلاَلُهُ . الثالث : قال فيه : أَمِنَ مِنْ عَذَابِي ، وجعل كلمة مِنْ في النصّ ، ولم يأت في نسخة البدل .

ونقل هذا الحديث في «عيون أخبار الرضا» ص 313 و314 بثلاثة أسناد أُخرى مع اختلاف يسير ؛ وهذه الأسناد هي :

4 . عن أبي سعيد محمّد بن الفضل بن محمّد بن إسحاق المذكّر النيسابوريّ في نيسابور ، عن أبي على الحسين بن عليّ الخزرجيّ الأنصاريّ السعديّ ، عن عبد السلام بن صالح أبي الصَلْت الهَرَويّ قال : كُنتُ مع عليّ ابن موسى الرضا عليهما السلام في نيسابور ؛ وكان على بغلة شهباء أخذ بلجامها محمّد بن رافع ، وأحمد بن الحارث ، ويَحْيى بن يَحْيى ، وإسحاق ابن رَاهَوَيْهْ ، وغيرهم من أهل العلم ، في المربَعَة وقالوا : ... يذكر الحديث هنا بسلسلة سنده المذكور ، إلى أن يصل بالسند إلى جبرئيل الذي قال :

قَالَ اللّهُ جَلّ جَلاَلُهُ : إنّي أَنَا اللهُ لَا إلَهَ إلّا أنَا فَاعْبُدونِي ، مَن جاءَ مِنْكُمْ بِشَهَادَةِ أَنْ لَا إلَهَ إلّا اللهُ بِالْإخْلَاصِ دَخَلَ فِي حِصْنِي ، وَمَنْ دَخَلَ فِي حِصْنِي أَمِنَ مِنْ عَذَابِي .

5 . عن أبي الحسين محمّد بن عليّ بن شاه فقيه مَرْوَرديّ ، في بيته بَمَرْوْرود ، عن أبي القاسم عبد الله بن أحمد بن عبّاس عامر الطائيّ في البصرة ، عن أبيه ، عن عليّ بن مُوسَى الرِّضَا عليهما السلام وهكذا يستمرّ بالرواية ذاكراً نفس السند إلى أن يقول :

قَالَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيهِ وَآلِهِ وَسَلّمَ يَقُولُ اللّهُ جَلّ جَلاَلُهُ : لَا إلَهَ إلّا اللّهُ حِصْنِي ؛ فَمَنْ دَخَلَهُ أَمِنَ مِنْ عَذَابِي .

6 . عن أبي النصر أحمد بن الحسين بن أحمد بن عُبَيد الضَبّيّ ، عن أبي القاسم محمّد بن عبيد الله بن بابَوَيْه الرجل الصالح ، عن أبي محمّد أحمد بن محمّد بن إبراهيم بن هاشم الحافظ ، عن الحسن بن عليّ بن محمّد ابن عليّ بن موسى بن جعفر السيّد المحجوب الذي كان إمام عصره في مكّة ، عن أبيه عليّ بن محمّد النقيّ ، عن أبيه محمّد بن عليّ التقيّ ، عن أبيه عليّ بن موسى الرضا عليهم السلام ؛ إلى أن يصل إلى هذا السند ؛ ثمّ يقول :

قَالَ اللّهُ سَيّدُ السّادَاتِ جَلّ وَعَزّ : إنّي أَنا اللّهُ لَا إلَهَ إلّا أَنَا ؛ فَمَنْ أَقَرّ لي بِالتّوْحِيدِ دَخَلَ حِصْنِي وَمَنْ دَخَلَ حِصْنِي أَمِنَ مِنْ عَذَابِي .

ونقل صاحب «الجواهر السنيّة» هذه الرواية عن «عيون أخبار الرضا» في ص 147 .

7 . يروي الصدوق في كتاب «التوحيد» ص 25 الرواية التي نقلناها في الرقم (1) عن «معاني الأخبار» ، وفي الرقم (3) . عن «العيون» بدون أيّ اختلاف ؛ عن محمّد بن موسى بن المتوكّل ، إلى آخرها ، لمّا مرّت الراحلة ، قال عليه السلام : بِشَرْطِهَا وَأَنا مِنْ شُرُوطِهَا .

ثمّ قال الصدوق : يقول مصنّف هذا الكتاب : مِنْ شُرُوطِهَا الإقْرَارُ لِلرّضَا عَلَيْهِ السّلاَمِ بِأَنّهُ إمَامٌ مِنْ قِبَلِ اللّهِ عزّ وَجَلّ عَلَى الْعِبَادِ مُفْتَرَضُ الطّاعَةِ عَلَيْهِمْ .

وذكر الصدوق هذا التفسير ذاته في ذيل هذه الرواية في كتاب «العيون» .

8 . يروي الصدوق في «التوحيد» ص 24 الرواية التي نقلناها في الرقم (5) عن أبي الحسين محمّد

بن عليّ بن الشاه فقيه في مرورود . يرويها نصّاً بلا زيادة ونقصان . ونقلها الحرّ العامليّ في «الجواهر السنيّة» ص 156 عن «التوحيد» .

9 . يروي الصدوق في «التوحيد» ص 24 الرواية التي نقلناها عن أبي سعيد محمّد بن الفضل بن محمّد بن إسحاق المذكّر النيسابوريّ ، يرويها نصّاً بلا زيادة ونقصان .

10 . يقول الشيخ الطوسيّ في «الأمالي» ج 2 ، ص 201 : روى لنا جماعة عن أبي المفضّل ، قال : حدّثنا أبو نصر لَيْث بن محمّد بن لَيْث العنبريّ إملاءً عن أصل كتابه ، قال : حدّثنا أحمد بن عبد الصّمد بن مُزَاحم الهَرَويّ سنة 261 هـ ، قال : حدّثنا أبو الصَّلْت عبد السلام بن صالح الهَرَويّ ، قال : كنت مع الرضا عليه السلام عند دخوله نيسابور ؛ ثمّ يذكر القضيّة نفسها مع سلسلة السند ، إلى أن يقول : أخبر الروح الأمين جبرئيل عن الله تَقَدَّسَتْ أسْمَاؤهُ وَجَلّ وَجْهُه قال : إنّي أنَا اللَهُ لَا إلَهَ إلّا أنَا وَحْدِي ، عِبَادِي فَاعْبُدُونِي ، وَلْيَعْلَمْ مَنْ لَقِيَنِي مِنْكُمْ بِشَهَادَةِ أنْ لَا إلَهَ اللَهُ مُخْلِصاً بِهَا أنّهُ قَدْ دَخَلَ حِصْنِي وَمَنْ دَخَلَ حِصْنِي أمِنَ مِنْ عَذَابِي .

قَالُوا : يَابْنَ رَسُولِ اللَهِ ! وَمَا إخْلَاصُ الشّهَادَةِ لِلَهِ ؟!

قَالَ : طَاعَةُ اللَهِ وَرَسُولِهِ وَوَلَايَةُ أهْلِ بَيْتِهِ عَلَيْهِمُ السّلَامُ .

11 . ذكر (الحرّ العامليّ) في «الجواهر السّنيّة» طبع النجف ص 222 الرواية التي نقلناها في الرقم (1) عن «معاني الأخبار» ص 370 ؛ وقد نقلها بالأسناد نفسها عن الصدوق في كتاب «الأمالي» ؛ ولكنّه قال عليه السلام : وَأنَا في شُرُوطِهَا .

ثمّ قال الشيخ الحرّ العامليّ : هذا على تقدير تخفيف النون من قوله : أنَا في شُرُوطِهَا ، وعلى تقدير تشديدها ، تشتمل جميع الأئمّة المعصومين عليهم السلام والمقصود من هذا الباب حاصل على التقديرين .

12 . ويقول في «الجواهر السّنيّة» ص 158 : قال رسول الله : قَالَ اللَهُ عَزّ وَجَلّ : لَا إلَهَ إلّا اللَهُ حِصْنِي ، مَنْ دَخَلَهُ أمِنَ عَذَابِي .

ومقصود الشيخ الحرّ العامليّ من هذا السند كما بيّنه في الصفحة السابقة ، هو «أمالي» الشيخ أبي عليّ الحسن بن محمّد بن الحسن الطوسيّ ، عن الشيخ الطوسيّ ، قال : حدّثنا أبو محمّد الفحّام السُرّمَرّآئيّ ، قال : حدّثنا أبو الحسن محمّد بن أحمد بن عبد الله المنصوريّ ، قال : حدّثنا عمّ أبي موسى بن عيسى بن أحمد بن عيسى المنصوريّ ، قال : كنت مرافقاً للإمام عليّ بن موسى الرضا عليهما السلام . وروى عنه كثيراً . قال عليّ بن موسى ؛ ويذكر سلسلة الرواية حتّى آخرها .

13 . في «الجواهر السنيّة» ص 262 يروي عن أبي علي الحسن بن محمّد بن الحسن الطوسيّ في أماليه ، عن أبيه الشيخ الطوسيّ ، قال : حدّثنا أبو الفتح هلال بن محمّد بن جعفر الحفّار ، قال : حدّثنا عبد الله بن محمّد ابن عيسى الواسطيّ ، قال : حدّثنا محمّد بن معمّر الكوفيّ في واسط ، قال حدّثنا أحمد بن مُعَافَا في قصر صبيح ، قال : حدّثنا عليّ بن موسى ، عن أبيه ، عن جبرئيل ، عن ميكائيل ، عن إسرافيل ، عن اللوح ، عن القلم ، عن الله تعالى قال : وَلَايَةُ عَلِيّ بْنِ أبِي طَالِبٍ حِصْنِي

؛ مَنْ دَخَلَهُ أَمِنَ نَارِي .

هذه مجموعة من الروايات التي ظفرنا بها ؛ وكما يلاحظ طبعاً ، فإنّها ذات مضامين متنوّعة .

جاء في بعضها أنّ كلمة لَا إِلَهَ إِلّا اللَهُ حصن الله ، ومن قالها ، دخل الحصن . وفي بعضها الآخر : لَا إِلَهَ إِلّا اللَهُ نفسها حصن بشروطها والإمام من شروطها ؛ وفي قسم منها : من لقي الله بشهادة لَا إِلَهَ إِلّا اللَهُ مخلصاً ، دخل الحصن . وفي قسم آخر : وَلَايَةُ عَلِيّ بنِ أَبي طَالِبٍ حصن الله ، ومن دخله ، أمن ناره .

بَيدَ أنّنا عندما ندقّق ونتمعّن فيها ، فإنّنا نقتطف منها ثمرة تمثّل الحقيقة التي عرضناها في تضاعيف البحث ، وهي الوصول إلى مقام العرفان والتوحيد الذي لابدّ أن يتحقّق عبر الولاية .

أي : أنّ ما يعصم الإنسان ويصونه هو الوصول إلى مقام التوحيد الذي يعبّر عنه بكلمة لَا إِلَهَ إِلّا اللَهُ ؛ ويتعذّر بلوغ هذا المقام بدون العبور من جسر الولاية التي تمثّل المعنى المرآتيّ لله . وفي ضوء ذلك فإنّ الروايات جميعها تتكفّل بتبيان موضوع واحد ؛ وتهدينا إلى اتّجاه واحد .

ذلك لأنّ قول لَا إِلَهَ إِلّا اللَهُ مقدّمة للوصول إلى لَا إِلَهَ إِلّا اللَهُ . ولا يتمّ هذا الوصول الذي يمثّل حقيقة التوحيد إلّا بالاخلاص ؛ وروايات أَنَا مِنْ شُرُوطِهَا تبيّن الإخلاص ، إذ ينبغي أن يتحقّق لقاء الله بهذا النسق ؛ وإذا اعتبرنا التوحيد بالمعنى المرآتيّ والآيتيّ هو الحجاب الأقرب ، فإنّه هو الولاية نفسها . وهذا هو مؤدّى الرواية القائلة : وَلَايَة عليّ بن أبي طالب حصن ، وهو يفضي إلى الأمن من النار .

فشرط الوصول إلى التوحيد هو العبور من الولاية ؛ ولذلك فإنّ التوحيد والولاية للسالك شيء واحد . والتوحيد عين الولاية ؛ والولاية عين التوحيد .

وهذه هيالحقيقة التي دلّت عليها الروايات وأشارت إليها بعبارات خاصّة في كلّ منها .

وما يماثل هذه الروايات من حيث اختلافها في اللفظ ووحدتها في المفاد والمعنى ، الروايات التي تدلّ على أنّ الإسلام بُني على خمس . فالروايات الشيعيّة تعتبر الولاية أحد هذه الأركان ؛ والروايات المأثورة عن طريق العامّة ترى أنّ ذلك الركن هو التوحيد . وفيما يلي بعض هذه الروايات ، نذكرها هنا ثمّ نتطرّق إلى مؤدّاها .

أمّا عن طريق الشيعة : فقد روي في «الكافي» عن فُضَيل ، عن أبي حمزة ، وفي «المحاسن» عن ابن محبوب ، عن أبي حمزة ، عن الباقر عليه السلام قال :

بُنِيَ الإسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ : عَلَى الصّلَاةِ ، والزّكَاةِ ، وَالصّوْمِ ، والْحَجّ ، وَالْوَلَايَةِ ؛ وَمَا نُودِيَ بِشَيءٍ . وَلَمْ يُنَادِ بِشَيءٍ . كَمَا نُودِيَ بِالْوَلَايَةِ . (21)

وأمّا عن طريق العامّة : فقد روى مسلم في صحيحه بإسناده عن عبد الله بن عمر ، عن أبيه ، قال : قال رسول الله صلّى الله عليه [وآله] وسلّم : بُنِيَ الإسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ : شَهَادَةِ أَنْ لَاإِلَهَ إِلّا اللَهُ ، وَأَنّ مُحَمّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ، وَإِقَامِ الصّلَاةِ ، وَإِيتاءِ الزّكَاةِ ، وَحِجّ الْبَيْتِ ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ . (22)

تفيد هذه الروايات أنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم جعل الإسلام مرتكزاً على هذه الأركان الخمسة التي يمثّل التوحيد أحدها ؛ ولكن لمّا اكتفى العامّة بظاهر الشهادتين ، وجعلوا الإقرار بالنبوّة مجرّداً حتّى لو كان مقروناً بمخالفة النبيّ في أمر الولاية ، فقد جعلوه أساس الإسلام مكتفين بذلك ،

لذلك فإنّ الأئمّة الطاهرين سلام الله عليهم أجمعين فسّروا الروايات المأثورة عن النبيّ صلّى الله عليه وآله على أنّ ما ورد فيها من الإقرار بالتوحيد والنبوّة بدون الإقرار بالولاية ليس إلّا شيء ظاهر ؛ وحقيقة الاعتراف بذلك يستلزم الإقرار بالولاية ؛ والدخول في عالم التوحيد مشروط بالعبور من الولاية . وهذان أمران لا ينفصلان بعضهما عن بعض .

إنّ حقيقة الإسلام ترتكز على الولاية ، التي تمثّل مفتاح التوحيد في مظاهر الأسماء والصفات والأفعال ؛ وتمثّل كذلك باطن النبوّة وجوهرها .

كان ما تقدّم بحثاً حول حقيقة الولاية ، وعدم انفصالها عن توحيد الباري تعالى شأنه .

وقد ضلّ في هذه المسألة طائفتان : الأُولى : هي الطائفة الوَهَابيّة ؛ والثانية : هي الطائفة الشيخيّة .

أمّا الوَهّابيّة ، فإنّهم يرون أنّ صفات الحقّ تعالى من قدرة ، وعظمة ، وعلم ، وإحاطة ، وحياة ، وغيرها من الصفات والأسماء ، منفصلة عن الموجودات ؛ أي : أنّهم يلغون عنوان الوساطة من الوسائط ، والمرآتيّة من مرايا الوجود التي تمثّل مظاهر ومجالي ذات الحقّ ؛ ولذلك فهم لا يرون معنى الظهور والتجلّي في عالم الإمكان .

فيُمْنَون بإشكال لا منجى لهم منه أبداً إلى يوم القيامة حتّى لو فكّروا بذلك ؛ وهذا الإشكال يتمثّل بما يلي :

نحن نشاهد موجودات كثيرة في هذا العالم على سبيل الوجدان والشهود ، ونراها متّصفة بالحياة والعلم والقدرة . ولا شبهة وشكّ في ذلك ؛ فلا نستطيع أن ننكر الموجودات المؤثّرة في هذا العالم .

ونقول الآن : إذا اعتبرنا الحياة والقدرة والعلم في ذات الحقّ الأزليّة بدون هذه الموجودات والكثرات ، فهذا كلام خاطئ وجداناً وشهوداً ، لأنّ وجود هذه الصفات في الموجودات هي من الضروريّات واليقينيّات .

وإذا اعتبرنا هذه الموجودات ذات قدرة مستقلّة وحياة وعلم مستقلّ ، حتّى لو كان ذلك بعطاء من الحقّ ، فإنّ ذلك الاعتبار خاطئ أيضاً ، لأنّ هذا الكلام هو عين الشرك والثنويّة وتعدّد الآلهة ، وإشكالات أُخرى لا تحصى .

إنّ عنوان الإعطاء لا ينسجم مع عنوان الاستقلال ؛ لأنّ مايستلزمه هذا الكلام هو تولّد الموجودات من ذات الحقّ ، وهذا الكلام هو التفويض عينه ، ونحن نعلم أنّ الله لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ .

وفي ضوء ذلك ، فليس أمامنا أيّ حلّ علميّ وفلسفيّ ، إلّا أن نعتبر الكثرات والموجودات في هذا العالم مَظاهر ومَجالي لذات الحقّ القدسيّة ، أي : أنّ القدرة والحياة والعلم تختصّ بذات الحقّ ، وتظهر في هذه الموجودات بالتناسب مع سعتها وضيقها وماهيّتها وهويّتها ؛ أي : أنّ الاستقلال في الوجود منحصر بذات الحقّ القدسيّة ، والاستقلال في الحياة ، والعلم ، والقدرة ، وسائر الأسماء والصفات كلّها تختصّ بذات الحقّ ، وهي تبعيّة وعرضيّة في غير ذاته ؛ وأصيلة في ذاته ، ومرآتيّة وآيتيّة في الموجودات .

ومن الطبيعيّ أنّها تظهر أكثر في الأرواح المجرّدة ، والنفوس القدسيّة لملائكة الملأ الأعلى ، والنفوس الناطقة المطهّرة للأنبياء ، والأئمّة عليهم السلام ، وفي المهديّ قائم آل محمّد ، إذ إنّ استيعاب هؤلاء أكثر ، وتعبّر هذه المرايا عن ذات الحقّ وصفاته المقدّسة بصورة تامّة .

ومن هذا المنطلق ، فإنّ القدرة ، والعلم ، والحياة ، في الوقت الذي تختصّ فيه بذات الحقّ ، فإنّ ظهورها في هذه المرايا لا يُنكر شهوداً ، ولازم وثابت عقلاً .

إنّ الظهور والظاهر ، والحضور والحاضر شيء واحد ؛ والمعنى الحرفيّ مندكّ في المعنى الاسميّ .

والموجودات جميعها بدون استثناء آيات وعلامات ومعاني حرفيّة بالنسبة إلى ذات الحقّ المتعال ؛ وتصوّر معنى الاستقلال للمعنى الحرفيّ لا يعقل ، ويفضي إلى الخُلف في القياس البرهانيّ .

إنّ المعنى الحرفيّ ، والمعنى الاسميّ ليسا شيئين مستقلّين ؛ فالمعنى الحرفيّ يدلّ على كيفيّة المعنى الاسميّ وخصوصيّته .

إنّ التوسّل بالنبيّ الأكرم ، والأئمّة المعصومين لقضاء الحاجة هو نفس التوسّل بالله لقضائها ، وهذا هوالتوحيد عينه .

وقد ثبت في الفلسفة المتعالية والحكمة الإسلاميّة وجود الوَحْدة في الكَثْرة ، والكَثرة في الوَحْدَة لذات الحقّ . وكما أنّ لله تبارك وتعالى اسم الأحَديّة ، إذ إنّه مُبرأً من جميع الأسماء والتعيّنات ، ومُنزّه من كلّ اسم ورسم ، وإنّ تلك الأحديّة تدلّ على الذات البسيطة الصرفة والمجرّدة العارية من كلّ التعلّقات ، والمنطبقة عليها المفهومات ، فكذلك له اسم الوَاحِديّةِ الملاحَظ بملاحظة ظهوره وطلوعه في عالم الأسماء والصفات الكلّيّة والجزئيّة ، وظهور جميع العوالم سواء من المُلْكِ أو من المَلَكُوت .

يقول الوَهّابيّة : خلق الله العوالم بلا واسطة ؛ وليس للموجودات العِلْويّة ، والملائكة ، والأرواح القدسيّة المجرّدة أيّ تأثير في الخلق ؛ ولا تتّخذ طابع الوساطة ؛ لذلك فإنّ الاستغاثة بروح رسول الله ، والأئمّة ، والملائكة بما فيهم الملائكة المقرّبون . شرك .

ونجيب : أليس الاستغاثة بالأرواح الحيّة ، مثل النبيّ الحيّ ، والإمام الحيّ شركاً ؟ أليس الاستغاثة بالعالم ، والطبيب ، والمتخصّص ، والفلّاح ، والصانع شركاً ؟

فإذا كانت شركاً ، لماذا تستغيثون ؟! اتركوا كلّ استغاثة في عالم الطبع ، وفي الحياة الدنيا ، لتموتوا كلّكم بعد لحظات ، وتعودوا إلى ديار العدم حيث موطنكم الأصليّ !

وإن لم تكن شركاً ؛ فما الفرق بين الاستغاثة بالنبيّ الحيّ ، أو بروحه بعد الموت ! أو الاستغاثة بالطبيب الجرّاح لاستئصال الزائدة الدوديّة مثلاً ! أو الاستغاثة بجبرئيل ! وما الفرق بين تلك الاستغاثة وهذه !

هم يقولون : تلك الاستغاثة شرك ؛ وهذه ليست شركاً ! لأنّ أرواح أُولئك لا تُرى ، ولا تتقولب في قالب حسّيّ ؛ وخلاصة الكلام أنّ الاستغاثة بالأسباب الطبيعيّة والمادّيّة بعيدة عن الشرك ؛ بَيدَ أنّ الاستغاثة بالأُمور المعنويّة والروحانيّة شرك . إنّه لشيء عجاب أن لا نعتبر الاستغاثة بالمادّة القذرة ليست شركاً ، ونعتبر الاستغاثة بالنفوس العالية القدسيّة المجرّدة شرك !

ونجيب : أنّ القاعدة العَقْليّة لا تقبل الاستثناء ؛ ولو كانت الاستغاثة بغير الله شركاً ، فالشرك قائم في كلّ شيء ؛ والخطأ موجود في كلّ شيء . إذَن ، كيف تريدون إثبات التوحيد للحقّ بالدليل العقليّ ، وأنتم تستثنون في الأُمور الماديّة والطبيعيّة ؟!

أليس هذا مضحكاً ؟ أو هو مبكٍ على مسكنتكم وإفلاسكم وخلّو ذات يدكم من علم الحقّ وعرفانه ؟!

يقولون : الطواف حول قبر المعصوم شرك ؛ وتقبيل ضريحه المطهّر شرك ؛ وتقبيل أعتابه شرك ؛ والسجود على تربة سيّد الشهداء عليه السلام شرك ؛ والتوسّل بالأئمّة والصدّيقة الطاهرة فاطمة الزهراء لقضاء الحوائج شرك .

ونجيب : لماذا تعدّ هذه الأشياء شركاً ؟ ما الفرق بين تقبيل الحَجَر الأسْوَد وتقبيل الضريح ؟ وما الفرق بين البيت الذي بناه إبراهيم الخليل عليه السلام باسم الكعبة ، وبين المرقد المطهّر للآية الإلهيّة الكبرى وصاحب مقام أوْ أَدنَى ، وصاحب الشفاعة الكبرى ، وحامل لواء الحمد ؟ لماذا يجوز الطواف هناك ، ولا يجوز هنا مع أنّ له ميزاته من حيث الأهميّة ؟ (23)

لماذا يجوز السجود على الأرض وعلى كلّ شيء غيرها ، ولا يجوز على التربة المطهّرة للشهيد الحقيقيّ الأوحد للدين والحقّ أبي عبد الله الحسين ؟ وإذا كان السجود على شيء شركاً ، فَلِمَ يجوز على الفراش ، والسجّاد ، والأرض ، والحصير ؟ ولكنّه حرام هنا على وجه الخصوص ! يمثّل التوحيد هناك ، والشرك هنا ؟!

إنّ استغاثتكم بكلّ حيّ هي استغاثتكم بروحه لا بجسمه ،فَلِمَ لا تعتبر الاستغاثة بالنفوس الخبيثة الكافرة في الدنيا شركاً ، بينما تعتبر شركاً إذا كانت بروح الصدّيقة الطاهرة ؟

هذه أسئلة لا يقدرون على جوابها ، ولم ولن يقدروا على ذلك .

والجواب هو : إذا كان لهذه الأشياء طابع الاستقلال ، فكلّها شرك ؛ سواء كانت طوافاً حول بيت الله ، أو تقبيلاً للحجر الأسود ؛ أو سجوداً على الفراش والأرض العاديّة ؛ أو توسيطاً للطبيب والجرّاح والعالم الأخصّائيّ وإذا لم يكن لها طابع الاستقلال ، فليست شركاً ؛ بل هي التوحيد نفسه .

أليس النظر إلى الموجودات في هذا العالم نظراً مستقلاً شركاً ؟ إنّه الشرك عينه ، فالوهّابيّة . عبر هذا التنزيه والتقديس الذي يريدونه لذات الحقّ . وقعوا في فخّ الشرك من حيث لا يعلمون ؛ وأصبحوا مِن مَنْ يَعْبُدُ اللّهَ عَلَى حَرْفٍ . (24)

إنّ النظر إلى الآيات الإلهيّة من حيث الآيتيّة هو النظر ذاته إلى التوحيد ؛ وتقبيل الإمام من حيث الإمامة هو الاحترام ذاته لله ؛ وعرض الحاجة على الأرواح المقدّسة من حيث معنويّتها وروحانيّتها وقُربها إلى الله هو نفس عرض الحاجة على الله ، وهو عين التوحيد ؛ وحبّ أحبّاء الله هو حبّ الله نفسه .

هذا من منظار الدليل العقليّ ، وأمّا من منظار الدليل النقليّ ، فنقول : إنّ الآيات والروايات جميعها زاخرة بالمفاهيم السليمة من قبيل : الموجودات وسائط في الوجود والإيجاد ، والخلق يتحقّق بالسببيّة ، وإلغاء الواسطة في عالم التكوين . مضافاً إلى ذلك ، فإنّ إنكار الأمر الوجدانيّ هو إنكار للمأثورات الشرعيّة من الكتاب والسنّة .

ألسنا نقرأ في القرآن الكريم قوله تعالى : فَالْمُدَبّر تِ أَمْرًا (الآية 5 من السورة 79 : النازعات) ، وقوله :

وَأَرْسَلْنَا الرّيَحَ لَو قِحَ (الآية 22 ، من السورة 15 : الحجر . وقوله :

وَاللّهُ الّذِى أَرْسَلَ الرّيَحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَهُ إِلَى بَلَدٍ مّيّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَ لِكَ النّشُورُ . (الآية 9 ، من السورة 35 : فاطر) وقوله :

وَهُوَ الّذِى أَنْزَلَ مِنَ السّمَآءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلّ شَيْءٍ (الآية 99 ، من السورة 6 : الأنعام) .

حيث نرى في هذه الآيات أنّ الملائكة تدبّر الأمر ؛ وأنّ الرياح تثير السحاب ، وأنّها لواقح ، تلقّح الأشجار فتثمر ؛ وأنّ نبات كلّ شيء يخرج بواسطة الماء المنزل من السماء . وكذلك الأمر في آيات أُخرى كثيرة تصرّح أنّ المكوّنات في الوجود تتكوّن من هذه الأسباب .

إذَنْ ، كيف يتسنّى لنا أن ننفي السببيّة ، وهذه الآيات تثبتها بصراحة ؟

أجل ، ينبغي أن نقول : إنّ هذه الأسباب كلّها مقهورة ومأمورة لله تأتمر بأمره ، ولا تستقلّ بشيء دونه ؛ ونقول في هذه الأسباب ، وغيرها من الأسباب المادّيّة والمعنويّة الأُخرى : إنّها لا تستقلّ بنفسها ؛ بل هي تمثّل الشفعاء والوسائط للأخذ من الله والإفاضة على العوالم .

يقولون : إنّ الاستغاثة بأرواح الأنبياء والأئمّة هي استغاثة بالموتى ، وهذا لون من التوجّه والنزوع إلى الموتى ؛ ويمثّل ظاهرة صنميّة إذ يطلب الإنسان من الميّت شيئاً بلا أثر محسوس ، ويجعله شفيعاً إلى الله ؛ وما هو الفرق بين طلب الحاجة من الصنم ، وبين طلبها من موجود بلا أثر ؟

ونجيب : أنّ الآيات القرآنيّة والبراهين العقليّة تنصّ على أنّ روح الإنسان لا تموت بموته ، بل هي حيّة . وبناءً على تجرّد النفس ، فهي لا يمكن أن تكون معدوماً بحتاً ؛ والموت هو عبارة عن انتقال من الدنيا إلى الآخرة . ثمّ ألَمْ نقرأ في القرآن الكريم أنّ الشهداء أحياء عند ربّهم يُرزقون !

وَلَا تَحْسَبَنّ الّذِينَ قُتِلُوا فِى سَبِيلِ اللّهِ أَمْوَ تًا بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبّهِمْ يُرْزَقُونَ . (الآية 169 ، من السورة 3 : آل عمران) .

يقولون : هذه الآية تخصّ الشهداء ؛ شهداء غزوة أُحُد مثل : حَمْزَة وغيره .

ونقول : ألم يكن حَمْزَةُ وغيره من الشهداء تحت نبوّة رسول الله ؟ وهل أنّ مقام حمزة أعلى من مقام رسول الله ، فيكون حيّاً ، ورسول الله ميّتاً ؟!

لا ، ليس كذلك ، فرسول الله هو الشهيد على الشُهَداء ، والموكّل على أرواح الأنبياء . ونحن نسلّم عليه في صلواتنا جميعها قائلين : اَلسّلَامُ عَلَيْكَ أَيّهَا النّبِيّ وَرَحْمَةُ اللّهِ وَبَرَكَاتُهُ . وهل يكون المخاطب إلّا حيّاً سامعاً كلامنا ؟

أتذكّر جيّداً أنّي تشرّفت بالذهاب إلى بيت الله الحرام للمرّة الثانية سنة 1390 هجرية ، ومعي اثنان من أبنائي لأداء مناسك الحجّ . وفي صباح ذات يوم جلسنا في زاوية من المسجد الحرام بعد القيام بالطواف المستحبّ لعدّة مرّات ؛ وذلك للزيارة ، والنظر إلى البيت ، ومراقبة كيفيّة طواف الناس .

وبينما نحن كذلك فإذا أحد علماء السنّة أقبل علينا وعانقنا ، وجلس إلى جانبنا ؛ وقدّم لنا نفسه على

أنّه من مدينة حَلَب في سوريا ، واسمه عُمَرْ عادِل مَلَا حِفْجي ، ثمّ تجاذبنا معه أطراف الحديث .

وكان التعرّف عليه مناسبة أفضت إلى مجيء عالم آخر من علماء العامّة ، كان يقول : إنّه من أئمّة الجماعة في المدينة ؛ سلّم وجلس أمامي ؛ تلا ذلك مجيء جماعة كثيرة من أهل السنّة تدريجاً ، كلّهم جلسوا إلى جنبنا ، فتشكّل من الجمع مجلس تقريباً .

عند ذلك سألت عن مُتعة الحجّ فقالوا : لا نتمتّع ما لم نحجّ .

قلتُ : نحن نعلم أنّ رسول الله أعلن للناس في حِجّة الوَداع من على الصفا أنّ الحجّ قد صار حجّ التمتّع من الآن حتّى يوم القيامة لمن كانت بيوتهم بعيدة عن المسجد الحرام . أي : عندما يحرمون من الميقات ، فإنّهم ينوون حجّ العُمْرَة ، ويُحِلّون بعد دخولهم مكّة وأداء مناسك العمرة ؛ ولهم عند ذلك التمتّع بالنساء ؛ ثمّ يبقون في مكّة إلى أن يُحرموا منها لأداء مناسك الحجّ والوقوف في عرفات والمشعر .

واعترضوا على النبيّ أنّهم جاؤوا لأداء مناسك الحجّ وشبابهم معرّسون تحت شجر الأراك ورؤوسهم تقطر من غسل الجنابة !

فقال رسول الله : ما قلته من تلقاء نفسي ، إنّما هو حُكم أتى به جبرئيل الآن ! ثمّ شَبَّكَ أَصَابِعَهُ ، وقال : دخلت العمرةُ في الحجّ إلى يوم القيامة .

فمن جاء من مكان بعيد ، فعليه أداء الحجّ والعمرة معاً ، ويحلّ بينهما ؛ هذا هو حكم الله !

قالوا : نعم ، هو كذلك ولكنّ عمر غيّر ذلك لمصلحة ؛ أي : رفع المتعة ؛ وأمر قائلاً بأنّ كلّ من أحرم من الميقات ، فبنيّة الحجّ ؛ ولا يجوز له التمتّع بالنساء حتّى آخر منسك من مناسك الحجّ .

قلتُ : دعونا من قولكم إنّ عُمَر قام بهذا العمل لمصلحة رآها ، ولا نخوض في هذا البحث ؛ بَيدَ أنّي أقول : هل أنّ عمل عُمَر حُجّة ؟ وهل يجب علينا اتّباعه حتّى يوم القيامة ؟!

لم يكن عُمَر نبيّاً ؛ ولم ينزل عليه الوحي . فكيف يسوغ لنا أن نُعرض عن كلام رسول الله ، وهو وحيٌ من الله يُوحى يأتيه به جبرئيل ، ونأخذ بكلام عمر ؟!

إنّ عمر قال للناس كلاماً في عصره ؛ فماذا يعنينا نحن منه ؟!

وهل أنّ كلام عمر مقدّم على كلام رسول الله ، وجبرئيل ، وآيات القرآن ؟! وهل يشترك عمر مع رسول الله في حُجّيّة الكلام ، حتّى إذا تعارض كلامهما ، فإنّا قدّمنا كلام عمر عليه مثلاً ؟ أو أنّ كلامه ينسخ كلام الرسول ؟ وبالتالي ، ما لم يتحقّق أحد هذه الأُمور ، ولم يثبت ؛ فليس لنا أن نعرض عن حجّيّة كلام رسول الله من وحي تفكيرنا الخاصّ وأذواقنا النفسيّة !

وهنا آثر العالمان السنّيّان الصمت ؛ ولم يجيبا بشيء ؛ وخيّم الوجوم على المجلس برهة . فالتفتّ إلى الشيخ عُمَر عَادِل ، وهو ـ كما قلت ـ من أهل حَلَب ، وكان وسيماً للغاية . واستبان أنّه وافقني على ما قلت . التفتّ إليه وقلتُ : لماذا لا تقولون لهؤلاء أن يكفّوا عن إيذاء الزوّار ؟!

لقد وزّعوا أفراد الشرطة حول قبر رسول الله ، وليس لأحد أن يقبّل القبر المطهّر ، فأيّ عمل هذا ؟ يفد الحجّاج من شتّى بقاع المعمورة مشتاقين لزيارة قبر نبيّهم ، ولعلّهم لا يفلحون بالمجيء إلّا مرّة واحدة في حياتهم فهم يريدون التعبير عن حبّهم لنبيّهم من خلال تقبيل قبره المقدّس ، ولأنّهم قد حرموا لقاء

رسول الله فإنّهم يقبّلون الباب ، والضريح ، وهم يبكون في عواطف جيّاشة فيّاضة تملأ الرحب .

وإذا ما حاولوا التقبيل ؛ فإنّ أسواط الشرطة تنهال على رؤوسهم بغتةً أن : لا تقبّل يا مشرك ! هذا الضريح من حديد ! الحديد لا يقبّل ! تقبيل الحديد شرك ؛ ويؤيّد الآمرون بالمعروف هذه التخرّصات أيضاً ويقولون : هذه الأعمال شرك .

يقف الحجّاج المساكين إلى ناحية حائرين مدهوشين ، وهم في حالة يرثى لها كالخشبة اليابسة ؛ ويتحدّثون مع أنفسهم : أيّ خطب هذا ؟! أيّ شرك هذا ؟!

أُناشدكم بصاحب هذا البيت ، هل يقبّل الحجّاج الحديد والفولاذ أو يقبّلون جسم رسول الله ، أو نفس رسول الله ؟! هل يقبّلون الحديد والخشب ، أو يقبّلون النفس المقدّسة للصدّيقة الطاهرة ؟ ألا يخطر ببالكم أن تقبّلوا يد أبيكم أو أُمّكم أو أُستاذكم أو معلّمكم أو مربيّكم من العلماء ؟ هل تحترمون روحه ، أو تحترمونه كقطعة من لحم فقط ؟!

ألم تقرأوا شعر قَيْسِ بنِ المُلَوّحِ العامِرِيّ ، إذ قال في معشوقته لَيْلى العامِرِيّة :

أَمُرّ عَلَى جِدَارِ دِيَارِ لَيْلَى

أُقَبّلُ ذَا الدّيَارَ وَذَا الْجِدَارَا

وَمَا حُبّ الدّيارِ شَغَفْنَ قَلْبِي

وَلَكِنْ حُبّ مَنْ سَكَنَ الدّيارَا

فالتفت إليّ الشيخ عُمَر عَادِل في تلك الحال ، وكان في قمّة الغضب والامتعاض : وقال لي : يا سَيّدُ ! وَاللهِ هُمْ مُشْرِكُونَ ؛ هُمْ مُشْرِكُونَ . يقصد الوهّابيّين ، ثمّ أردف قائلاً :

بعد فراغي من صلاة الصبح والطواف هذا اليوم رأيت جماعة من الإيرانيّين واقفين ، ومعهم شخص كان يقرؤهم الدعاء ، وهم يردّدون معه .

كان يقول في دعائه : إِلَهِي بِحَقّ فَاطِمَةَ وَأَبِيهَا وَبَعْلِهَا وَبَنِيهَا وَالسّرّ الْمُسْتَوْدَعِ فِيهَا كَذَا وَكَذَا .

فمرّ عليهم إمام جماعة هذا المسجد ، أعني : المسجد الحرام ، وصاح بهم : هذا شرك ! لا تقولوا هكذا ! إنّ طلب شيء من فاطمة شرك !

فامتعضت من كلامه للغاية ، وتقدّمت إليه قائلاً : إِخْسَأْ ! إِخْسَأْ ! ثمّ قلت له : عندي سؤال (قسماً بالله وبهذا البيت ، ما رأيت هذا السؤال من قبل في كتاب قطّ ، ولم يخطر ببالي فيما مضى ؛ بل كأنّه أُلقي في روعي تلك اللحظة أن أقوله) وسؤالي هو : هل تعلم أنّ إخوة يوسف أتوا بقميصه من مصر ، وألقوه على وجه أبيهم يعقوب في كَنْعان فارتدّ بصيراً ؟ وقال جلّ من قائل : فَلَمّآ أَنْ جَآءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدّ بَصِيرًا . (الآية 96 ، من السورة 12 : يوسف) .

فقال إمام المسجد : نعم ، أعلم هذا !

قلتُ : ممّ كان ذلك القميص ؟!

قال : من القطن أو من الكتّان !

قلتُ : وهل للقطن أو الكتّان هذا الأثر القويّ الذي يعيد البصر إلى عين يعقوب ، وليس لفاطمة الزهراء التي سمّاها النبيّ : سيّدة نساء العالمين . هذا الأثر إذ تكون شفيعة عند الله ، وتقضي حوائج

المؤمنين ؟!

ثمّ قال : يَا سَيّد ! وَاللَهِ خَسَاً خَسَاً .

وقال : نحن السنّة كلّنا بُرَاء من الوهّابيّين ! لقد ابتدعوا مذهباً خاصّاً ، وهو مذهب جامد متزمّت لا محتوى له . نحن أيضاً جئنا من مكان بعيد متلهّفين لتقبيل قبر رسول الله ، وهؤلاء يحولون بيننا وبين ذلك !

وبعد ذلك ، دعانا إلى حَلَب ، لنذهب إلى هناك وننزل ضيوفاً عنده . وكان يقول : نحن نحبّ أهل البيت حبّاً جمّاً ؛ ونساؤنا يعتقدن أنّ أعمالهنّ لا تقبل ما لم يرين فاطمة الزهراء في المنام . وعلى وجه الخصوص كان يقول : «تعال . وانظر ماذا تفعل نساؤنا ! ثمّ تحدّث عنهنّ ! وأنا عندي أخوات ملأ حبّ أهل البيت قلوبهنّ» .

ومن المفاسد المهمّة الأُخرى للمذهب الوهّابيّ قولهم بالتجسيم ؛ ذلك لأنّهم يرون أن لا نتجاوز ظواهر القرآن ؛ وأنّ المعنى الظاهريّ هو المعنى الاعتيادي والمتعارف الذي يتداوله الناس ؛ ولذلك فإنّ الآيات القرآنيّة التي تنسب اليد ، والعين ، والجَنْب ، والوَجْه ، وغير هذه الأشياء إلى الله ، فالمقصود هو هذه المعاني الظاهريّة المتعارفة . وما يلزم هذا المعنى هو تجسيم الله سبحانه وتعالى .

فهم يقولون : إنّ الآيات القرآنيّة كقوله تعالى : يَدُ اللَهِ فَوْقَ ايْدِيهِمْ (الآية 10 ، من السورة 48 : الفتح) .

وقوله : وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا . (الآية 37 ، من السورة 11 : هود) .

وقوله : وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِى . (الآية 39 ، من السورة 20 : طه) .

وقوله : وَلَوْ تَرَى إذْ وُقِفُوا عَلَى رَبِّهِمْ . (الآية 30 ، من السورة 6 : الأنعام) .

وقوله : يَحَسْرَتَى عَلَى مَا فَرّطتُ فِى جَنْبِ اللَهِ . (الآية 56 ، من السورة 39 : الزمر) .

وقوله : كُلّ شَىْءٍ هَالِكٌ إلّا وَجْهَهُ . (الآية 88 ، من السورة 28 : القصص) .

وقوله : فَأَيْنَمَا تُوَلّوا فَثَمّ وَجْهُ اللَهِ . (الآية 115 ، من السورة 2: البقرة) .

وقوله : الرّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى . (الآية 5 ، من السورة 20 : طه) .

وقوله : يَخَافُونَ رَبّهُم مّن فَوْقِهِمْ . (الآية 50 ، من السورة 16 : النحل) .

وقوله : وَجَآءَ رَبّكَ . (الآية 22 ، من السورة 89 : الفجر) .

وقوله : اللَهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ . (الآية 15 ، من السورة 2 : البقرة) .

وقوله : غَضِبَ اللَهُ عَلَيْهِ . (الآية 93 ، من السورة 4 : النساء) .

وقوله : إلّا مَن رّحِمَ اللَهُ . (الآية 42 ، من السورة 44 : الدخان) .

وأمثالها من الآيات الأُخرى المبثوثة في القرآن المجيد ؛ كلّها لها معنى ظاهريّ ؛ فلله يد ، وجنب ، وعين ؛ وهو جالس على العرش ؛ ويغضب ؛ ويرحم ؛ ويسهزئ» .

هذه هي عقائد الوهّابيّين ؛ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمّا يَقُولُونَ عُلُوّاً كَبِيراً .

والسبّاق إلى هذه الأباطيل والعقائد الكافرة هو ابن تيميّة الحَرّانيّ الشاميّ ؛ وكان من أتباع أحمد بن حنبل . ولم يقرّ له قرار في عناده وعدائه لأهل البيت ولا سيّما لأمير المؤمنين عليه السلام . وهو ينكر الضروريّات والمسلّمات واليقينيّات في كتابه «منهاج السنّة» الذي ألّفه للردّ على براهين وأدلّة مفخرة الإماميّة : العلّامة الحلّيّ . يرفض فيه كلّ حديث ورد في فضائل أمير المؤمنين وأهل البيت ؛ ويعتبره كذباً وباطلاً : أو مرسلاً أو ضعيفا أو مجعولاً ، مهما كان في غاية الإتقان والصحّة ، ومهما كان مستفيضاً ومتواتراً ، وحتّى لو رواه الكبار من حفّاظ أهل السنّة ومشايخهم ورواتهم بطرق عديدة ، ونصّوا على صحّة متنه وأسناده ورجاله . لقد كان هذا الرجل حسّاساً إلى درجة لو ورد ذكر لمولى الموحدّين عليّ بن أبي طالب في حديث ، فإنّه يرميه بالجعل والاختلاق ، ويفتري على الشيعة ؛ وحتّى لو كان راوي ذلك الحديث من مشايخ «الصحاح الستّة» للعامّة . فإنّ روايته ضعيفة عند ابن تيميّة بسبب ذكر هذا الحديث لا غير ؛ وبصورة عامّة ، فإنّ الملاك عنده في صحّة الحديث وعدم صحته هو التشيّع ونقل فضائل عليّ بن أبي طالب ؛ ثمّ إنّه يتحيّز بكلّ صراحة لسلاطين الأمويّين وملوكهم ، وحتّى لمعاوية ويزيد ، وكذلك يتحيّز لسلاطين العبّاسيّين .

إنّ ظلامة أهل البيت . لا تتمثّل في التشريد ، والسجن ، والتعذيب ، والقتل ، والصلب ، والحرق ، والنهب فحسب ، بل تتمثّل أيضاً في إخفاء فضائلهم ، وإلصاقها بأعدائهم . وهذه من أخطر المؤامرات المكشوفة والخفيّة لقمعهم واستئصال شأفتهم ، ومحو اسمهم وذكرهم من الوجود ؛ فأمثال هذا الرجل الشاميّ ذي النزعة الأمويّة الرافع لواء التأييد والدعم للسياسة السيّئة التي كان يتّبعها سلاطين الجور ، من أمثال معاوية ومن حذا حذوه ، كان لهم باع طويل في هذه المؤامرات . بَيدَ أنّهم لم يقطفوا من وراء ذلك ثمرة على الرغم من كلّ ما قاموا به من أعمال دنيئة . إذ إنّ فضائل عليّ بن أبي طالب قد ملأت الآفاق . واعترف بها الصديق والعدوّ والقريب والبعيد بما فيهم اليهود والنصارى والمادّيّون ، فقد أذعنوا كلّهم لعظمة ذلك الرجل العملاق وشخصيّته وأصالته وحقيقته ، خضعوا بأجمعهم أمام عظمة ذلك الإمام المظلوم ، وجعلوا لحبّه مكاناً في أعماق قلوبهم . ومن بين هؤلاء : وامق النصرانيّ وهو : بقراط بن أشوط ، من أهل أرمينيّة ، ومن الأمراء العسكريّين المهمّين في عصر المتوكلّ . نظم قصيدة عصماء في فضائل أمير المؤمنين عليّ ومحامده ، ذكر ابن شهرآشوب شيئاً منها في «المناقب» الطبعة الحجريّة ص 286 و. 532 وكذلك نظم عبد المسيح الأنطاكيّ قصيدته العلويّة التي تربو على 5595 بيتاً ، ونظم بولس سلامة قاضي النصارى في بيروت قصيدته المسمّاة : عيد الغدير في فضائل عليّ بن أبي طالب ومناقبه ، وقد بلغت أكثر من 3085 بيتاً ، دافع فيها عن حقّ الإمام . ولأحد شعراء النصارى ، وهو زينبا بن إسحاق الرسعني الموصليّ ، قصيدة تستحقّ التأمّل ، يقول فيها :

عَدِيّ وَتَيْمٌ لَا أُحَاوِلُ ذِكْرَهَا
بِسُوءٍ وَلَكِنّي مُحِبّ لِهَاشِمَ
وَمَا تَعْتَرِيني في عَلِيّ وَرَهْطِهِ
إذا ذُكِرُوا فِي اللهِ لَوْمَةُ لَائِمِ

يَقُولُونَ مَا بَالُ النّصَارَى تُحِبّهُمْ
وَأَهْلُ النّهَى مِنْ أَعْرُبٍ وَأَعَاجِمِ
فَقُلْتُ لَهُمْ إنّي لَأَحْسِبُ حُبّهُمْ
سَرَى فَي قُلُوبِ الْخَلْقِ حَتّى الْبَهائِمِ (25)

إنّ الكبار من العامّة قد رفضوا ابن تيميّة ، ودحضوا حجّته ، وأفتوا بضلاله وكفره . ويقولون : إنّه يعترف بتجسيم الله صراحة . وفيما يلي نصّ كلام الحافظ ابن حَجَر في كتابه المسمّى : «الفتاوى الحديثة» ص 86 :

ابن تيميّة عبدٌ خَذَله الله وأضَلّه وأعْماه وأصَمّه وأذَلّه ، وبذلك صَرّح الأئمّة الّذين بيّنوا فَسادّ أحواله ، وكِذْبَ أقواله ؛ وَمَن أَراد ذلك فعليه بمطالعة كلام الإمام المجتهد المتّفق على إمامته وجلالته وبلوغه ومرتبة الاجتهاد أبي الحسن السبكيّ وَوَلَدِهِ التاج والشيخ الإمام العزّ بن جَمَاعَة وأهل عصرهم وغيرهم من الشّافعيّة والمالكيّة والحنفيّة ؛ ولم يقصر اعتراضه على متأخّري الصّوفيّه بل اعترض على مثل عمر بن الخطّاب وعليّ بن أبي طالب رضى الله عنهما .

والحاصل أنّه لا يقام لكلامه وزنٌ بل يُرمى فى كلّ وَعْرٍ وحَزْنٍ ، ويُعتقد فيه أنّه مبتدع ضالّ مضلّ غالٍ ؛ عامله الله بعدله وأجارنا من مثل طريقته وعقيدته وفعله ، آمين (إلى أن قال) إنّه قائل بالجهة وله فى إثباتها جزءٌ ؛ ويلزم أهل هذا المذهب الجسميّة والمحاذاة والاستقرار ؛ أي فلعلّه في بعض الأحيان كان يصرّح بتلك اللّوازم فنسبت إليه ؛ سيّما وممّن نسب إليه ذلك من أئمّة الإسلام المتّفق على جلالته وإمامته وديانته وأنّه الثّقة العدل المرتضى المحقّق المدقّق ؛ فلا يقول شيئاً إلّا عن تثبّتٍ وتحقّق ومزيد احتياط وتحرّ سيّما إن نسبت إلى مسلم ما يقتضى كفره وردتّه وضلاله وإهدار دمه ؛ الكلام . (26)

يقول العالم الجليل آية الله السيّد محسن الأمين العامليّ : إنّ الوهّابيّة ومؤسّس دعوتهم مُحَمّد بن عبد الوَهّاب ، وباذر بذورها أحْمد ابن تيميّة ، وتلميذه ابن القَيّمِ الْجَوْزيّ ، وأتباعهم ادّعوا أنّهم موحدّون ، وأنّهم باعتقاداتهم التي خالفوا بها المسلمين حموا جناب التوحيد عن أن يتطرّق إليه شيء من الشرك . وادّعى الوهّابيّون أنّهم هم الموحّدون وغيرهم من جميع المسلمين مشركون .

ولكنّ الحقيقة أنّ ابْنَ تَيْميّة ، وابْنَ عَبْدِ الْوَهّابْ وأتباعهما قد أباحوا حمى التوحيد ؛ وهتكوا ستوره ، وخرقوا حجابه ؛ ونسبوا إلى الله تعالى ما لا يليق بقدس جلاله ، تقدّس وَتَعَالَى عَمّا يَقُولُ الظّالِمُونَ عُلُوّاً كَبِيراً .

فأثبتوا لله تعالى من جهة الفوق والاستواء على العرش الذي هو فوق السماوات والأرض ؛ والنزول إلى سماء الدنيا ، وا لمجيء ، وا لقرب ، وغير ذلك بمعانيها الحقيقيّة .

وأثبتوا له تعالى الوجه ، واليدين : اليد اليمنى ، واليد الشمال والأصابع ، والكفّ ، والعينين ، كلّها بمعانيها الحقيقيّة من دون تأويل معانيها وهو تجسيم صريح .

وحملوا ألفاظ الصفات على معانيها الحقيقيّة ، فأثبتوا لله تعالى المحبّة ، والرحمة ، والرضا ، والغضب ، وغير ذلك بمعانيها الحقيقيّة من غير تأويل ، وأنّه تعالى يتكلّم بحرف ، وصوت ، فجعلوا

الله تعالى محلاًّ للحوادث ، وهو يستلزم الحدوث .

أمّا ابْنُ تيْميّة فقال بالجهة ، والتجسيم والاستواء على العرش حقيقة والتكّلم بحرف وصوت .

وهو أوّل من زقا بهذا القول ، وصنّف فيه رسائل مستقلّة ، مثل رسالة «العقيدة الحَمَويّة» ، ورسالة «العقيدة الوَاسِطِيّة» ، وغيرهما . واقتفاه في ذلك تلميذاه : ابْنُ الْقَيّمِ الْجَوْزِيّ ، وابْنُ عَبْدِ الْهَادِي ، وأتباعهم .

ولذلك حكم علماء عصره بضلاله وكفره ؛ وألزموا السلطان بقتله ، أو حبسه ؛ فأُخذ إلى مصر ، ونوظر فحكموا بحبسه ، فحبس . وذهبت نفسه محبوساً بعدما أظهر التوبة ثمّ نكث . ونحن ننقل ماحكوه عنه في ذلك وما قالوه في حقّه ، لتعلم ما هي قيمة ابن تيميّة عند العلماء :

قال أَحْمَدُ بْنُ حَجَرِ الْهَيْتَمِيّ الْمَكّيّ الشّافِعِيّ صاحب كتاب «الصَواعِقُ الْمُحْرِقة» في كتابه «الْجَوْهَرُ الْمُنَظّمُ فِي زِيَارَةِ الْقَبْرِ الْمُكَرّمِ» : إنّ ابن تيميّة تجاوز إلى الجناب المقدّس ؛ وخرق سياج عظمته بما أظهره للعامّة على المنابر من دعوى الجهة والتجسيم ، إلخ .

وقال ابْنُ حَجَر أيضاً في كتاب «الدّرَرُ الْكَامِنَة» على ما حكي: إنّ الناس افترقت في ابن تيميّة ، فمنهم من نسبه إلى التجسيم لما ذكره في «العقيدة الحمويّة» ، و«العقيدة الواسطيّة» وغيرهما . من ذلك بقوله : إنّ اليد والقدم والساق والوجه صفات حقيقيّة لله ، وإنّه مستو على العرش بذاته . فقيل له : يلزم بذلك التحيّز والانقسام . فقال : أنا لا أسلم أنّ التحيّز والانقسام من خواصّ الأجسام . فأُلزم بأنّه يقول بالتحيّز في ذات الله .

ومنهم من ينسبه إلى الزندقة لقوله : إنّ النّبِيّ لَا يُسْتَغَاثُ بِهِ وانّ في ذلك تنقيصاً ومنعاً من تعظيم رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم .

وكان أشدّ الناس عليه في ذلك النّورُ البكْرِيّ ؛ فإنّه لمّا عقد له المجلس لمحاكمته بسبب ذلك ، قال بعض الحاضرين : يعزّر . فقال البكريّ : لا معنى لهذا القول ، فإنّه حاول الخلافة مراراً فلم ينلها ؛ وإنّما قاتل للرئاسة ، لا للديانة ؛ وإنّه كان يحبّ الرئاسة ، وأنّ عثمان كان يحبّ المال .

ولقوله : أبو بكر أسلم شيخاً يدري ما يقول ، وعليّ أسلم صبيّاً ، والصبي لا يصحّ إسلامه على قول .

ولكلامه في قصّة خطبة بنت أبي جهل وما نسبه من الثناء على قصّة أبي العاص بن الربيع ، وما يؤخذ من مفهومها فإنّه شنّع في عليّ بن أبي طالب ، فألزموه بالنفاق لقوله صلّى الله عليه وآله وسلّم : لَا يُبْغِضُكَ إلّا مُنَافِقٌ .

ونسبه قوم إلى أنّه يسعى في الإمامة الكبرى ؛ فإنّه كان يلهج بذكر ابنِ تُومَرْتْ [27] ويطريه . وكان ذلك مولّداً لطول سجنه . وله وقائع شهيرة . وكان إذا حوقق وأُلزم ، يقول : لم أرد هذا ، إنّما أردت كذا فيذكر احتمالاً بعيداً . «انتهى كلام ابن حَجَر في كتاب «الدّرر الكامنة» .

وعن «مُنْتَهَى الْمَقَالِ فِي شَرْحِ حَدِيثِ لَا تُشَدّ الرّحَالُ» للمفتي صدر الدين أنّه قال فيه : قال الشيخ

الإمام الحبر الهمام سند المحدّثين الشيخ مُحمّد البُرلُسيّ في كتاب «إتْحَافُ أَهْلِ الْعِرْفَانِ بِرُؤيَةِ الأَنْبِياءِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْجَانّ» : وقد تجاسر ابن تيميّة عامله الله بعدله وذكر تحريمه للسفر إلى زيارة قبر النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم إلى أن قال :

حتّى تجاوز الجناب الأقدس المستحقّ لكلّ كمال أنفس ، وخرق سياج الكبرياء والجلال ، وحاول إثبات ما ينافي العظمة والكمال بادّعائه الجهة والتجسيم ، ونسبة من لم يعتقدهما إلى الضلالة والتأثيم . وأظهر هذا الأمر على المنابر ، وشاع وذاع ذكره بين الأكابر والأصاغر .

وعن صاحب كتاب «أشْرَفُ الْوَسَائِلِ إلَى فَهْمِ الشّمَايِلِ» أنّه قال في بيان إرخاء العمامة بين الكتفين :

قال ابْنُ الْقَيّمِ الْجَوْزِيّ عن شيخه ابْنِ تيْميّة إنّه ذكر شيئاً بديعاً ، وهو أنّه صلّى الله عليه وآله وسلّم لمّا رأى ربّه واضعاً يده بين كتفيه أكرم ذلك الموضع بالعذبة . قال العراقيّ : ولم نجد لذلك أصلاً . أقول : بل هذا من قبيل رأيهما وضلالهما إذ هو مبنيّ على ما ذهبا إليه وأطالا في الاستدلال له ، والحطّ على أهل السنّة في نفيهم له ، وهو إثبات الجهة والجسميّة لله تَعَالَى عَمّا يَقُولُ الظّالِمُونَ وَالْجَاحِدُونَ عُلُوّاً كَبِيراً .

ولهما (ابن تيميّة ، وابن الجوزيّ) في هذا المقام من القبائح وسوء الاعتقاد ما يصمّ عنه الآذان ويقضي عليه بالزور والكذب والضلال والبهتان ، قبّحهما الله ، وقبّح من قال بقولهما .

والإمام أحمد بنُ حَنْبَل وأجلّاء مذهبه مبرّؤون عن هذه الوصمة القبيحة ، كيف وهي كفر عند كثيرين . انتهى كلام صاحب «أشرف الوسائل» .

وعن الْمَوْلَوِيّ عَبْدِ الْحَلِيمِ الْهِنْدِيّ في كتاب «حَلّ الْمَعَاقِدِ» في حاشية «شَرْحِ الْعَقَائِدِ» : كان ابن تيميّة حنبليّاً ، لكنّه تجاوز الحدّ ، وحاول إثبات ما ينافي عظمة الحقّ ؛ فأثبت له الجهة والجسم ؛ وله هفوات أُخر ؛ إلى أن يقول :

وانعقد مجلس في قلعة الجبل ، وحضر العلماء الأعلام والفقهاء العظام . ورئيسهم قاضي القضاة زَيْنُ الدّينِ المالِكِيّ ؛ وحضر ابن تيميّة . فبعد القيل والقال ، بهت ابن تيميّة . وحكم قاضي القضاة بحبسه سنة . 705 ثمّ نودي بدمشق وغيرها : من كان على عقيدة ابن تيميّة ، حلّ ماله ودمه .

كذا في «مرآة الجنان» للإمام أبي محمّد عبد الله اليافعيّ ، ثمّ تاب وتخلّص من السجن سنة 707 وقال : إنّي أشعريّ ، ثمّ نكث عهده ، وأظهر مرموزه ، فحبس حبساً شديداً ، ثمّ تاب وتخلّص من السجن ، وأقام في الشام ، وله هناك واقعات كتبت في كتب التاريخ .

وردّ أقاويله وبيّن أحواله الشيخ ابن حجر في المجلّد الأوّل من «الدّرر الكامنة» ، والذهبيّ في تأريخه ، وغيرهما من المحقّقين .

وحاصل المرام أنّ ابن تيميّة لمّا كان قائلاً بكونه تعالى جسماً ، قال بأنّه ذو مكان ، فإنّ كلّ جسم لابدّ له من مكان على ما ثبت . ولمّا ورد في الفرقان الحميد : الرّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ، قال : إنّ العرش مكانه . ولمّا كان الواجب أزليّاً عنده ، وأجزاء العالم حوادث عنده ، اضطرّ إلى القول بأزليّة جنس العرش وقدمه وتعاقب أشخاصه الغير المتناهيّة . فمطلق التمكّن له تعالى أزليّ ، والتمكّنات

المخصوصة حوادث عنده ، كما ذهب المتكلّمون إلى حدوث التعلّقات . «انتهى» .

وعن اليَافِعيّ في «مِرآة الجنان» أنّه قال في ذكر فتنة ابن تيميّة : وكان الذي ادّعي عليه بمصر أنّه يقول : إنّ الرحمن على العرش استوى حقيقة ، وإنّه يتكلّم بحرف وصوت . ثمّ نودي بدمشق وغيرها : من كان على عقيدة ابن تيميّة ، حلّ ماله ودمه . «انتهى» .

وعن «تاريخ أبي الفِداء» في حوادث سنة 705 : وفيها استدعي تقيّ الدين أحمد بن تيميّة من دمشق إلى مصر ، وعقد له مجلس ، وأمسك ، وأُودع الاعتقال بسبب عقيدته ، فإنّه كان يقول بالتجسيم :

وجاء في المنشور الصادر بحقّه من السلطان : وكان الشقيّ ابن تيميّة في هذه المدّة قد بسط لسان قلمه ، ومدّ عنان كلمه ، وتحدّث في مسائل القرآن والصفات . ونصّ في كلامه على أُمور منكرات . وأتى في ذلك بما أنكره أئمّة الإسلام وانعقد على خلافه إجماع العلماء الأعلام ، وخالف في ذلك علماء عصره وفقهاء شامه ومصره . وعلمنا أنّه استخفّ قومه فأطاعوه حتّى اتّصل بنا أنّهم صرّحوا في حقّ الله بالحرف والصوت والتجسيم . «انتهى كلام أبي الفداء» .

وعن «كَشْفُ الظّنون» عن بعضهم : أنّه بالغ في ردّ ابن تيميّة ، حتّى صرّح بكفر من أطلق عليه : شيخ الإسلام . «انتهى» . (28)

إلى هنا فرغ المرحوم آية الله العامليّ رضوان الله عليه من حديثه عن ابن تيميّة . ثمّ بدأ الحديث عن محمّد بن عَبد الوَهّاب (29) الذي اقتفى أثر ابن تيميّة في زيارة القبور ، والتشفّع ، والتوسّل ، وغير ذلك . فقال : وقد أثبت ابن عبد الوهّاب لله تعالى جهة الفوق والاستواء على العرش الذي هو فوق السماوات ، والأرض ، والجسميّة ، والرحمة ، والرضا والغضب واليدين اليمنى والشمال ، والأصابع ، والكفّ كلّها بمعانيها الحقيقيّة من دون تأويل .

قال محمّد بن عبد الوهّاب في كتاب «التَّوْحِيدُ الّذِي هُوَ حَقّ عَلَى الْبَعِيدِ» على ما حكي عنه في باب قوله تعالى : حَتّى إِذَا فُزّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبّكُمْ قَالُوا الْحَقّ وهُوَ الْعَلِيّ الْكَبِيرُ (30) : لله علوّ ، وغضب ورضا ، واستواء على العرش ، ثمّ استدلّ على ذلك بالآية : وَمَا قَدَرُوا اللّهَ حَقّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ . (31)

وقال : لله أصابع ، يجعل السماوات في إصبع ، والأرضين في إصبع ، والشجر على إصبع ، والماء على إصبع ، والثرى على إصبع ، وسائر الخلق على إصبع .

ثمّ نقل رواية عن ابن مسعود في حبر من الأحبار جاء إلى رسول الله وطرح عليه ما مرّ من كلام ، فضحك رسول الله . يرى ابن عبد الوهّاب أنّ ضحك النبيّ تصديق لقول الحبر . وبذلك يثبت التجسّم ، والجهة ، والكيف لله .

وبعد موت محمّد بن عبد الوهّاب ، أثبت أتباعه لله تعالى جهة العلوّ والاستواء على العرش . والوجه ، واليدين ، والعينين ، والنزول إلى سماء الدنيا والمجيء والقرب ، وغير ذلك بمعانيها الحقيقيّة .

وفي الرسالة الرابعة من الرسائل الخمس المسمّى مجموعها ب «الْهَدِيّةِ السّنِيّة» لعبد اللطيف حفيد

محمّد بن عبد الوهّاب عند ذكر بعض اعتقادات الوهّابيّة ، وانّها مطابقة لعبارة أبي الحسن الأشعريّ ، قال :

وإنّ الله تعالى على عرشه كما قال : الرّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى . وإنّ له يدين بلا كيف كما قال : لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيّ * بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ . وإنّ له عينين بلا كيف ؛ وإنّ له وجهاً ، كما قال : وَيَبْقَى وَجْهُ رَبّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ .

وقال : ويصدقون بالأحاديث التي جاءت عن رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم : أنّ الله ينزل إلى سماء الدنيا ، فيقول : هل من مستغفر ؟

إلى أن قال : ويقرؤون أنّ الله يجيء يوم القيامة كما قال : وَجَآءَ رَبّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا . وإنّه يقرب من خلقه كيف شاء ، كما قال : وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ .

وجاء في الرسالة الخامسة لمحمّد بن عبد اللطيف المذكور : ونعتقد أنّ الله تعالى مستو على عرشه ، عال على خلقه ، وعرشه فوق السماوات . قال تعالى : الرّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى . فنؤمن باللفظ ، ونثبّت حقيقة الاستواء ، ولا نكيّف ، ولا نمثّل .

قال إمَامُ دَارِ الْهِجْرَةِ : مالِك بْنُ أَنَسْ . وبقوله نقول . وقد سأله رجل عن الاستواء ، فقال : الاستواءُ مَعْلُومٌ وَالْكَيْفُ مَجْهُولٌ وَالإيمانُ بِهِ وَاجِبٌ وَالسّؤالُ عَنْهُ بِدْعَةٌ .

إلى أن قال : فمن شبّه الله بخلقه كفر ، ومن جحد ما وصف به نفسه فقد كفر ، ونؤمن بما ورد من أنّه تعالى يَنْزِلُ كُلّ لَيْلَةٍ إِلَى سَمَاءِ الدّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثُلْثُ اللّيْلِ فَيَقُولُ ...

وهنا قال المرحوم الأمين العامليّ : يلزم من ذلك أحد أمرين : التجسيم أو القول بالمحال ، وكلاهما محال ؛ لأنّ حصول حقيقة الاستواء مع عدم الكيف محال بحكم العقل . ومع الكيف تجسيم ، فلابدّ من التأويل والمجاز ، والقرينة العقل . (32)

ويقول دهخدا : ينسب ابن تيميّة إلى تَيْما ، مدينة صغيرة في الشام : وهو تقيّ الدين أبو العبّاس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن محمّد بن تيميّة الحَرّانيّ (الولادة 661 ، الوفاة 728 هـ) . ولد في حرّان بالقرب من دمشق . (إلى أن يقول) :

وقد عارض ابن تيميّة الأشاعرة ، والحكماء ، والصوفيّة ، وجميع الفرق الإسلاميّة ما عدا السلفيّة ، ويراها باطلة . وكان يعتقد بالتجسّم ؛ ولا يجيز للمسلم أن يتجاوز ظاهر اللفظ في القرآن والحديث . وكان يعتبر زيارة قبور الأولياء بدعة ؛ ويمكن القول إنّه رائد الوهّابيّين في هذا الأمر . (33)

وعندما سافر ابنُ بطوطة إلى دمشق ، التقى ابن تيميّة هناك ؛ وبعد حديثه عن قضاة دمشق ، يقول : حِكَايَةُ الْفَقِيهِ ذِي اللّوْثَةِ . ثمّ قال :

وكان بدمشق من كبار الفقهاء الحنابلة تقيّ الدين بن تيميّة كبير الشام ؛ يتكلّم في الفنون إلّا أنّ في عَقْلِهِ شَيئاً .

وكان أهل دمشق يعظّمونه أشدّ التعظيم ، ويعظهم على المنبر ؛ وتكلّم مرّة بأمر أنكره الفقهاء ، ورفعوه إلى الملك الناصر ، فأمر بإشخاصه إلى القاهرة . وجُمَع القضاةُ والفقهاء بمجلس الملك الناصر

؛ وتكلّم شرف الدين الزّوَاويّ المالكيّ ، وقال : إنّ هذا الرجل قال كذا وكذا ، وعدّد ما أنكر على ابن تيميّة ، وأحضر العقود بذلك ، ووضعها بين يدي قاضي القضاة .

وقال قاضي القضاة لابن تيميّة : ما تقول ؟ قال : لَا إِلَهَ إِلّا اللّهُ ؛ فأعاد عليه ، فأجاب بمثل قوله ، فأمر الملك الناصر بسجنه ، فسجن أعواماً ؛ وصنّف في السجن كتاباً في تفسير القرآن سمّاه ب «البحر المحيط» في نحو أربعين مجلّداً .

ثمّ إنّ أُمّه تعرّضت للملك الناصر ، وشكت إليه ، فأمر بإطلاقه ، إلى أن وقع منه مثل ذلك ثانية ؛ وكنت إذ ذاك بدمشق ، فحضرته يوم الجمعة وهو يعظ الناس على منبر الجامع ، ويذكّرهم ، فكان من جملة كلامه أن قال : إنّ اللهَ يَنْزِلُ إِلَى سَمَاءِ الدّنْيَا كَنُزُولِي هَذَا ، وَنَزَلَ دَرَجَةً مِنْ دَرَجِ الْمِنْبَرِ .

فعارضه فقيه مالكيّ يعرف ب ابنِ الزّهْراء ، وأنكر ما تكلّم به ، فقامت العامّة إلى هذا الفقيه ، وضربوه بالأيديّ والنعال ضرباً كثيراً حتّى سقطت عمامته ، وظهر على رأسه شاشة حرير ، فأنكروا على لباسها واحتملوه إلى دار عزّ الدين ابن مسلم قاضي الحنابلة ، فأمر بسجنه وعزّره بعد ذلك ، فأنكر فقهاء المالكيّة والشافعيّة ما كان من تعزيره .

ورفعوا الأمر إلى ملك الأُمراء سيف الدين تنكيز ، وكان من خيار الأُمراء وصلحائهم ، فكتب إلى الملك الناصر بذلك ، وكتب عقداً شرعيّاً على ابن تيميّة بأُمور منكرة . وبعث العقد إلى الملك الناصر ، فأمر بسجن ابن تيميّة بالقلعة ، فسجن بها حتّى مات في السجن . (34)

يستبين لنا ممّا تقدّم بكلّ صراحة : أنّ ابن تيميّة كان يقول بالتجسيم ؛ وتمثيله بنزوله درجة من المنبر يفيدنا جيّداً أنّ القصد من النزول هنا هو النزول المكانيّ تَعَالَى الله عَنْ ذَلِكَ . وفي ضوء ذلك فإنّ ما ذكره مُحَمّد بَهْجَت الْعَطّار في كتاب «حياة ابن تيميّة» . من أنّ ابن بطوطة عندما كان في دمشق ، كان ابن تيميّة محبوساً في قلعة دمشق ، فالذي تكلّم بذلك الكلام على منبر دمشق شخص آخر غيره ظنّه ابن بطوطة أنّه ابن تيميّة . كلام في غير موضعه ، وتبرير لا يمكن قبوله .

إذ كيف يخفى ابن تيميّة على ابن بطوطة فلا يعرفه ، ويظنّه شخصاً آخر ، وهو معروف بالفراسة والكياسة والسوابق ؟ هذا مع كافّة المواصفات التي ذكرها ابن بطوطة في هذه القصّة .

ناهيك عن أنّ ابن بطوطة كان رحّالة ؛ وله كتاب «رحلة ابن بطوطة» حول هذه الأسفار وأمثالها . ومن المعلوم أنّ السوّاح الذين يدوّنون رحلاتهم وأسفارهم ، يسجّلون مشاهداتهم اليوميّة في حينها ولا يؤخّرونها لئلّا ينسوا شيئاً منها ، ويضبطون كافّة الخصوصيّات . وقد أقام ابن بطوطة مدّة في دمشق ؛ ولو كانت هذه القضيّة غير مرتبطة بابن تيميّة . فإنّها لم تكن لتخفى ، بل ينشر خبرها في دمشق فيسجّلها ابن بطوطة في رحلته . وهذه الرحلة تحظى بالأهميّة عند المؤرّخين ، ومع هذا كلّه فإنّ غفلة ابن بطوطة عن هذا الأمر الواضح البيّن لا تغفر له .

مضافاً إلى كلّ ما مرّ من كلام ، فما هو الدافع لنا أن نقدّس ابن تيميّة إلى هذه الدرجة سالكين طرقاً وعرة ومطبّات عويصة بغية تبرير أخطائه ! وهو الذي شهد بزيغه الفكريّ علماء الإسلام كافّة ؛ حتّى أنّ ابن بطوطة نفسه قد رأى خللاً ونقصاً في عقله ، وذكره تحت عنوان الْفَقِيهُ ذُو اللّوْثَة .

هذه أخطاء ابن تيميّة ، وابن عبد الوهّاب ، كلّها ناتجة عن التزمّت ، والتعنّت ، والجمود على الظاهر ، وعدم التعقّل في آيات الله .

فلقد تعلّما كلمة واحدة وهي : لا يمكن أن نتجاوز القرآن والسنّة النبويّة ؛ ولكن ما هو القرآن ، وكيف يجب أن نفهمه منه ؟ وكيف نفسّر القرآن ، وهو كتاب للعمل ومنهج للعلم يستضيء به الحكماء وذوو الألباب في العالم حتّى فناء الدنيا وقيام القيامة ؟ إنّهما وأمثالهما لا يفهمون أبداً . يقولون : وَجَآءَ رَبُّكَ ، أي أنّ الله يمشي ويذهب ويجيء .

إنّ هؤلاء لو خطوا على طريق الأدب الصحيح ، والفلسفة الإسلاميّة خطوة واحدة ، لما تقوّلوا هذه الأقاويل ، ونسجوا هذه الأباطيل .

لقد وضعت الألفاظ للمعاني العامّة . فالمجيء بمعنى الإتيان ، أي الاقتراب التدريجيّ . وتتمثّل هذه الحقيقة في الإنسان برجليه ، وفي الحيوان ذي الأربع بأربع ، وفي الطير بتحريك جناحيه ؛ وفي الحوادث الأرضيّة والسماويّة لمناسبتها . أنتم تقولون : جاء المطر ، وجاء الثلج ، وجاءت الرياح ، وجاءت الزلزلة ، فهل لهذه الأشياء أرجل تمشي بها ؟! وتقولون : جاءت الشمس ، وجاء النور ، فهل لهما أرجل ؟ وتقولون في الأُمور المعنويّة : جاء عقل زيد إلى موضعه (ثاب إلى رشده) ؛ وجاء حبّه ؛ وجاء إدراكه ؛ وجاء سخاؤه ؛ وجاء جبرئيل ؛ وتقولون في الأُمور المادّيّة غير المعنويّة كالكهرباء ، والماء ، وغيرهما : جاءت الكهرباء ، وجاء الماء ؛ وجاءت حرارة زيد إذا حُمّ بدنه . فهل لهذه الأشياء أرجل ؟ فمجيء كلّ شيء يتناسب مع ماهيّته . ولم يذكر أحد من اللغويين قطّ أنّ المجيء ملازم لحركة الأرجل .

ومعنى قولنا : جاءت رحمة الله ، اقتربت ، ورفع الحجاب ، وتجلّت للناس صفة الرحمة .

وجاء الله ، تعني أنّ حجاب الإنّيّة الذي عليه الناس قد رفع ، فشاهدوا ذاته المقدّسة متجلّية بالهيمنة ، والإحاطة ، والاستيلاء ؛ وأدركوا جماله وجلاله بدون حجاب ؛ هذا هو المعنى الحقيقيّ للمجيء . فالألفاظ قد وضعت للمعاني العامّة ؛ والمواصفات الخاصّة بموضع الاستعمال لا علاقة لها بموضوعها العامّ .

وفي ضوء ذلك نقول : إنّ لفظ المجيء قد استعمل في معناه الحقيقيّ ؛ غاية الأمر أنّ معناه الحقيقيّ عامّ ؛ ولو يؤخذ بنظر الاعتبار في تلك الخصوصيّات المستعملة .

ولا نقول : إنّه لا يمكن استعمال لفظ المجيء في هذه الحالات في معناه الحقيقيّ وهو الإتيان على الأقدام ، وينبغي أن نؤوّله ، ونحمله على معناه المجازيّ . فهذا الجواب غير صحيح .

لقد استعمل لفظ العرش في معناه الحقيقيّ ؛ وهو عامّ ؛ ويلزمه أنّ العرش ليس مادّيّاً ، وعرش كلّ شيء يتناسب مع ذاته : فعرش الله مجرّد ، وليس مادّيّاً ، كما أنّ الله مجرّد وليس مادّيّاً .

إنّ عرش الله هو عالم المشيئة والإرادة والاختيار المهيمن على العوالم كلّها .

الله سميع ؛ ومعنى أنّه يسمع ، أي : يدرك المسموعات بعلمه المحيط ؛ وهو بصير وله عين ، أي : يدرك المُبصرات بعلمه المحيط ؛ ولله يد ، أي : قدرة ، ووسيلة لممارسة القدرة ؛ ويداه ، تعنيان صفة الجمال ، والجلال ؛ واسمي : الجميل ، والجليل . هذه معان غير مؤوّلة وغير مجازيّة . ولا قرينة عندنا

على المجاز حتّى يقول أحد شيئاً يدلّ عليه ؛ وينبغي أن نحمل اللفظ على المعاني الحقيقيّة عند عدم وجود قرينة ؛ والقرينة العقليّة لا تكفي أيضاً ؛ لأنّ العقول تتباين فيما بينها هنا .

إنّ هذا النمط من البحوث السطحيّة يسوقنا آخر المطاف إلى الجمود والتعنّت والتجسّم ؛ إلّا أنّ وضع الألفاظ للمعاني العامّة يحلّ كافّة المشاكل ؛ ذلك لأنّ حقيقة الموضوع هي على هذا النسق أيضاً .

إنّ التعبّد بالمعاني المتعارفة والمستعملة للآيات القرآنيّة، التي يتداولها الناس في محادثاتهم ومحاوراتهم اليوميّة يُفقد الكتاب الإلهيّ شأنه تماماً ؛ ويبدّل هذه الآيات العالية والرفيعة بمحمولات دانية ومعان مبتذلة . وهذا التعبّد لا ينسجم مع تعليم القرآن الذي يدعونا إلى الجدّ والاجتهاد والتنقيب والتعقّل والتفكّر. فالابتعاد عن العرفان الإلهيّ، ومقام الولاية، والسير العمليّ في عوالم الحبّ والاتّصال بالباطن، والاحتراز من العلوم العقليّة والبراهين الفلسفيّة والقواعد الحِكَميّة، كلّ ذلك يولّد لنا هذه الكوارث.

لقد أراد ابْنُ تَيْميّة أن يستهدي بالقرآن والسُنّة غير أنّه ضلّ سبيله ؛ ولذلك تزهق روحه في الفيافي المجدبة بكبد ملتهب ، وقلب ذائب منصهر متحسّراً متأوّهاً على ما فرّط في جنب الله وجنب رسوله إذ يفتي بعدم قصر الصلاة للمسافر الذي يقصد المدينة لزيارة قبر رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم . (35) لأنّ هذا السفر سفر معصية ، وزيارة رسول الله بدعة . أليس هذا تفتيتاً للكبد ومسكنةً للروح أن يقول الإنسان : إنّ السفر للنزهة والتفرّج ولأيّ ضرب من ضروب اللذّة والسعادة ؛ أو السفر إلى أيّ بقعه من بقاع العالم للتجارة حلال ، ويقصر المسافر صلاته فيه ؛ أمّا السفر إلى المدينة لزيارة قبر رسول الله فإنّه حرام ، ويتمّ المسافر صلاته في هذا السفر ؟!

إنّ هؤلاء يريدون أن يبلغوا القرآن ولا يتجاوزوه ؛ إلّا أنّ أدمغتهم المتحجّرة تزيّن لهم أن يسلّوا سيوفهم على المسلمين بذريعة محاربة الشرك الذي ينهجونه في حياتهم ، بزعمهم ، ويُنشئوا حمّاماً من الدم في الحجاز ، ونجد ، ومكّة ، وجدّة ، والعراق ، وسوريا وغيرها من الأقطار ، ويذبحوا الأطفال الرضّع ، ويرتكبوا من الجرائم ما يُبيّضوا به وجه المغول ، وقد بيّضوه حقّاً ؛ وبعد هذا كلّه يزعمون أنّ هذه الأعمال الإجراميّة تمثّل الدعوة إلى التوحيد ؛ وهل أنّ تكفير المسلمين جميعهم هو التوحيد ! وهل أنّ إباحة سفك الدماء البريئة للمسلمين هي التوحيد ؟ هذه هي طريقة الوَهّابِيّة التي ابتدعها مؤسّسها محمّد بن عبد الوهّاب ، ووضع لبناتها الأُولى ابن تيميّة قائدها الفكريّ الأوّل .

وعلى كلّ من أحبّ الاطّلاع الكافي على الوهّابيّة ، أن يطالع الكتب التي تتحدّث عنها وعن تأريخ رجالها ، لكي يعلم أنّ الابتعاد عن ولاية الإمام الصادق ومذهبه الحقّ يولّد هذه المسكنة .

ولكم أن تطالعوا كتاب : «كَشْف الارْتياب في أتباع محمّد بن عبد الوهّاب» للمرحوم السيّد محسن الأمين العامليّ ؛ وكتاب : «هَذِهِ هِيَ الْوَهّابِيّةِ» للشيخ محمّد جواد مغنية حتّى تطّلعوا على سخافة هؤلاء القوم وحماقتهم .

إنّ من أراد أن يستهدي بالقرآن دون الاستضاءة بأهل البيت فإنّ عاقبته أنّه يُمنى بمثل هذه الأباطيل والتخرّصات . فحبّة الفيروز وجوهرة الماس ينبغي شراؤها من بائع المجوهرات ، لا من بائع الخضروات .

إنّ المواضيع التي ذكرناها حول توحيد الذات ، وتوحيد الصفات ، وتوحيد الأفعال سواء في هذا الكتاب أو في غيره ، أو في هذا الدرس على نحو الخصوص هي من فيوضات رافعي لواء مدرسة التشيّع ، وحملة لواء الحمد ومقام الشفاعة ، عليّ بن أبي طالب وأبنائه الأمجدين . وقد نقلناها عن «التوحيد» للشيخ الصدوق ، و«عيون الأخبار» ، و«نهج البلاغة» وغيرها . وما قدمّناه من آراء العرفاء الكبار والحكماء العظام الذين ظفروا بهذه النقاط الدقيقة والعميقة بسبب اتّباعهم لهذه المدرسة ، نقلناها عنهم نصّاً . ولكم أن تقارنوا بينها وبين آراء الوهّابيّة وأفكارها سواء في أُصول العقائد كالتجسيم ، أو في الفروع كالحكم بحرمة زيارة رسول الله ، أو في العمل كرفع الحراب وارتكاب جرائم القتل بأقسى شكل متصوّر ، وذلك كلّه يجري باسم الله ، وباسم رسول الله ، قارنوا لتروا بعد ما بينهما : وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ . (36)

تقول الوَهّابِيّة : إنّ النور المذكور في القرآن هو النور الظاهريّ ؛ والظلمة هي نفسها ؛ ولا معنى للمعاني الباطنيّة والتأويل والتفسير ؛ وينبغي أن نأخذ بظاهر القرآن فحسب ؛ وهذا هو الطريق لا غير .

فانظروا ماذا أفرزت هذه الأفكار السقيمة من المفاسد العظيمة سواء على الصعيد العقيديّ أو على صعيد الأحكام العمليّة والمسائل الفقهيّة .

ومن المناسب هنا أن ننقل قصّة مأثورة عن أُستاذنا فقيد العلم والعرفان آية الله العلّامة الطباطبائيّ رضوان الله عليه ونختم بها موضوعنا هذا .

فقد نقلها لنا قبل ما يقارب خمس عشرة سنة ، (37) فقال : قبل مدّة جاءنا العميد قريب ، ونقل لنا قصّة وقعت له في مناسبة من المناسبات وهي معجبة ومسرّة للغاية .

قال : في السنة التي تشرّفت خلالها بحجّ بيت الله الحرام . ذهبنا بالباخرة عن طريق الشام حتّى وصلنا جدّة ؛ واستغرقت الرحلة أكثر من أُسبوع ، وكان معي عدد من الأصدقاء الذين هم غالباً من زملائي . وكان لدينا متّسع الوقت الكافي والمكان الهادئ لكي نتعلّم مناسك الحجّ .

وكان في الباخرة أحد العلماء قاصداً بيت الله الحرام أيضاً ، وكان دائماً يجلس لوحده ، صامتاً ، مراقباً ، ومنقطعاً إلى نفسه .

وكنّا في الأيّام الأُولى نذهب إليه لمدّة ساعة لنسأله عن المسائل التي نحتاج إليها ، ثمّ أكثرنا من الذهاب إليه في الأيّام التالية حتّى طلبنا منه أن يأتي ويشاركنا في طعامنا لكي نستفيد من وجوده أكثر فأكثر . فوافق على اقتراحنا وجاء معنا . فأُضيف إلى مجموعتنا شخص آخر .

وصلنا إلى المدينة المنوّرة ، وأنّى ذهبنا كنّا معاً لم نتفارق . ومعنا ذلك العالم ، وقد استفدنا منه كثيراً وسررنا غاية السرور بوجوده معنا . كان رجلاً خليقاً هادئاً صبوراً عالماً مفكّراً .

ذات يوم ذهبنا بمعيّته لزيارة مكتبة المدينة المنوّرة المعروفة . وكان أمينها شيخاً أعمى من أتباع المذهب الوهّابيّ . فجلس معنا ، وأخذنا نتجاذب معه أطراف الحديث ؛ ولمّا فهم أنّنا من إيران ومن أتباع المذهب الجعفريّ ، لم يترك شيئاً إلّا وقاله ضدّ الشيعة بكلمات نابية غير مؤدّبة ، فأخذ يوبّخ ، ويمتهن ، ويهين ، ويفتري بنسبتهم إلى الشرك ، واليهوديّة ، وا لمجوسيّة . وينتقد الأُصول والفروع كلّها ؛ ويقرأ رواية بلهجة عصبيّة ويبرّرها ؛ ويتلو آيات قرآنيّة ويشرحها . وهو يقصد إدانتنا في كلّ ذلك

مستنتجاً أنّنا غير مسلمين ؛ لا نصلّي ؛ ولا نصوم ، وأنّ حجّنا للنزهة والسياحة ، لا للعبادة . وأنّ سجودنا على تربة الإمام الحسين نوع من عبادة الأصنام ؛ وأنّ زيارة القبور ، والطواف حول المشاهد المشرّفة ، وتقبيل الأضرحة والأبواب ، كلّ ذلك شرك وعبادة للموتى .

وكان يقول : الشيعة لا تعرف القرآن ولا تتلوه ، وتؤوّل معانيه ؛ وهذا دمار للقرآن ؛ ويجب أن يفسّر القرآن بمعناه الظاهر ، وأساساً فإنّ القرآن لا يجوز أن يُفسّر ، بل يجب الاكتفاء بظاهره .

إنّ النور المقصود في قوله تعالى : اللَهُ نُورُ السّمَوَ تِ وَالْأَرْضِ . (38) هو هذا النور الظاهريّ .

بينما يقول الشيعة ويكتبون في تفاسيرهم أنّ المراد من النور هو الحقيقة ؛ وهذا تفسير بالرأي ، وهو حرام .

يقول الشيعة : إنّ المقصود هو أنّ الله منير السماوات والأرض ؛ وهذا خلاف الظاهر .

القرآن يقول بصراحة : وَجَآءَ رَبّكَ . يقول الشيعة : القصد هو وَجَاءَ أَمْرُ رَبّكَ . وهذا المعنى غير صحيح .

وأطال الأعمى حديثه في هذا المجال . وكان العالم الذي معنا صامتاً مثلنا ، لا ينبس ببنت شفة .

وأصابنا فتور ؛ وامتعضنا من سكوت صاحبنا . لماذا لا يجيب ؟ لماذا يُدان هنا ، وهو الذي نخاله عالماً واعياً ، ولم يكن هكذا من قبل ؟ حتّى أنّ بعضنا همّ أن يقوم بوجهه ويصرخ قائلاً له : كلامك كلّه اتّهام باطل ، ولا نصيب له من الصحّة . وتفسير آية النور ، وقوله : وَجَآءَ رَبّكَ بهذا الشكل يعني تجسيم الله ؛ وهذا خطأ ؛ يجب أن نتعلّم القرآن من أهله ، لا من الغرباء عليه ؛ وأهله هم رسول الله وأهل بيته ؛ وأنتم لستم من أهله حتّى يحلو لكم أن تفسّروا القرآن وتفهموه بهذا الشكل .

بيد أنّا لم نحسن العربيّة حتّى نردّ عليه أوّلاً ؛ وثانياً : كنّا نحسب لحضور العالم الجليل الكبير بيننا حساباً إذ إنّ كلامنا لا يستحسن مع وجوده ؛ وقرّرنا أن نفترق عنه إذا خرجنا .

وخلاصة القول إنّ ذلك الشيخ الوهّابيّ أبرمنا بكثرة كلامه حتّى أنّه هو نفسه شعر بالإرهاق وأزبد فمه ، وصاحبنا لا زال يستمع له بكلّ هدوء دون أن ينطق حرفاً واحداً .

وما إن أتمّ كلامه حتّى التفت إليه شيخنا وقال له : لابدّ أنّك تهدف من وراء هذا الكلام الذي أغضبك وأتعبك ، وهذا الدفاع عن القرآن والنبيّ ، أن تتشرّف برؤية رسول الله وزيارته يوم القيامة ! وتكون أعمالك مقبولة ومشكورة ؟!

فقال الشيخ الوَهّابيّ : نعم ! نعم !

فقال شيخنا : ولكنّي آسف أنّك لن ترى رسول الله يوم القيامة أبداً !

فقال الوهّابيّ بنبرة غاضبة : ولِمَ ذلك ؟! ما هو السبب ؟

فقال شيخنا : لمّا كنت أعمى ! وكنت تفسّر القرآن الذي تدافع عنه كما تهوى ، فإنّ القرآن ينطق بالحقّ قائلاً:

وَمَن كَانَ فِى هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِى الْأَخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلّ سَبِيلًا . (39)

ويقول أيضاً كما ردّدت بنفسك : وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ . (40)

وفي ضوء هذا كلّه فأنتَ في هذه الدنيا أعمى ! وفي الآخرة أعمى وأضلّ سبيلاً ! ولم يجعل الله لك نوراً ، فما لك من نور ! فلن ترى رسول الله أبداً !

قال شيخنا هذا الكلام ولم ينطق بشيء غيره .

فاضطرب الشيخ الوهّابيّ أيّ اضطراب ؛ وانزعج وفقد صوابه وكأنّه طير مذبوح يتلوّى من حرارة السكّين ، وآثر الصمت فلم يتكلّم بشيء . وكان يرعد ، وجسمه يرتجف .

ولقد سررنا بجواب شيخنا أيّما سرور وابتهجنا كثيراً ؛ وقمنا عائدين إلى مكاننا وكنّا في الطريق نكثر من تقبيل الشيخ . وتعلّقنا به كثيراً حتّى أنّ بعضنا كان يريد أن يحتضن الشيخ عند عبوره من الشارع بلا شعور . وقلنا له :

لقد آذيتنا بصمتك الطويل . وقلنا في أنفسنا : لقد أُفحمتَ وأُدنتَ ! ولكنّك بحمد لله أبطلت ثرثرته بكلمتك الشافية جَزَاكَ اللهُ عَنِ الإسلَامِ وَالْقُرْآنِ خَيْراً .

فهذا موجز عن مذهب الوهّابيّة .

وأمّا طائفة الشيخيّة ؛ فإنّهم لا يرون غاية سير الإنسان إلى ذات الحقّ الأقدس ؛ وينكرون بصراحة بلوغه مقام العزّ الشامخ للأحديّة ، وفناء وجوده واندكاكه في ذاته عزّ وجلّ .

وبناءً على هذا ، فهم ينكرون إمكان العرفان الإلهيّ ومعرفة ذات الحقّ بالنسبة إلى الإنسان ، ويقولون :

إنّ غاية السير العرفانيّ والكماليّ للإنسان هي باتّجاه الوليّ الأعظم الذي يمثّل الحجاب الأقرب وواسطة الفيض .

ويقولون : إنّ ذات الحقّ الأقدس براء من كلّ اسم ورسم ؛ ومن كلّ صفة ؛ لذلك فإنّ أسماء الحقّ وصفاته ليست عين ذاته ؛ بل هي في مرحلة أوطأ ؛ وبالتالي فإنّ ذات الحقّ تفقد كلّ صفة وكلّ اسم .

إنّ الوليّ الأعظم وقطب دائرة الإمكان هو : إمام العصر والزمان ، وهو اسم الله ، وفي درجة أوطأ من ذات الحقّ ؛ لأنّ السير نحو الذات الخارجة عن كلّ اسم ورسم ، الأزليّة الأبديّة التي مالا نِهَايَةَ لَهَا محال ؛ لذلك فإنّ غاية سير الإنسان هي باتّجاه الاسم الأعظم للحقّ ، وهو الوليّ الأعظم الذي يمثّل الفاصلة بين الله وبين عالم الخلق .

يقول الشيخيّة : ذلك لأنّ إمام العصر والزمان وحده يستطيع أن يظفر بوصال الله ؛ ونحن أيضاً لا نستطيع أن نظفر بوصال الإمام إلّا بواسطة ؛ ولابدّ من هذه الواسطة التي تربطنا به ؛ وهذه الواسطة هي الشيخ الذي يسمّونه : الرُكْن الرَابِعْ . فالركن الأوّل هو : الله ؛ والثاني هو : النبيّ ؛ والثالث : الإمام ؛ والرابع : الشيخ . فالغاية . إذَن . هي سيرنا إلى الفناء في الشيخ ؛ وغاية سير الشيخ هي الفناء في الإمام ؛ وغاية سير الإمام هي الفناء في الحقّ ؛ وهذه الأركان الأربعة لابدّ منها .

وفساد هذه العقيدة واضح للأسباب التالية :

أوّلاً : إذا اعتبرنا صفات الحقّ وأسماءه منفصلة عن ذاته ، وأنّ ذاته هي بلا اسم ورسم ؛ فمؤدّى هذا الكلام هو أنّ ذات الحقّ فاقدة للحياة والعلم والقدرة ؛ وبناءً على ذلك فهي ذات جامدة وميّتة وجاهلة

، وَتَعَالَى اللهُ عَنْ ذَلِكَ .

وثانياً : أنّ الآيات القرآنيّة والروايات جميعها تدعونا إلى ذات الحقّ في السير والمعرفة ؛ وتعتبر غاية السير والوصول والعرفان هو الوصول إلى ذات الحقّ ، لا الوصول إلى الوليّ الأعظم وعرفانه .

وثالثاً : لعلّ هناك من يسأل قائلاً : لماذا يتمتّع الإمام والوليّ الأعظم بإمكانيّة العرفان والوصول إلى ذات الحقّ الأقدس ، ولا يتمتّع غيره بذلك ؟ وإذا كان ممكناً له ذلك ، فهو ممكن للجميع . وإذا كان لغيره محال ، فكيف يكون ممكناً له ؟

يقول الشيخيّة : الوليّ الأعظم ليس ممكناً وليس واجباً ؛ بل هو في مرتبة بين الإمكان والوجوب .

والجواب هو : أنّنا لا نتعقّل وجود مرتبة بين الإمكان والوجوب ؛ فكلّ الناس في دائرة الإمكان ؛ وغاية سيرهم فناؤهم واندكاكهم في ذات وَاجِبِ الْوُجُودِ .

ورابعاً : في ضوء هذا الكلام ، فإنّ الوليّ الأعظم ينبغي أن يكون له وجود مستقلّ ؛ لكي يتحقّق فناء الموجودات التي لها اسم ورسم فيه ، لا أن يكون له وجود تبعيّ وظلّيّ ومرآتيّ ؛ وإلّا فإنّ الهدف ينبغي أن يكون ذات الحقّ . وما يتطلّبه هذا الافتراض هو الشرك والثنويّة والتفويض والتولّد وَتَعَالَى اللهُ عَنْ ذَلِكَ .

وأخيراً ، فإنّ هذه الطائفة لم تعلم أنّ الولاية قائمة في كلّ موجود ؛ وهي عبارة عن ارتفاع الفاصلة والحجاب بين ذلك الموجود وذات الحقّ ؛ وأنّ هذه الولاية في الله أصليّة ، وفي جميع الموجودات تبعيّة وظلّيّة ومرآتيّة .

إنّ القرآن الكريم يعتبر جميع الموجودات آية ومرآة ؛ والروايات أيضاً تأبى أن يكون للأئمّة مقام مستقلّ ؛ وترى ذلك تفويضاً وخطأ ؛ بل إنّ كلّ مقام وكلّ درجة وكمال يتمتّعون به هو من الله ؛ ومع الله ؛ ولله ؛ وإنّما هم ممثّلون ومظهرون لذلك فحسب .

إنّهم صراط الهداية التكوينيّة والتشريعيّة وجسرها للوصول إلى مقام العزّ الشامخ للحقّ جَلّ وَعَزّ .

القصد والمقصود هو الله ؛ وذاته المقدّسة وأسماؤه وصفاته . والأئمّة وسطاء الفيض والرحمة في قوسي النزول والصعود .

وفي ضوء ما تقدّم فإنّ لوجود بقيّة الله أرواحنا فداه مرآتيّة وآيتيّة لوجود الحقّ الأقدس تعالى . ولذلك فإنّ معرفته أيضاً يجب أن تحمل صفة الآيتيّة والمرآتيّة لمعرفة الحقّ تعالى .

وبلغة علميّة : فإنّ وجوده بالنسبة إلى وجود الحقّ هو معنى حرفيّ بالنسبة إلى معنى اسميّ .

وعلى هذا فإنّ طريق السير إلى الله المتعال هو الإمام نفسه ؛ بَيدَ أنّ الهدف هو الله تبارك وتعالى نفسه . ومن المعلوم أنّنا إذا حسبنا الطريق هدفاً ، فكم يكون حجم خطأنا !

ينبغي أن نسير إلى الله ، ونجعل لقاءه ، والوصول إليه ، وعرفانه ، والفناء والاندكاك في ذاته غايتنا المنشودة ؛ غاية الأمر لمّا كان هذا المقصد لا يطوى بدون هذا الطريق . وأنّ الغاية المنشودة تتعسّر بدونه ، لذلك ينبغي لنا أن نخطو على هذا الطريق لبلوغ الهدف المنشود .

ولمّا كنّا عاجزين عن رؤية الشمس بلا مرآة ، فلننظر إلى جمالها في الماء وفي المرآة .

فالمرآة بالنسبة إلى الشمس لها معنى حرفيّ ؛ فهي لا تتجلّى بذاتها ، بل تتجلّى الشمس فيها .

إنّنا لا نستطيع أن نستغني عن النظر إلى الشمس ، وأنوارها وحرارتها ، ولمعانها لأنّها تهب الحياة ؛ ولا نستطيع أن ننظر في المرآة على نحو الاستقلال ؛ لأنّها في هذه الحالة لا تمثّل الشمس ، ولا تشكّل مظهراً لها ؛ ولا تعكس وجهها فيها . بل إنّ المرآة في هذه الحالة مظهر لنفسها ؛ إنّها زجاجة ؛ صقيلة ؛ وليس لها عنوان المرآتيّة حقّاً .

أمّا لو نظرنا في المرآة والماء على نحو تمثيليّ ومرآتيّ ؛ فلن نراهما آنذاك ، بل سنرى الشمس فيهما ؛ إذَن لابدّ أن ننظر في المرآة كي نرى الشمس ؛ ولا سبيل لنا غير ذلك ؛ وبعبارة علميّة فإنّ المرآة ما بِهِ يُنْظَرُ لا مَا فِيهِ يُنْظَرُ .

وهكذا فإنّ الوجود المقدّس لبقيّة الله عجّل الله تعالى فرجه مرآة تامّة الظهور للحقّ ؛ وينبغي أن نرى الحقّ في تلك المرآة ؛ لا أن نراها ، لأنّها لا ذاتيّة لها ؛ ولا يمكن أن نرى الحقّ بلا مرآة ، لتعذّر رؤيته بدونها .

وفي ضوء ذلك ؛ لابدّ من البحث والتنقيب عن الحقّ والسعي الدؤوب باتّجاهه ، وذلك عن طريق وليّه الأعظم ومرآته وآيته .

إنّ المخاطَب في الأدعية والمناجاة هو الله عن طريق ذلك الإمام وسبيله وصراطه ؛ ولهذا فلو عرضنا حاجتنا على الإمام نفسه ، وجعلناه المخاطب ؛ فلابدّ أن نلتفت إلى أنّه لا يتّخذ طابعاً استقلاليّاً ؛ ولا يتقمّص الاستقلال ؛ بل له عنوان الوساطة والمرآتيّة والآيتيّة ، ولنعش هذا المعنى في أذهاننا باستمرار ، ونأخذه بعين الاعتبار . وسنكون في عملنا هذا قد جعلنا الله . في الحقيقة . هو المخاطَب ؛ لأنّ المرآة بِمَا هِيَ مِرْآة لا تقبل النظر الاستقلاليّ ؛ بل النظر التَبَعيّ ؛ ويرجع النظر الاستقلاليّ إلى نفس الصورة المنعكسة فيها .

وهذه المسألة من أهمّ المسائل في باب العرفان والتوحيد : إذ إنّ كَثَرات هذا العالم لا تتنافى مع وحدة ذات الحقّ ؛ ذلك لأنّ الوحدة أصليّة ، والكَثَرات تَبَعيّة وظِلّيّة ومرآتيّة ؛ وتستبين مسألة الولاية جيّداً في أنّ حقيقة الولاية هي نفس حقيقة التوحيد ؛ وقدرة الإمام وعظمته وعلمه وإحاطته ، هي عين قدرة الحقّ تبارك وتعالى وعظمته وعلمه وإحاطته ، فلا اثنينيّة هنا .

بل لا معنى للطلب من الله بلا وساطة الإمام ومرآتيّته ؛ كما أنّ الطلب من الإمام مستقلاً لا معنى له بدون عنوان الوساطة والمرآتيّة لذات الحقّ المقدّسة أيضاً .

والطلب من الإمام ومن الله شيء واحد في الحقيقة ؛ وليس شيئاً واحداً في اللفظ والتعبير ، ومن الوجهة الأدبيّة والبيانيّة فحسب ، بل هو شيء واحد من منظار الحقيقة والواقع ؛ ذلك لأنّه لا شيء في الوجود غير الله . قال عزّ من قائل :

تَبَرَكَ اسْمُ رَبّكَ ذِى الْجَلَلِ وَالْإِكْرَامِ . (41)

لقد أخطأت هاتان الطائفتان (الوَهّابيّة ، والشَيْخيّة) ؛ لأنّنا إذا رفعنا عنوان المرآتيّة عن الممكنات سواء كانت مادّيّة أو مجرّدة ؛ أو أضفينا عليها عنوان الاستقلال ، فقد أخطأنا في كلتا الحالتين . والصواب هو لا هذا ولا ذاك ؛ بل الموجودات لها أثر الحقّ ؛ وهي صاحبة صفات الحقّ ، وهي مظاهر ومجالي ذاته وأسمائه الحسنى وصفاته العُليا .

إنّ مذهب الوهّابيّة يميل إلى الجبر ، ومذهب الشَيْخِيّة إلى التفويض ؛ وكلاهما على خطأ بَلْ أَمْرٌ بَيْنَ الْأَمْرَيْنِ وَمَنْزِلَةٌ بَيْنَ الْمَنْزِلَتَيْنِ ؛ وذلك هو إشراق نور ذات الحقّ الأقدس في الكثرات المادّيّة والمجرّدة .

ينكر مذهب الوَهّابيّة قدرة الحقّ وعلمه في الموجودات ؛ وينكر مذهب الشَيْخِيّة قدرة الحقّ وعلمه في ذاته نفسها ؛ فكلاهما قال بالتعطيل ، وكلاهما ضلّ السبيل .

إنّ وجود الحجّة بن الحسن أرواحنا فداه هو الظهور الأتمّ للحقّ . والمجلى الأكمل لذات ذي الجلال ؛ والغاية هو الله ، والإمام دليل مرشد إليه . ونحن إذا نظرنا في توسّلاتنا إلى الإمام مستقلّاً ، وأردنا لقاءه مستقلاً ، فلا نحن ظفرنا بفيضه ، ولا نحن ظفرنا بلقاء الله وزيارة المحبوب .

أمّا فيضه فلا نبلغه ، لأنّ وجوده ليس مستقلاً . ونحن قد ذهبنا وراء وجود استقلاليّ ؛ وأمّا لقاء الله فلا نظفر به ؛ لأنّنا لم نتوجّه إلى الله ؛ ولم نر الله في الإمام .

ولهذا فإنّ أغلب الذين يذوبون في عشق وليّ العصر والزمان ؛ وحتّى لو أفلحوا في زيارته ، فإنّهم أيضاً لا يتجاوزن الأهداف البسيطة والجزئيّة ؛ والحوائج المادّيّة والمعنويّة ؛ من هذا المنطلق فإنّهم لم ينظروا إلى الإمام على أنّه مرآة الحقّ وآيته ؛ وإلّا فإنّهم ينبغي أن يروا الله بمجرّد الرؤية والزيارة ؛ ويظفروا بوصال الحقّ عن طريق وصال الإمام ؛ لا أن يكون الإمام حجاباً بينهم وبين الحقّ ؛ فيرجونه قضاء حوائجهم الدنيويّة ، وغفران ذنوبهم ، وإصلاح أُمورهم .

وما أكثر الذين تشرّفوا بالحضور عنده ، وعرفوه ؛ لكنّهم لم يحترزوا من عرض مثل هذه الحاجات ؛ فطلبوا هذه الأشياء ! فلم يعرفوه حقّاً لأنّ معرفته هي معرفة الله ؛ مَنْ عَرَفَكُمْ فَقَدْ عَرَفَ الله .

ومن رام التشرّف بخدمته ، فعليه أن يزكّي نفسه ، وينشغل بتطهير سريرته ؛ وفي هذه الحالة يبلغ لقاء الله الذي يتطلّب لقاء الإمام ؛ ويصل إلى لقاء الإمام الذي يعني الظفر بلقاء الله بالملازمة ؛ حتّى لو لم يتشرّف في العالم الطبيعيّ الخارجيّ بالرؤية الحسيّة لجسم الإمام .

فالحجر الأساس في العمل هو معرفة حقيقة الإمام ؛ لا التشرّف برؤية جسمه المادّيّ الطبيعيّ . وما يظفر به من التشرّف بالحضور المادّيّ والطبيعيّ هو هذا المقدار اليسير من الرؤية فحسب . بَيدَ أنّ ما يظفر به من التشرّف بمعرفة حقيقته وولايته هو خلوص سريرته وطهارتها ؛ والحظوة بلقاء المحبوب : الله القادر المتعال . لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَمِلُونَ . (42)

وممّا يؤثر عن العلّامة بحر العلوم قدّس الله نفسه أنّه قضى عمراً في مجاهدة النفس الأمّارة وتزكية السريرة وتطهيرها وذلك للاستمتاع بالعرفان الإلهيّ ، وبلوغ مقام المعرفة والفناء والاندكاك في ذات الحقّ ؛ ومقامه في مراحل العرفان ومنازله مشهود من رسالته في السير والسلوك . وكان يتشرّف بخدمة الإمام عبر هذا المنظار ؛ منظار رؤية الحقّ وهو الله ، لا منظار رؤية النفس .

حقّ بين نظرى بايد تا روى تو را بيند

چشمى كه بود خود بين كى روى تو را بيند؟ (43)

ونقل عنه أنّه كان مشغولاً ذات يوم بقراءة النصّ الموجود في باب الحرم الحسينيّ الشريف المتعلّق بإِذْنِ الدخول للتشرّف بزيارة سيّد الشهداء عليه السلام . وما إن أراد الدخول حتّى وقف فجأة ، وكان

يحدّق النظر إلى زاوية من زوايا الحرم المطهّر ؛ وظلّ على وقفته برهة ، وهو يترنّم بهذا البيت :

چه خوش است صوت قرآن ز تو دلربا شنيدن

به رخت نظاره كردن سخن خدا شنيدن (44)

بعد ذلك سألوه عن سبب توقّفه ؛ فأجاب : كان الإمام المهديّ عجّل الله تعالى فرجه جالساً في تلك الزاوية ، وهو يتلو القرآن .

هذا هو معنى الوصول ؛ وهذه هي حقيقة الآيتيّة والمرآتيّة .

وما علينا إلّا أن نسعى جاهدين لترسيخ اعتقاداتنا ؛ وتشييد صرحها على أساس أصالة الواقع بأحسن وجه .

لقد أثار الوَهّابِيّة والشَيْخِيّة فتناً عظيمة من وحي التفكير الخاطئ ، وسفكت الدماء ، وقُتل المسلمون . وطفق محمّد بن عبد الوهّاب يبثّ دعوته مهتدياً بابن تيميّة الذي كان بدوره والهاً ومولعاً بابن تُومَرْت مدّعي المهدويّة في شمال إفريقية ، الذي استولى على قسم من إسبانيا ، والجزائر ، والمغرب ، وتونس خلال مائتي سنة ، وسمّوه : مَهْديّ المُوَحّدين . وكان محمّد بن عبد الوهّاب شريكاً لمحمّد بن سُعود . وسيفاهما مع سيوف أتباعهما تقطر دماً . وأنّى كانوا يمرّون فإنّهم يسفكون الدماء البريئة . وقد كفّروا المسلمين كافّة ، وكلّ من لا ينصاع لدعوتهما فإنّه كافر ويجب أن يقتل . إنّ فتنة الوهّابيّة هي فتنة عظيمة وغريبة حقّاً ، لا يزال العالم الإسلاميّ عاجزاً عن تضميد ما تركته من قرح ، وتعويض ما نجم عنها من أضرار وخسائر للمسلمين .

وأمّا الشيخ أحمد الأحسائيّ فإنّه لم يدرس الفلسفة . ولم يُلمّ بالعلوم العقليّة ؛ وأراد الاطّلاع على الحكمة المتعالية والعرفان الإسلاميّ ؛ فاندفع إلى ذلك ذاتيّاً بلا أُستاذ يُعلّمه ويوجّهه ؛ فلا هو مسّ العرفان ، ولا هو لمس الحكمة . وقد رأى بنفسه أن يطلق على نفسه مجتهداً في هذا الفنّ ؛ وأضحى مؤسّساً لمدرسة عقائديّة خاصّة . وكان يتكلّم في كتبه ببذاءة عن الكبار من حكماء الإسلام كالمولى صدر المتألّهين الشيرازيّ ، وعرفاء الإسلام كمحي الدين بن عربي . ولم يسلم منه حتّى بعض العلماء الذين كان لهم مقام الشمول في التفسير والحديث كالملّا محسن فيض الكاشانيّ . وكان الأحسائيّ يتهجّم على هؤلاء وأمثالهم ، ويلصق بهم التهم الرخيصة التافهة .

فكان يطلق على مُحي الدين بن عربي : مُمِيتُ الدّين ، ويسمّي فُتُوحاتِهِ : حُتُوفات ، ويقول : هو كافِر ومُلْحِد ، ويعتبر عباراته : مُزَخْرَفَات . ويرى أنّ الفَيْض الكاشانيّ من أهل الغيّ والضلال ، ويسميّه : الملّا مُسيء بديلاً عن الملّا محسن ، ويخاله وأمثالَه من المخالفين لمذهب أهل البيت والعصمة الذين أَذْهَبَ اللَهُ عَنْهُمُ الرّجْسَ وَطَهَرَهُمْ تَطْهِيراً ، ويرى نفسه من أهل الكشف والشهود والمعاينة ، ومن السائرين على مذهب أهل بيت العصمة ، (45) ويشير في هذه الافتراءات غير الصحيحة إلى مواضيع تدل على أنّه لم يستوعبها ولم يهضمها كما هي ، وهذا ممّا يقف عليه كلّ من درس العلوم العقليّة والإلهيّة .

كان الشيخ أحمد الأحسَائيّ واضع حجر الأساس لطائفة الشَيْخيّة ؛ وهو معلّم السيّد كاظم الجيلانيّ

الرشتيّ ومربّيه ؛ وهذا كان معلّم ومربّي السيّد علي محمّد البَاب مؤسّس الطائفة البابيّة ، وأخيراً البهائيّة . (46)

وإنّ ما قام به هؤلاء من أعمال كادّعاء المهدويّة والإلوهيّة ، وإثارة الفتن والاضطرابات والنكبات ، وإراقة الدماء ، والفساد ، والمنكرات ، لا زالت معالمه قائمة .

وكان الشيخ أحمد زاهداً ؛ وزهده هذا هو الذي غرّ البعض وأوقعهم في لبس ، فهؤلاء لم يفرّقوا بين الزهد والعرفان . لذلك بالغوا في مدحه وتمجيده للوهلة الأُولى ؛ ثمّ اعتذروا متراجعين عن كلامهم السابق .

يقول صاحب كتاب «روضات الجنّات» في ترجمته : تَرْجُمَانُ الْحُكَمَاءِ الْمُتَأَلِّهِينَ وَلِسَانُ الْعُرَفَاءِ وَالْمُتَكَلِّمِينَ . وبعد تمجيد وثناء كثيرين (47) في ترجمة الحافظ رَجَب البُرْسِيّ ، يعرّج على نقد الأحسائيّ والطعن فيه وتعييره وذمّه إلى أن بلغ من ذلك مبلغاً فقال : وَلَا يَذْهَبْ عَلَيْكَ غِبّ مَا ذَكَرْتُهُ لَكَ أَنّ مَنْزِلَةَ ذَلِكَ الشّيْخِ الْمُقَدّمِ مِنْ هَذِهِ الْمُقَلّدَةِ الْغَاوِيَةِ إنّمَا هِيَ مَنْزِلَةُ الْعُلُوجِ الثّلَاثَةِ الّذِينَ ادّعَوُا النّصْرَانِيَةَ وَأَفْسَدُوهَا بِإظْهَارِهِمُ الْبِدَعَ الثّلَاثَ مِنْ بَعْدِ أَنْ عُرِجَ بِنَبِيّهِمُ الْمَسيحِ عِيَسى ابْنِ مَرْيَمَ عَلَيهِ السّلَامُ . (48)

ويرى أنّ طائفة الشيخيّة البُشّت سَريّة طائفة ضالّة ، وأنّ مخالفيهم المعروفين بالبالاسريّة من أهل الاستقامة ؛ (49) وبعد ذلك يذكر شرحاً مفصّلاً حول فتنة البابيّة . (50)

إنّ هاتين الطائفتين منفصلتان عن الإسلام : الوَهّابيّة والْبَهَائِيّة . وكما أنّنا لا نستطيع أن نعتبر البهائيّة من فِرَق الشيعة ، كذلك لا نستطيع أن نعتبر الوَهّابيّة من فِرَق العامّة ، لأنّ هؤلاء مخالفون للعامّة ؛ والعامّة أيضاً تنظر إليهم على أنّهم ليسوا منها . وهدم قبور الأئمّة الطاهرين من أجلى الصور التي تدلّ على مخالفتهم للإسلام . وهناك كثير من الأشخاص لا ينسجمون مع العرفان والحكمة ويندّدون بهما بذريعة المحافظة على مدرسة أهل البيت عليهم السلام وإسنادها . ويرى هؤلاء أنّ مدرسة أهل البيت بريئة من هذه الأشياء ، ولا علاقة لها بها . وهؤلاء هم ذوو الأُفق الضيّق الذين انتهجوا الخطّ الأخباريّ واكتفوا بظواهر الأخبار دون دراية ودقّة تامّة في محتواها ومغزاها ، وأرادوا الانتهال والارتواء من علوم آل محمّد وَهَيْهَاتَ وَأَنّى لَهُمْ ذَلِكَ ؟

وهل جاءت علوم آل محمّد لغير ذوي الألباب حتّى لا نحتاج إلى المسائل العقليّة والمعقولة لفهمها وإدراكها ؟ لا ، ليس كذلك . بل هم منهل العقل والدراية ، ولهم كلمات يتعذّر علينا أن نستضيء بها ما لم نتعرّف على العلوم العقليّة والمقدّمات البرهانيّة ؛ وشرح الحديث والرواية على ظاهرهما هو غير فهم حقيقتهما واستيعابها . ولقد ظنّ هؤلاء المساكين أنّهم استوعبوا الحديث من خلال شرح عباراته ، فهم يقولون : هل درس أصحاب الأئمّة الفلسفة ؟

إنّ متكلّمين من أمثال هِشَامِ بْنِ الْحَكَمْ ومُحَمّد بْنِ النُعْمَان الأَحوَل : مُؤمِن الطّاق كانوا على إلمام تامّ بالعلوم العقليّة ؛ وكان لهم باع طويل في مفردات ذلك العصر .

يقول المرحوم العلّامة الأمينيّ في كتابه الشريف «الغدير» في كتاب زيد الزَرّاد عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال : قال أبو جعفر عليه السلام :

يَا بُنَيّ اعْرِفْ مَنَازِلَ شِيعَةِ عَلِيّ عَلَى قَدْرِ رِوَايَتِهِمْ وَمَعْرِفَتِهِمْ ، فَإِنّ الْمَعْرِفَةَ هِيَ الدّرَايَةُ لِلرّوَايَةِ ؛ وَبِالدّرَايَاتِ لِلرّوَايَاتِ يَعْلُو الْمُؤمِنُ إِلَى أَقْصَى دَرَجَةِ الإِيمَانِ .

إنّي نَظَرْتُ فِي كِتَابِ عَلِيّ عَلَيهِ السّلَامُ فَوَجَدْتُ فِيهِ : إنّ زِنَةَ كُلّ امْرِئٍ وَقَدْرُهُ مَعْرِفَتُهُ ؛ إنّ اللّهَ يُحَاسِبُ الْعِبَادَ عَلَى قَدْرِ مَا آتَاهُمْ مِنَ الْعُقُولِ .

وجاء في كتاب «غيبة النعمانيّ» ص 70 في حديث عن الإمام الصادق عليه السلام :

خَبَرٌ تَدْرِيه خَيْرٌ مِنْ عَشْرٍ تَرْوِيهِ ، إنّ لِكُلّ حَقّ حقيقَةً وَلِكُلّ صَوَابٍ نُوراً .

وجاء في كتاب «كشف الغُمّة» للشعرانيّ ج 1 ، ص 40 :

كَانَ عَلِيّ بْنُ أَبي طَالِبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يَقُولُ : كُونُوا لِلْعِلْمِ وُعَاةً ! وَلَا تَكُونُوا لَهُ رُوَاةً .

إنّ ما يحكيه تأريخ الفلسفة هو أنّ الحكماء جميعاً إمّا كانوا يقولون بأصالة الوجود أو بأصالة الماهيّة ؛ لأنّ لكلّ مذهب مناوئيه ؛ وكلّ منهما يقيم الأدلّة لصالحه ضدّ الآخر ؛ ومع أنّ أصالة الوجود هذا اليوم أوضح من الشمس والحمد لله ؛ إلّا أنّ الشيخ أحمد الأحسائيّ الذي درس الحكمة وحدها ، ودوّخته الشبهات القويّة التي يطرحها الطرفان ، قال : ما هو الإشكال المثار إذا كان كلا الأصالتين صحيحاً ؟ أي أن يكون لِأَصلي الوجود والماهيّة في العالم أصالة وواقعيّة . وهذا الكلام على درجة من السخف عند الفلاسفة ، بل وعند كلّ عاقل ؛ بل وكلّ مجنون ؛ بل وكلّ بهيمة همّها علفها . إذ إنّ النعجة ترى باقة العلف شيئاً واحداً لا شيئين . نعم ، على درجة من السخف بحيث إنّه لا يستحقّ الذكر أبداً .

وحينئذٍ يشيعون أُطروحاتهم من وحي هذا التفكير ، ويوسّعون من دائرة أفكارهم ويبدأون بانتقاد الفلسفة والعرفان ؛ ويقولون : لا وجود لفلسفة في القرآن وعلوم أهل البيت ؛ والعرفان أمر مخترع مبتَدع ولا أساس له في الشريعة .

وينبغي أن نقول لهؤلاء المساكين من ذوي الأُفق الضيّق : ألم يدعُ القرآن الكريم إلى التعقّل ؟ ألم تدلّ الحكمة على طريق التعقّل ، وتفرز الصواب من الخطأ ؟ ثمّ ألم يدعُ القرآن الكريم إلى الحكمة ؟ أَوَ ليست الحكمة هي معرفة حقائق الأشياء وفقاً لوسع الإنسان وحجم استعداده ؟ أَوَ لم يدلّ العرفان على طريق شهود الباري تعالى بالبصيرة وإدراك أسمائه وصفاته الحسنى ؟ أَوَ لم يزخر القرآن الكريم وروايات أهل البيت بالدعوة إلى لقاء الله وتزكية النفس وتهذيبها وطيّ طريق الإخلاص والخلوص ؟

فكيف يروق لنا . إذَن . أن نفصل الدين الذي يرتكز على التفكّر العقلانيّ والشهود الوجدانيّ عن هذين الأصلين الأصيلين والركنين الركينين ؟! ثمّ نقول : حسبنا ظواهر الروايات ؟

يقولون : يجب اتّباع مدرسة الباقر والصادق والسير وراء ما قالاه وصرّحا به دائماً وأبداً . وهذا الكلام صحيح ، لأنّه مضافاً إلى ما يحمله من دعوة إلى التعبّد بالمذهب والانشداد إليه ، فإنّه ينطق بالحقّ ، إذ ليس في العالم مدرسة تماثل مدرسة الإمام الصادق من حيث النظرة الواقعيّة ، والأصالة والنزوع إلى الأصالة ؛ إلّا أنّ زبدة الكلام هنا هي : هل يتسنّى لكلّ أحد أن يفهم ما قال الباقر وما قال الصادق ؟ وهل يستوعب العاميّ كُنْه ما يقولانه ؟ لا ، ليس كذلك .

فأخبارهما كالقرآن الكريم لها محكم ومتشابه ، وناسخ ومنسوخ ، ومطلق ومقيّد ، ومجمل ومبيّن ،

وعامّ وخاصّ ، وباطن وظاهر ؛ فمن يمكنه أن يزعم أنّه يحمل كتاب الأخبار معه دائماً ويقرأ فيه باستمرار ويستوعب ما يضمّه من مغزى ومحتوى ؟ هذا كلام فيه مبالغة حقّاً .

يقول الجميع : قال الصادق ؛ كلمة يقولها الشيخيّ ، والأخباريّ والأُصوليّ ، والإسماعيليّ ؛ فلماذا إذَن اتّسعت شقّة الخلاف في الخطّ والعقيدة إلى هذه الدرجة ؟ فقول : قال الصادق وحده لا يكفي ما لم نستوعب معناه ومحتواه ، ونوظّف العقل لأجل ذلك . أوَ لم يتكلّم معنا أُولئك العظماء عن طريق قوانا العقليّة ، وعن طريق تفكّرنا ودرايتنا ؟ إذَن ، كيف يمكننا أن نطلّق العقل تماماً ونقول : حسبنا مدرسة أهل البيت ؟! أُناشدكم الله ، أليس هذا الكلام مرتكزاً على تفكّير عقليّ ؟ ألا يلزم من وجوده عدمه ؟ ألا يبطل نفسه بنفسه ؟

إذَن ، ما أقصر التفكير الذي يقتنع بالظواهر ؛ وينأى عن كُنه المعاني التي أدلى بها صاغة الكلام المنطقيّون ونحارير البلاغة وليوث أجمة العرفان والمعرفة ؛ ويكتفي بذلك !

كذلك فإنّ الفرق الإسلاميّة جميعها تقول : كتاب الله ، كتاب الله . الشيعة تقول ذلك ، والسنّة ، والأشاعرة ، والمعتزلة ، والوهّابيّة ، وغيرهم ؛ لكن ، هل اقتفى الجميع طريق الحقّ ؟! وهل استوعبوا كتاب الله كما هو ؟! إنّ أُولئك الذين قالوا : كتاب الله . أرادوا أن يدينوا أمير المؤمنين بذلك ، وأرادوا من وراء كلمتهم لَا حُكْمَ إلّا لِلَهِ ، وهي كلمة حقّ يُرادَ بِهَا الْبَاطِلُ ، أن يضربوا مصدر التشريع وحقيقة الحكم ، على الأرض ، أوَ لم يكن هذا التوجّه خاطئاً ؟

لقد تذرّعوا برواية لا سند لها أو ضعيفة ورد فيها النهي عن الخوض في الفلسفة ، مستغلّين ذلك بنحو خاطئ ، وصاروا يدينون كلّ طريق من طرق التفكّر والتعقّل ، وذلك لما ورد من نهي عن الفلسفة على حدّ زعمهم .

ألا يقول أحد لهؤلاء : أيّ فلسفة تقصدون ؟! هل هي فلسفة المادّيّين والدهريّين والحكماء الذين عاشوا قبل الإسلام من الفرس والمصريّين والهنود واليونانيّين ؟ أو أنّها فلسفة الإسلام اللامعة المتألّقة ذات العظمة والأُبّهة والجلال ؟ إنّ كتب صدر المتألّهين الشيرازيّ رضوان الله عليه تبعث على الفخر والاعتزاز لعالم التشيّع بل وللعالم الإسلاميّ أجمع . فدراسات هذه العقليّة الجبّارة وتنقيباتها وتدقيقاتها في زوايا الآيات والروايات مفتاح مهمّ لحلّ المشاكل الأساسيّة في طريق المعرفة والتقدّم . إذَن ، ليس من الشهامة والمروءة أن نستبدل الفلسفة بالفلسفة الإسلاميّة في شعوذة نتيجة للتشابه اللفظيّ بينهما ، ونصبّ ذلك الشكل المنهيّ عنه في هذا الشكل المقبول والمعروف .

وكم هو بعيدٌ عن الشهامة والمروءة أن ندين أمير المؤمنين بكلمة لَا حُكْمَ إلّا لِلَهِ . ونُحاجّ رسول الله ونخاصمه بآيات القرآن التي جاء بها .

كم هو بعيدٌ عن الشهامة والمروءة أن نستغلّ التشابه اللفظيّ للتصوّف والصوفيّة ، فنوصد طريق الشهود والوجدان والعرفان ولقاء الله تماماً . وكم هو بعيد عن الشهامة والمروءة أن نوازن بين المدرسة التي تضمّ أمثال السيّد ابن طاووس ، والشهيدين ، والنراقيّين ، والسيّد مهدي بحرالعلوم ، وابن فَهْد الحلّيّ ، والمجلسيّ الأوّل ، والسيّد عليّ الشوشتريّ ، والشيخ الأنصاريّ ، والآخوند الملّا حسين قلي الهمدانيّ ، وتلاميذها الذين تزخر بهم ، وبين مدرسة تضمّ أمثال الحسن البصريّ ، ومحمّد بن المُنكدر ، وسفيان

الثوريّ وأمثالهم من الذين يظنّون التصوّف طريقاً مستقلاً وذلك للانفصال عن الأئمّة . وعن طريق كلمة الصوفيّة التي ورد ذمّها في بعض الروايات ، نجعل الجميع تحت مهماز هذه الكلمة جهلاً أو عمداً وتجاهلاً من خلال تطبيق هذا العنوان ، ونضربهم بسوط الإبعاد والتكفير والتفسيق والكلمات النابية الجارحة والتهم الهوجاء الجوفاء .

إنّ التعرّف على ظواهر القرآن وظواهر الروايات بدون تكميل القوّة العاقلة ، يعقبه ظنّ الإنسان بنفسه أنّه مستنبط وذو رأي لا ينتج غير التخبّط في الممارسات ، والخطأ في الأعمال ، كما نجد ذلك عند مؤسّسي الوهّابيّة والشيخيّة ، وهو ممّا يفضي إلى الدمار والمحق .

وما علينا . بحمد الله وحسن توفيقه . إلّا أن نلتفت إلى أنّنا لا نسير وراء آراء الشيخيّة وأفكارها من حيث لا نشعر ؛ ذلك لأنّ مخالفة السير إلى الله ، ومعاداة العرفان ، والنظر إلى إمام الزمان على نحو الوجود المستقلّ ، كلّ ذلك من مختصّات الشيخيّة ، ولو كان هذا ، دأبنا ، فإنّنا انتحلنا عقيدتهم مِنْ حَيْثُ لَا نَشْعَرُ .

إنّ مجالس التوسّل بوليّ العصر ومحافله هي في غاية الحسن والجودة . بَيدَ أنّ التوسّل الذي يُقْصَدُ من ورائه الحقّ ؛ والوصول إلى الحقّ ؛ ورفع الحجب الظلمانيّة والنورانيّة ؛ وكشف حقيقة الولاية والتوحيد ؛ وحصول العرفان الإلهيّ والفناء في ذاته المقدّسة ، هو التوسّل المرغوب والمحمود . ولذلك فإنّ انتظارالفرج حتّى في عصر الأئمّة عليهم السلام أنفسهم كان يعتبر من أعظم الأعمال وأكثرها فضيلة .

إنّ التوسّل بحقيقة ولاية الإمام لكشف حجب الطريق من أفضل الأعمال ؛ لأنّ توحيد الحقّ من أفضل الأعمال . كما أنّ انتظار الظهور الخارجيّ للإمام بوصفه مقدّماً على ظهوره الباطنيّ وكشف ولايته مفيد . وانتظار الظهور الخارجيّ محبوب ومحمود في ضوء ذلك .

وإذا كنّا نرمي إلى الظهور الخارجيّ وحده دون القصد إلى تلك الحقيقة ومحتواها ، فقد بعنا الإمام بِثَمَنٍ بَخسٍ حينئذٍ ؛ وبالتالي فنحن المتضرّرون كثيراً ؛ لأنّ المراد والمقصود ليس التشرّف بحضوره الطبيعيّ ؛ وإلّا فإنّ كثيراً من الناس كانوا يرون الأئمّة في عصورهم ويحضرون عندهم ؛ ويتكلّمون معهم ؛ بَيدَ أنّهم كانوا لا خلاق لهم من حقيقتهم . ولو كنّا في مجالس التوسّل ، أو عند الاختلاء بأنفسنا توّاقين إلى لقائه ؛ ورزقنا الله ذلك ، ولم تكن غايتنا لقاء الله وحقيقة الولاية ، فإنّنا نتشرّف برؤيته على نفس النسق الذي كان الناس به يتشرّفون برؤية الأئمّة والحضور عندهم آنذاك . وأنّه لغَبْن وضرر كبير أن نتشرّف بخدمته بعد الجدّ والجهد والكدّ والسعي ، بينما ليس لدينا هدف أعلى وأسمى من اللقاء الظاهريّ . وهذا اللقاء في الحقيقة لرفع الشكّ والشبهة عن وجوده وطول عمره . أو أن نتوجّه إليه في قضاء حوائجنا الماديّة ورفع ما يهمّنا من أُمورنا الخاصّة أو العامّة ؛ وهو أمر كان متيسّراً لجميع الناس الذين شهدوا عصر الأئمّة عليهم السلام بدون مشقّة التوسّل .

على أنّ الشيء القيّم حقّاً هو التشرّف بحقيقة الإمام وبلوغها ، والشوق إلى لقائه من حيث آيتيّة الحقّ سبحانه وتعالى ؛ وهذا هو المهمّ ؛ وهو من أفضل الأعمال ؛ ومثل هذا الانتظار للفرج يحيي

القلوب وينعش النفوس ويطيّب الأرواح رَزَقَنَا اللَهُ وَإيّاكُمْ إن شَاءَ اللَهُ بِمُحَمّدٍ وَآلِهِ الطّاهِرِينَ .

ما هي القيمة من وراء العلم بزمن ظهوره الخارجيّ لنا ؟ ولذلك فقد ورد في الأخبار النهي عن التفحّص والتجسّس في مثل هذه الأُمور .

افرضوا أنّنا عرفنا زمن ظهوره عن طريق علم الجَفْر والرَمْل الصحيح ، فماذا نفعل حينئذٍ ؟ وما هو واجبنا ؟ إنّ واجبنا هو تهذيب النفس الأمّارة وتزكيتها وإعدادها للقبول والتضحية والإيثار .

إنّنا مكلّفون بهذه الأُمور دائماً ؛ وما علينا إلّا أن نعيش أجواء تهذيب النفس وتزكيتها ، وتطهير الضمير ؛ سواء عرفنا وقت ظهوره أو لم نعرف ذلك ؛ ولو أخلصنا نيّاتنا وتأهّبنا لذلك فسيحالفنا الحظّ والتوفيق بلقائه الحقيقيّ ؛ ولو لم نكن كذلك ، فإنّنا لن نقطف شيئاً ذا بال من وراء لقاء جسمه العنصريّ والمادّيّ ؛ ولا نحصل على نتيجة من هذا اللقاء .

ولذلك نرى كثيراً من الأشخاص الذين أقاموا في مسجد السَهْلَةَ أو في مسجد الكوفة أو في غيرهما من الأماكن المقدّسة أربعينيّات متعدّدة لزيارة الإمام وظفروا بذلك ، إلّا أنّهم لم يحصلوا على شيء مهمّ من تلك الزيارة .

وما ينبغي ذكره أكثر من غيره هو أنّ الظهور الخارجيّ والعامّ لم يقع للإمام بعد ؛ ومرتبط بأسباب وعلامات لابدّ من تحقّقها ؛ إلّا أنّ الظهور الخاصّ والباطنيّ ممكن للبعض ؛ وبكلمة بديلة : إنّ سبيل الوصول إلى الإمام والتشرّف بخدمته مفتوح للجميع ، غاية الأمر أنّه يحتاج إلى تهذيب الأخلاق وتزكية النفس .

وكلّ من نوى لقاء الله هذا اليوم ، وجاهد نفسه لهذا الهدف ، فيسحظى بظهور الإمام الشخصيّ والباطنيّ دون أدنى شكّ ، ذلك لأنّ لقاء الحقّ لا يتحقّق بدون اللقاء الآيتيّ والمرآتيّ للإمام .

وَمُحَصّلُ الْكَلَامِ هو : أنّ طريق التشرّف بحقيقة ولاية الإمام مفتوح ؛ وهذا هو المهمّ ؛ إلّا أنّه يحتاج إلى مجاهدة النفس الأمّارة وتزكية الأخلاق وتطهير الباطن ؛ وكذلك يحتاج إلى السير والسلوك في طريق عرفان الحقّ سبحانه وتعالى وتوحيده ؛ سواء تحقّق الظهور الخارجيّ والعامّ للإمام عاجلاً أو لم يتحقّق .

وذلك لأنّ الله جلّ شأنه غير ظالم ؛ ولا يمنع فيضه ؛ ولم يوصد طريق الوصول أمام المشتاقين التوّاقين .

هذا الباب مفتوح دائماً ؛ ويرحّب بدعوة المحبّين والمشتاقين والعاشقين ملبيّاً لها .

فما على عشّاق الجمال الإلهيّ والمشتاقين إلى لقائه جَلّ وَعَلَا إلّا أن يجدّوا في طريق سير عرفانه وسلوكه بخطى ثابتة وطيدة : ويوصلوا أنفسهم إلى النقطة المنشودة بالتهذيب والتزكية ، والمراقبة الشديدة ، والاهتمام بالواجبات الإلهيّة ، والتكاليف السبحانيّة ، وحينئذٍ . شاء الإنسان أم أبي . فإنّهم سيحبرون بالطلعة المنيرة لإمام الزمان وقطب دائرة الإمكان الذي يمثّل وسيلة الفيض وواسطة الرحمة الرحمانيّة والرحيميّة للحقّ .

ويتمتّعون بكلّ السبل المفيدة لتكميل نفوسهم ؛ ويستثمرون جميع الاستعدادات الفطريّة من أجل التطبيق العمليّ لها بغية الوصول إلى نقطة الكمال .

وَفّقَنَا اللهُ تَعَالَى وَإيّاكُم بِمَحَمّدٍ وَآلِهِ صَلّى اللَهُ عَلَى مُحَمّدٍ وَآلِهِ .

وينبغي هنا أن نأخذ بعين الاعتبار ثلاث نقاط : الأُولى : أنّ غيبة الإمام هي من جانبنا لا من جانبه . أي : أنّنا حرمنا أنفسنا من زيارته بسبب ذنوبنا وأنانيّاتنا وتوجّهاتنا الاستكباريّة ، لا أنّه هجر نفسه وأخفاها عنّا ، وبعبارة أُخرى ، هو غائب عنّا ، ونحن غير غائبين عنه .

الثانية : أنّ قدرة الإمام وعلمه وإحاطته وسيطرته على الأُمور ، كلّ ذلك لا يتوقّف على عصر الظهور بحيث نتصوّر أنّها ليست له قبل الظهور ، وإذا ما ظهر فسوف تكون له . بل هو في الحالين يتمتّع بالهيمنة والسيطرة والإحاطة التكوينيّة ، وهي كلّها لازمة لولايته الكلّيّة ؛ إلّا أنّ هذا الأمر محجوب عن أنظار الناس ، وعن إدراك العقول والنفوس قبل الظهور ، وسيتجلّى بعد الظهور .

الثالثة : أنّ القدرة العمليّة للإمام وسعته العلميّة وإحاطته التكوينيّة بالأُمور لا تنحصر في أعمال الخير والبرّ والإحسان التي نراها خيراً ؛ بل هي الهيمنة والسَيْطَرة على جميع الأُمور خيرها وشرّها ، وبشكل عامّ على كلّ عمل ، وكلّ فعل ، وكلّ موجود من الموجودات ؛ لأنّ العالم كلّه خيرات على أساس النظام الكلّيّ لعالم التكوين ، ولا شرّ فيه أبداً ، والشرّ أمر عَدَميّ ليس من الله ، وليس من وليّه ؛ والشّرّ لَيْسَ إلَيْكَ .

إذَا سَفَرَتْ فِي يَومِ عِيدٍ تَزَاحَمَتْ
عَلَى حُسنِهَا أَبْصَارُ كُلّ قَبِيلَةِ
فَأَرْوَاحُهُمْ تَصْبُو لِمَعْنَى جَمَالِها
وَأَحْدَاقُهُمْ مِنْ حُسْنِهَا فِي حَدِيقَةِ
وَعِنْدِىَ عِيدِي كُلَّ يَوْمٍ أَرَى بِهِ
جَمَالَ مُحَيّاهَا بِعَيْنٍ قَرِيرَةِ
وَكُلّ اللّيَالِي لَيْلَةُ الْقَدْرِ إنْ دَنَتَ
كَمَا كُلُ أَيّامِ اللّقَا يَوْمُ جُمْعَةِ
وَسَعْيِي لَهَا حَجّ بِهِ كُلّ وَقْفَةٍ
عَلَى بَابِهَا قَدْ عَادَلَتْ كُلّ وَقْفَةِ
وَأَيّ بِلَادِ اللَهِ حَلّتْ بِهَا فمَا
أَرَاهَا ، وَفِي عَيْنِي حَلَتْ ، غَيْرَ مَكّةِ
وَأَيّ مَكَانٍ ضَمّهَا حَرَمٌ كَذَا
أَرَى كُلّ دَارٍ أَوطَنَتْ دَارَ هِجْرَةِ
وَمَا سَكَنَتْهُ فَهْوَ بَيْتٌ مُقَدّسٌ
بِقُرّةِ عَيْنِي فِيهِ أَحْشَايَ قَرّتِ
وَمَسْجِدِيَ الْأَقْصَى مَسَاحِبُ بُرْدِهَا
وَطِيبِي ثَرَى أَرْضٍ عَلَيْهَا تَمَشّتِ

نَهَارِي أَصِيلٌ كُلّهُ إنْ تَنَسّمَتْ

أَوَائِيلُهُ مِنْهَا بِرَدّ تَحِيّتي

وَلَيْلِيَ فِيهَا كُلّهُ سَحَرٌ إذَا

سَرَى لِيَ مِنْهَا فِيهِ عَرْفُ نُسَيْمَةِ

وَإنْ طَرَقَتْ لَيْلًا فَشَهرِيَ كُلّهُ

بِهَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ابْتِهَاجاً بِزَوْرَةِ

وَإنْ قَرُبَتْ دَارِي فَعَامِيَ كُلّهُ

رَبِيعُ اعْتِدَالٍ فِي رِياضِ أَرِيضَةِ

وَإنْ رَضِيَتْ عَنّي فَعُمْرِيَ كُلّهُ

زَمَانُ الصّبَا طِيباً وَعَصْرُ الشّبِيْبَةِ (51)

تعليقات:

1) الآية 196 ، من السورة 7 : الأعراف .

2) الآية 14 ، من السورة 6 : الأنعام .

3) الاية 9 ، من السورة 42 : الشورى .

4) الآية 28 ، من السورة 42 : الشورى .

5) الآية 107 ، من السورة 2 : البقرة ؛ والآية 22 ، من السورة 29 : العنكبوت ؛ والآية 31 ، من السورة 42 : الشورى .

6) الآية 4 ، من السورة 66 : التحريم .

7) الآية 55 ، من السورة 5 : المائدة .

8) الآية 139 ، من السورة 4 : النساء .

9) الآية 10 ، من السورة 35 : فاطر .

10) الآية 8 ، من السورة 63 : المنافقون .

11) التعريب :«إنّ بين قمري معشوقي وبين القمر في السماء فرقاً كفرق الأرض إلى السماء .

إنّ حبّة الفلفل سوداء والخال في وجه المحبوب الوسيم أسود وكلاهما يحرق الروح ، لكن شتّان بينهما .

سكّر مازندران حلو وسكّر الهند حلو ، ولكن شتّان بينهما» .

12) نهج البلاغة» ج 2 ، طبعة عبدة ص 32 ، و«الاحتجاج» للطبرسيّ ، طبعة النجف ج 2 ص 260 .

13) وتعريبها : إنّ نور الذات الإلهيّة لا تستوعبه المظاهر ، وذلك لأنّ سبحاتها وأنوارها وعظمة جلالها كلّها قاهرة .

عندما يكون نور الحقّ دليلاً ، فما هو تأثير كلام جبرئيل ؟

إنّ نور العقل فيالذات الإلهيّة النيّرة كعين الإنسان في عين الشمس .

14) وتعريبها : شتّان بين التراب وبين عالم الطهر والنقاء إذ إنّ غاية إدراك الإنسان هو العجز عن إدراكه .

عندي كلام في هذا المشهد الذي تتجلّى فيه الأنوار ولكن من الأفضل أن لا أبوح به .

إذا أردت أن تنظر إلى عين الشمس (النور الإلهيّ) فإنّك تحتاج إلى عين أُخرى تنظر بها .

وذلك لأنّ هذه العين لا طاقة لها على النظر ، لكنّها تستطيع أن ترى الشمس المشرقة في الماء .

وهذه الشمس المنعكسة في الماء لمّا كان نورها أقل ، فهي تضاعف من إدراكك وبصيرتك .

إنّ العدم هو مرآة الوجود المطلق ، ومنه تشعّ أنوار الحقّ المتألّقة .

عندما يكون العدم في مقابل الوجود ، تتجلّي فيه صورة آناً .

15) وتعريبها : تظهر الوحدة من هذه الكثرة ، وإذا عددت واحداً ، فإنّ الواحد يتعدّد .

إنّ العدد وإن كان في البداية واحداً ، بَيدَ أنّه ليس له نهاية مطلقاً .

ولمّا كان العدم بذاته نقيّاً صافياً ، فقد ظهر منه الكنز المخفي .

اقرأ الحديث القدسيّ : كنتُ كنزاً ... لترى الكنز المخفي واضحاً أمام عينيك .

العدم (الذات الأحديّة . م.) كالمرآة ، والعالم صورة قد انعكست في تلك المرآة ، والإنسان كإنسان عين ذلك العالم وقد اختفت فيها كلّ الصور . (فصار الإنسان محوراً للعالم الكبير ، ومِن ثَمّ مرآةً للذات الأحديّة . م) .

أنت أيّها الإنسان عين العالم وهو [الله] نور الباصرة ، ومن يستطيع أن يرى عينه بواسطة عينه نفسها ؟

لقد جمع العالم في وجود الإنسان وأصبح الإنسان عالميّاً ، ولن يكون هناك كلام أفضل وأنقى من هذا الكلام .

16) گلشن راز» منشورات مكتبة أحمدي في شيراز سنة1954م،من ص12إلى ص 14.

وتعريبها : عندما تنظر جيّداً في أصل خلق العالم ، ترى أنّ الله هو البصير ، وهو البصر ، وهو البصيرة .

قد بيّن الحديث القدسيّ هذا المعنى ووضّحه بقوله : بي يسمع ، وبي يبصر .

17) كشف الغمّة» ص . 271

18) سفينة البحار» مادّة حدث ج 1 ، ص 299 ، . 230

19) الفصول المهمّة» مطبعة العدل ، النجف ، ص 235 ، . 236

20) أعيان الشيعة» ج 4 ، القسم الثاني ص . 118

21) أُصول الكافي» ج 2 ، ص 18 : و«المحاسن» ج 1 ، حديث 429 ، ص . 286 وجاء في «الكافي» أيضاً من ص 18 إلى ص 21 ، وفي «المحاسن» ص 286 عدد من الروايات الأُخرى بهذا المضمون مع سلسلة من رواة آخرين رووها عن الباقر ، والصادق عليهما السلام .

22) صحيح مسلم» ج 1 ، كتاب الإيمان ص 35 ، وفي ص 34 ، و35 ثلاث روايات أُخرى عن رسول الله بهذا المضمون .

23) استدلّ البعض على عدم جواز الطواف حول القبور برواية الحَلَبيّ عن الإمام الصادق . ورواية محمّد بن مسلم عنه أو عن أبيه الباقر عليهما السلام إذ قال : وَلَا تَطُفْ بِقَبْرٍ . بَيدَ أنّ هذا الاستدلال باهت ضعيف لا يُعوّل عليه ؛ لأنّ المقصود بالطَوْف في هاتين الروايتين هو التغوّط عند القبر لا الدوران حوله ! والشاهد على ذلك ما قاله أئمّة اللغة في كتبهم مثل : «صحاح اللغة» ، و«تاج العروس» ، و«لسان العرب» وغيرها . يقول صاحب «شرح القاموس» في مادّة طَوْف : والطَوْف : الغائط . طاف : إذا ذهب إلى البراز ليتغوّط مثل إطّافَ من باب الافتعال . وفي «مجمع البحرين» : والطَّوْفُ : الْغَائِطُ ومنه الخبر : لا يُصَلّ أَحَدُكُمْ وَهُوَ يُدافِعُ الطَّوْفَ ؛ وجاء في الحديث أيضاً : لَا تَبُلْ في مَاءٍ مُسْتَنْقَعٍ وَلَا تَطُفْ بِقَبْر ! ل

ل وضمن بحثنا في بعض المسائل الفقهيّة ، ألّفنا رسالة موجزة في هذا الموضوع مشفوعة بالأدلّة . وقد بيّنا فيها بما لا يبقى معه شكّ أنّ الطواف حول القبور لا إشكال فيه ؛ وأنّ القصد منهفي هذه الروايات هو التغوّط .

24) الآية 11 من السورة 22 : الحج . أيّ أنّ هؤلاء ينظرون إلى الله من نافذة واحدة ، ويرون قدرته وعظمته في بعض الأشياء ، لا في جميعها .

25) الغدير» ج 3 ، ص 7 و . 8

26) الغدير» ج 3 ، ص . 217

27) ابن تومَرْتْ ممّن ادّعى المهدويّة في المغرب ، أي : في مناطق شمال إفريقيا في أواخر القرن الخامس ، وأوائل القرن السادس الهجريّ ؛ وعظم أمره ؛ والتفّ حوله أنصار كثيرون ، فنهض بهم ؛ وأسّس دولة الموحّدين ؛ وقد عرفوا بعده بالسلسلة المؤمنيّة الكوميّة .

جاء في «معجم دهخدا» [فارسيّ] : ابن تُومَرْتْ : أبوعبد الله ، محمّد بن عبد الله بن تومرت المعروف بالمهديّ الهرغيّ . وسمّاه ابن خلدون أمغار ، وهي في لغة البربر : الرئيس . مولده بين سنة 470 و480 هـ في قرية من جبل سوُس الأقْصى بالمغرب . سافر إلى المشرق أيّام شبابه . وتعلّم هناك العلوم الدينيّة . ويقول ابن خلّكان : أدرك حديث أبي حامد الغزاليّ أيضاً . ثمّ رجع إلى المغرب ؛ وكان مذهب التجسيم شائعاً في المغرب آنذاك ؛ وأهلها جامدون متعصّبون . وقد أحرقوا ذات مرّة كتب الغزاليّ . ادّعى ابْنُ تُومَرْتْ المهدويّة هناك . وقام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . ألحق نسبه بالإمام عليّ بن أبي طالب . وكان أحد أنصاره يعرف بعبد المؤمن بن عليّ . بثّ دعوته من بعده ؛ وقويت دعوتهم . وفي سنة 517 هـ أشخص ابن تومرت عبد المؤمن إلى حرب المُرابِطين ، فاندحر . بَيدَ أنّه صلب عوده مرّة ثانية بسبب ضعف المرابطين ، إلى أن مات ابن تُومَرْت سنة 522 أو 524 (قبره في مدينة يتنملّ) وخلفه عبد المؤمن بناءً على وصيّته ، فصار رأس سلسلة الموحّدين (الجزء الأوّل ، ص 297 ، مادّة ابن تومرت) .

وذكر الزِرْكُلِيّ في «الأعلام» معلومات نوجزها كما يلي : الْمَهْدِيّ ابْنُ تُومَرْتْ 485 . 524 هـ / 1092 . 1130 م :

محمّد بن عبد الله بن تُومرت المصموديّ البَربَريّ أبو عبد الله المتلقّب بالمهديّ . ويقال له : مَهْدِيّ الْمُوَحّدين ؛ وهو صاحب دعوة السلطان عبد المؤمن بن عليّ ملك المغرب ، وواضع أُسس الدولة المؤمنيّة الكوميّة . وهو من قبيلة «هَرْغَه» ، من «المصامدة» ، من قبائل جبل السوس بالمغرب الأقصى . وتنتسب هَرْغَه إلى الحسن بن عليّ . وفي نسب ابن تومرت أقوال يأتي ذكرها في هامش هذه الترجمة . رحل إلى المشرق ، فانتهى إلى العراقوحجّ ، وأقام بمكّة زمناً ، ثمّ خرج منها إلى مصر ، فطردته حكومتها ، فعاد إلى المغرب . وجمع حوله الأنصار ، وحضر مجلس عليّ بن يوسف بن تاشفين (وكان ملكاً حليماً) . فأنكر عليه ابن تومرت بدعاً ومنكرات ، ثمّ خرج من حضرته ، ونزل بموضع حصين من جبال تِيْنَمَلّلْ . فجعل يعظ سكّانه حتّى أقبلوا عليه . فحرّضهم على عصيان ل

ل «ابن تاشفين» فقتلوا جنوداً له وتحصّنوا . وقوي بهم أمر ابن تومرت ، وتلقّب بالمَهْدِيّ القائم بأمر الله . و عاجلته الوفاة قبل أن يفتح مراكش . ولكنّه قرّر القواعد ومهدّها : فكانت الفتوحات بعد ذلك على يد صاحبه عبد المؤمن ، وصار سلطان المغرب . يقول السلاويّ : إنّه زاد في أذان الصبح : «أُصْبِحُ وَلِلهِ الْحَمْدُ» . «الأعلام» للزركليّ ، ج 7 ، ص 104 . . 105

28) كشف الارتياب في أتباع محمّد بن عَبْد الوهّاب» الطبعة الثالثة ؛ ص 129 إلى ص . 133

29) جاء في كتاب «خلاصة الكلام في أُمراء البلد الحرام» للشيخ أحمد بن زيْني دَحْلان : ولد محمّد بن عبد الوهّاب سنة 1111 هـ وتوفّي سنة 1207 هـ فكان عمره 96 سنة . وأظهر دعوته سنة 1143 هـ ؛ إلّا أنّه اشتهر بعد سنة 1150 هـ . «كشف الارتياب» ص 3 و ص . 5 وجاء في الكتاب الذي ألّفه الجاسوس البريطانيّ في الوطن الإسلاميّ : همفر وهو بعنوان «مذكّرات مستر همفر» وترجمه الدكتور ج خ باللغة العربيّة أنّ بريطانيا العظمى وحلفاءها المستعمرين كانوا وراء حركة محمّد بن عبد الوّهاب ضدّ الإسلام وفرق المسلمين كافّة . وأنّ وزارة المستعمرات البريطانيّة كانت وراء تأسيس ذلك المذهب الجديد . وجاء في ص 83 من الكتاب أنّ رغبة محمّد بن عبد الوهّاب في تنشيط دعوته قد قويت سنة 1143 هـ . وجمع حوله أنصاراً كثيرين ؛ وبدأ دعوته لأخصّ خواصّه بكلمات غامضة وألفاظ مجملة .

30) الآية 23 ، من السورة 34 : سبأ .

31) الآية 67 ، من السورة 39 : الزمر .

32) كشف الارتياب» من ص 133 إلى ص . 137

33) معجم دهخدا» بالفارسيّة ؛ كلمة ابن تيميّة ج 1 ص . 297

34) رحلة ابن بطوطة» طبع دار صادر ، دار بيروت ، 1384 هـ ، ص 95 و . 96

35) رحلة ابن بطوطة» ص . . 96

36) الآية 40 ، من السورة 24 : النور .

37) تاريخ كتابة هذه القصّة يعود إلى عيد الفطر من سنة 1403 هجريّة ولذلك فإنّ القصّة وقعت قبل ما يقارب خمس عشرة سنة ، أي : حوالي سنة 1388 هجريّة .

38) الآية 35 ، من السورة 24 : النور .

39) الآية 72 ، من السورة 17 : الإسراء .

40) الآية 40 ، من السورة 24 : النور .

41) الآية 78 ، من السورة 55 : الرحمن .

42) الآية 61 ، من السورة 37 : الصافّات .

43) وتعريبه : لابدّ أن ينظر من منظار الحقّ كي نرى وجهك [الشاعر يخاطب الله تعالى] فالعين التي لا ترى إلّا نفسها . أنّى لها أن تراك ؟!

44) ما أحلى أن نسمع صوتك وأنت تتلو القرآن ! وما أسعدنا إذ ننظر إلى وجهك ونسمع منك كلام الله وأنت تتلوه بصوت رخيم !

45) شرح الزيارة الجامعة الكبيرة» للشيخ الأحسائيّ ، الطبعة الحجريّة ، ص . 315

46) يذكر العلّامة الشيخ آغا بزرك الطهرانيّ في «أعلام الشيعة» في جزء (الكرام البررة) ص 88 أنّ ولادة الأحسائيّ كانت في سنة 1166 هـ ووفاته في سنة 1241 هـ . ويقول : إنّ وفاة السيّد كاظم الرشتيّ كانت في سنة 1259 هـ ؛ وذكر دهخدا في الجزء الثالث من معجمه . كلمة الباب ، ص 32 أنّ ولادة السيّد علي محمّد الباب كانت في سنة 1236 ، ومقتله في سنة 1266 هـ .

47) روضات الجنّات» الطبعة الحجريّة ، ص . 25

48) روضات الجنّات» ص . 286

49) يسمّى الشيخيّة : «بُشْت سَرِيّة» ، لأنّ رئيسهم يقيم صلاة الجماعة مع أتباعه خلف الضريح المقدّس لسيّد الشهداء عليه السلام ؛ وكان الشيخيّة من الأخباريّة . وكانوا مخالفين للأُصوليّين . ويُسمّى أُصوليّو كربلاء : «بالاسريّة» لأنّ إمامهم يقيم صلاة الجماعة مع أتباعه من قبل رأس الإمام الحسين عليه السلام داخل الحرم الشريف .

50) روضات الجنّات» ص 280 و . 286

51) ديوان ابن الفارض» التائيّة الكبرى ، من البيت 353 فما تلاه ، ص 80 و ص . 81

الدرس الثاني والسبعون إلى الخامس والسبعين: الولاية المطلقة لأمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام

بِسْمِ اللَهِ الرّحْمَنِ الرّحِيمِ

وصلّى اللهُ على محمّد وآله الطّاهرين

ولعنة اللَه على أعدائهم أجمعين من الآن إلى قيام يوم الدين ولا حول ولا قوّة إلّا باللَه العليّ العظيم

قال الله الحكيم في كتابه الكريم :

إِنّمَا وَلِيّكُمُ اللَهُ وَرَسُولُهُ وَالّذِينَ ءَامَنُوا الّذِينَ يُقِيمُونَ الصّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ الزّكَوٰةَ وَهُمْ رَ كِعُونَ * وَمَن يَتَوَلّ اللَهَ وَرَسُولَهُ وَالّذِينَ ءَامَنُوا فَإِنّ حِزْبَ اللَهِ هُمُ الْغَلِبُونَ . (1)

أجمع الشيعة ، مفسّروهم ، ورواتهم ومحدّثوهم ومن ألّف منهم الكتب في الفضائل والمناقب والتواريخ أنّ أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام تصدّق بخاتمة راكعاً لفقير كان يسأل في المسجد أن يعطوه شيئاً ؛ وكان رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم في بيته ، فنزل جبرئيل بهذه الآية التي تصرّح بولاية عليّ عليه السلام ؛ وقرأها رسول الله في نفسه حتّى وصل إلى المسجد ومعه عدد من أصحابه ، فسأل : هل تصدّق أحد راكعاً ؟! فقال السائل وهو يشير إلى الخاتم : نعم ، هذه صدقة تصدّق بها ذلك المصلّي وهو راكع ، وأنا الذي أخرجت هذا الخاتم من إصبعه ! فكبّر الصحابة الذين كانوا حاضرين عندئذٍ ؛ وحمد النبيّ الله وشكره على ما أنعم به من نعمة الولاية على أمير المؤمنين بعد ولاية الله ورسوله .

ولو تركنا اتّفاق الشيعة وإجماعهم جانباً ، فإنّ كثيراً من العامّة قد ذكروا هذا الموضوع في تفاسيرهم وكتبهم ، وعدّوه من المسلّمات سَنَداً واعتباراً تأريخيّاً ؛ ومن حيث المجموع فإنّ مَن كان مِن أهل التتبّع والتدقيق لن يخالجه أيّ شكّ في شأن نزول هذه الآية المباركة في ولاية عليّ بن أبي طالب .

وتثبت هذه الآية ولاية أمير المؤمنين وإمامته بلا فصل على نحو الإطلاق وبلا قيد وشرط ؛ وتعتبر من الآيات الواضحة في هذا المجال . ذلك لأنّها تجعل ولاية الإمام في مستوى ولاية الله ورسوله ؛ ومن المعلوم أنّ الولاية أمر واحد ، وهي لله بالأصالة ، ولغيره بالتّبَع . ومن هنا يستبين لنا أنّ الإمام قد فاز بكمال درجات القرب كرسول الله ، وارتوى من ينبوع الماء المعين لتوحيد الحقّ المطلق وعرفانه الخالص . فسيطرته وإحاطته التكوينيّة والتشريعيّة بالنسبة إلى الناس على أساس قابليّته وفعليّة وصوله واندكاكه في ذات الحقّ ؛ وتجلّيه بجميع أسمائه وصفاته الجماليّة والجلاليّة .

يقول ابن شهرآشوب : أجمعت الأُمّة على أنّ هذه الآية نزلت في عليّ عليه السلام لمّا تصدّق بخاتمه وهو راكع ؛ [و] لا خلاف بين المفسّرين في ذلك [و] ذكره : الثَعْلَبيّ ، والمَاوَرْديّ ، والقُشَيْرِيّ ، والقَزْوِينيّ ، والرّازِيّ ، والنيسابوريّ ، والفَلَكيّ ، والطّوسِيّ ، والطّبَرِيّ في تفاسيرهم عن السدّي ، وَمُجَاهِد

، والحَسَن ، والْأَعْمَشْ ، وعُتْبَة بْنِ أبي حكِيم ، وَغَالِبِ بْنِ عَبْدِ اللهِ ، وَقَيْسِ بْنِ الرَبيعِ ، وَعَبَايَة الرَبْعِيّ ، وَعَبْدِ اللهِ بْنِ عَبّاس ، وَأَبِي ذَرّ الْغِفَارِيّ .

[وكذلك] ذكره ابْنُ البَيّعِ في كتاب «مَعْرِفَةِ الأُصُول» عن عبد الله بن عبيد الله بن عُمَر بن عليّ بن أبي طالب ؛ والوَاحِدِيّ في كتاب «أَسْبَابُ نُزُول الْقُرآن» عن الكلبيّ ، عن صالح ، عن ابن عبّاس ؛ والسَمْعَانِيّ في كتاب «فَضَائل الصّحَابَة» عن حَميد الطويل ، عن أَنَس ؛ وسَلْمَان بن أحمد في «الْمُعْجَم الْأَوْسَط» عن عمّار ؛ وأَبُو بَكْرِ الْبَيْهَقِيّ في «الْمُقْتَفْ» (الْمُصَنّف خ ل) ؛ ومُحَمّدُ الْفَتّال في كتاب «التَنْوير» وكتاب «الرَوْضَة» عن عبد الله بن سلام ، وأبي صالح ، والشّعْبِيّ ، ومجاهد ، وزرارة بن أعين عن محمّد بن عليّ ؛ والنَطَنْزي في كتاب «الخصائص» عن ابن عبّاس ؛ وأبَابَه عن الفَلَكِيّ عن جابر بن عبد الله الأنصاريّ ، وناصح التميميّ ، وابن عبّاس ، والكَلْبِيّ في روايات مختلفة الألفاظ متّفقة المعاني .

وجاء في كتاب «أَسْبَابُ النّزُول» ص 148 عن الوَاحِدِيّ : (2) أقبل عبد الله بن سلام ومعه نفر من قومه وشكوا بُعد المنزل عن المسجد . وقالوا إنّ قومنا [وهم يهود] لمّا رأوا آمنّا بالله ورسوله وصدّقناه ، رفضونا وآلوا على أنفسهم أن لا يجالسونا ولا يناكحونا ولا يكلّمونا . ونزلت هذه الآية .

ثمّ إنّ النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم خرج إلى المسجد ، فنظر سائلاً ، فقال : هل أعطاك أحد شيئاً ؟ قال : نعم ، خاتم من فضّة . وفي رواية : خاتم من ذهب !

قال : من أعطاكه ؟! قال : ذلك القائم ! (3)

وجاء في «تفسير الثعلبيّ» عن أبي ذرّ أنّ السائل قال : اَللّهُمّ اشْهَدْ أَنّي سَأَلْتُ فِي مَسْجِدِ رَسُولِ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وسَلّم وَلَمْ يُعْطِنِي أَحَدٌ شَيئاً وَكَانَ عَلِيّ رَاكِعاً فَأومَى بِخِنْصِرِهِ الْيُمْنَى فَأَقْبَلَ السّائِلُ حَتّى أَخَذَهُ مِنْ خِنْصِرِهِ ، وَذَلِكَ بِعَيْنِ رَسُولِ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيهِ وَآلِهِ وَسَلّمَ .

ولمّا فرغ رسول الله من الصلاة ، رفع رأسه إلى السماء ، وقال :

اللّهُمّ إنّ أَخِي مُوسَى سَأَلَكَ فَقَالَ : رَبّ اشْرَحْ لِى صَدْرِى * وَيَسّرْ لِى أَمْرِى * وَاحْلُلْ عُقْدَةً مّن لّسَانِى * يَفْقَهُواْ قَوْلِى * وَاجْعَل لّى وَزِيرًا مّنْ أَهْلِى * هَرُونَ أَخِى * اشْدُدْ بِهِ أَزْرِى * وَأَشْرِكْهُ فِى أَمْرِى . (4)

فأنزلت عليه قرآناً ناطقاً : سَنَشُدّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا . (5)

اللّهُمّ وَأَنَا مُحَمّدٌ نَبِيّكَ وَصَفِيّكَ ! اللّهُمّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ، وَيَسّرْ لِي أَمْرِي ، وَاجْعَلْ لِي وَزِيراً مِنْ أَهْلِي ، عَلِيّاً ، أُشْدُدْ بِهِ ظَهْرِي .

قال أبو ذرّ : فما استتمّ رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم الكلمة حتّى نزل جبرئيل من عند الله تعالى فقال : يا محمّد اقرأ ! قال : وما أقرأ ! قال : اقرأ :

إنّمَا وَلِيّكُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَالّذِينَ ءَامَنُوا الّذِينَ يُقِيمُونَ الصّلَوةَ وَيُؤتُونَ الزّكَوةَ وُ هُمْ رَ كِعُونَ . (6)

وعن أبي جعفر عليه السلام : أنّ رهطاً من اليهود أسلموا منهم : عَبد الله بنَ سَلَام ، وَأُسَيْد ، وَثَعْلَبَة ، وابْنُ يامِين ، وسَلَام ، وابن صُورِيا ، فأتوا النبيّ . فقالوا : يا نبيّ الله ، إنّ موسى أوصى إلى يُوشَعِ بْنِ نُونْ ، فمن وصيّكَ ؟ ومن وليّنا بعدك ؟ فنزلت هذه الآية .

قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم : قوموا ! فقاموا وأتوا المسجد، فإذا سائل خارج؛ فقال رسول الله: يا سائل، ما أعطاك أحد شيئاً ؟!

قال : نعم ! هذا الخاتم !

قال : من أعطاكه ؟! قال : أعطانيه ذلك الرجل الذي يصلّي !

قال رسول الله : على أيّ حال أعطاك ؟! قال : كان راكعاً !

فَكَبّرَ النّبِيّ وَكَبّرَ أَهْلُ الْمَسْجِدِ ؛ فَقَالَ : صَلّى اللّهُ عَلَيهِ وَآلِهِ وَسَلّمَ : عَلِيّ بْنُ أَبي طَالِبٍ وَلِيّكُمْ بَعْدِي ! فَقَالُوا : رَضِينَا بِاللّهِ رَبّاً وَبِالإسْلَامِ دِيناً وَبِمُحَمّدٍ نَبِيّاً وَبِعَلِيّ وَلِيّاً فَأَنْزَلَ اللّهُ تَعَالَى : وَمَن يَتَوَلّ الله وَرَسُولَهُ وَالّذِينَ ءَامَنُوا فَإِنّ حِزْبَ اللّهِ هُمُ الْغَلِبُونَ . (7)

ثمّ يواصل ابن شهرآشوب كلامه ويقول : جاء في كتاب أبي بَكْر الشيرازيّ أنّه لمّا سأل السائل ، وضع أمير المؤمنين عليه السلام يده على ظهره إشارة إليه أن ينزعها فمدّ السائل يده ونزع الخاتم من يده ، ودعا له . فباهى الله تعالى ملائكته بأمير المؤمنين ، وقال :

ملائكتي ، أما ترون عبدي ، جسده في عبادتي ، وقلبه معلّق عندي ، وهو يتصدّق بماله طلباً لرضاي ؟! أُشهدكم أنّى رضيت عنه وعن خلفه ، يعني ذرّيّته ، ونزل جبرئيل بالآية .

وفي كتاب «المِصْبَاح» : تصدّق به يوم الرابع والعشرين من ذي الحجّة ؛ وفي رواية أبي ذرّ أنّه كان عليه السلام في صلاة الظهر ؛ وروي أنّه كان في نافلة الظهر .

وفي «أمالي ابن بابويه الصدوق» : قال عمر بن الخطّاب : لقد تصدّقت بأربعين خاتماً وأنا راكع لينزل فيّ ما نزل في عليّ بن أبي طالب ، فما نزل .

وفي «أسْباب النّزول» عن الواحديّ : «وَمَن يَتَوَلّ اللّهَ» يعني : يُحِبّ اللهَ وَرَسُولَهُ ؛ «وَالّذِينَ ءَامَنُوا» يعني : عَلِيّاً ؛ «فَإِنّ حِزْبَ» اللهِ يعني : شِيعَةَ اللّهِ وَرَسُولِهِ وَوَلِيّهِ ؛ «هُمُ الْغَلِبُونَ» ، يعني : هُمُ الْغَالِبُونَ عَلَى جَمِيعِ الْعِبَادِ .

فَبدأ في هذه الآية بنفسه ؛ ثمّ بنبيّه ؛ ثمّ بوليّه «إنّما وَلِيّكُمُ اللّهُ» . إلخ . وكذلك في الآية الثانية «وَمَن يَتَوَلّ اللّهَ» . إلخ .

وفي علم الحساب : إنّمَا وَلِيّكُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَالّذِينَ ءَامَنُوا الّذِينَ يُقِيمُونَ الصّلَوةَ وَيُؤتُونَ الزّكَوةَ وَهُمْ رَ كِعُونَ ووزنه مُحَمّدُ الْمُصْطَفَى رَسُولُ اللّهِ وَبَعْدَهُ الْمُرْتَضَى عَلِيّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ وَعِتْرَتُهُ ؛ وعدد حساب كلّ واحد منهما ثلاثة آلاف وخمسمائة وثمانون . (3580) . (8)

وفي «الكافي» عن الباقر عليه السلام عن أبيه ، عن جدّه عليهم السلام ، قال :

لَمّا نَزَلَتْ : «إِنَّمَا وَلِيّكُمُ اللَهُ وَرَسُولُهُ» اجْتَمَعَ نَفَرٌ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَهِ صَلّى اللَهُ عَلَيهِ وَآلِهِ وَسَلّمَ فِي مَسْجِدِ الْمَدِينَةِ وَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ : مَا تَقُولُونَ فِي هَذِهِ الآيَةِ ؟!

قَالَ بَعْضُهُمْ : إنْ كَفَرْنَا بِهَذِهِ الآيَةِ نَكْفُرْ بِسَائِرِهَا (كَفَرْنَا خ ل) وَإِنْ آمَنّا فَإِنّ هَذَا ذُلّ حِينَ يُسَلّطُ عَلَيْنَا عَلِيّ بْنُ أَبي طَالِبٍ !

فَقَالُوا : نَعْلَمُ أَنّ مُحَمّداً صَادِقٌ فِيمَا يَقُولُ ؛ وَلَكِنْ نَتَوَلّاهُ وَلا نُطِيعُ عَلِيّاً فِيمَا أَمَرَنَا ، فَنَزَلَ : «يَعْرِفُونَ نِعْمَةَ اللَهِ ثُمّ يُنْكِرُونَهَا» يَعْنِي وَلَايَةَ مَحَمّدٍ (عَلِيّ خ ل) وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ بِوَلَايَةِ عَلِيّ . (9)

وروى عليّ بن جعفر عن الإمام أبي الحسن موسى بن جعفر عليهما السلام في قوله تعالى : وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَكَةِ اسْجُدُوا لِأَدَمَ فَسَجَدُوا إِلّا إِبْلِيسَ : أَوْحَى اللَهُ إِلَيْهِ : يَا مُحَمّدُ ! إِنّي أَمَرْتُ فَلَمْ أُطَعْ فَلَا تَجْزَعْ أَنْتَ إِذَا أَمَرْتَ فَلَمْ تُطَعْ فِي وَصِيّكَ !

فقوله تعالى : إِنّمَا وَلِيّكُمُ اللَهُ وَرَسُولُهُ وَالّذِينَ ءَامَنُوا الّذِينَ يُقِيمُونَ الصّلَوةَ وَيُؤْتُونَ الزّكَوةَ وُ هُمْ رَ كِعُونَ . أثبت الولاية لمن جعله وليّاً لنا على وجه بالتخصيص ونفى معناها عن غيره .

ويعني بوليّكم القائم بأُموركم ومن يلزمكم طاعته . وإذا ثبت ذلك ، ثبتت إمامته ! لأنّ لا أحد يجب له التصرّف في الأُمّة وفرض الطاعة له بعد النبيّ إلّا من كان إماماً لهم ، وثبتت أيضاً عصمته ، لأنّه سبحانه إذا أوجب له فرض الطاعة مثل ما أوجب لنفسه ولنبيّه صلّى الله عليه وآله سلّم اقتضى ذلك طاعته في كلّ شيء . و هذا برهان عصمته .

ولأنّه لو لم يكن كذلك لجاز منه الأمر بالقبيح ، فيقبح طاعته . وإذا قبحت ، كان الله تعالى قد أوجب فعل القبيح . وفي علمنا أنّ ذلك لا يجوز عليه سبحانه ودليل على وجوب العصمة .

والدليل على أنّ لفظة وليّ في الآية تفيد الأَوْلَى ما ذكره المُبَرّد في كتاب «الْعِبَارَةُ عَنْ صِفَاتِ اللَهِ» إنّ الْوَلِيّ هُوَ الْأَوْلَى . وقال النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم : أَيّمَا امْرَأَةٍ نَكَحَتْ بِغَيْرِ إِذْنِ وَلِيّهَا . ومنه أَوْلِيَآءُ الدّم ، وَفُلَانٌ وَلِيّ أَمْرِ الرّعِيّةِ .

وَنِعْمَ وَلِيّ الْأَمْرِ بَعْدَ وَلِيّهِ

وَمُنْتَجَعُ التّقْوَى وَنِعْمَ الْمُؤَدّبُ (10)

وما يعترض به السائل فلا يلتفت إليه .

واختصاص الآية ببعض المؤمنين حيث وصفهم بإيتاء الزكاة يوجب خروج من لم يؤتها ، ومن حيث خصّ إيتاءهم بحال الركوع ولم يحصل ذلك لجميع المؤمنين ؛ ومن حيث نفي الولاية عن غير المذكورين في الآية بإدخال لفظة إنّما ، وإيتاء الزكاة في حال الركوع لم يدّع لأحد غير عليّ بن أبي طالب .

والرواية متواترة من طريق الشيعة ؛ وظاهرة من طرق المخالفين . ويجري الإخبار بلفظ الجمع وهو واحد مجرى الإخبار بذلك عن الواحد ، قوله تعالى : الّذِينَ قَالَ لَهُمُ النّاسُ (11) إِنّ النّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ . (12)

وقوله : إِنّ الّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ الْحُجُر اتِ . (13) والمقصود هو ثابت بن قَيس بن شِماس .

وقوله : يَقُولُونَ لَئِن رّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنّ الأَعَزّ مِنْهَا الأَذَلّ . (14) والقائل هو : عَبْدُ اللهِ بْنُ أُبَيّ بْنُ سَلُول .

ثمّ إنّ قوله : وَالّذِينَ ءَامَنُوا ليس على العموم بل بعضهم لأنّه وصف بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة في حال الركوع . (15)

وقد نظم الشعراء الكبار منذ عصر صدر الإسلام إلى الآن مدائح كثيرة بحقّ مولانا أمير المؤمنين لتصدّقه بخاتمه . وننقل هنا مختارات منها ذكرها ابن شهرآشوب في مناقبه . قال خُزَيْمَةُ بْنُ ثَابِت : (16)

فَدَيْتُ عَلِيّاً إِمامَ الْوَرَى
سِرَاجَ الْبَرِيّةِ مَأْوَى التّقَى
وَصِيّ الرّسُولِ وَزَوْجَ الْبَتُولِ
إِمَامَ الْبَرِيّةِ شَمْسَ الضّحَى
تَصَدّقَ خَاتَمَهُ رَاكِعاً
فَأَحْسِنْ بِفِعْلٍ أَمَامَ الْوَرَى
فَفَضّلَهُ اللهُ رَبّ الْعِبَادِ
وَأَنْزَلَ فِي شَأْنِهِ هَلْ أَتَى

وأنشد خُزَيْمَة أيضاً :

أَبَا حَسَنٍ تَفْدِيكَ نَفْسِي وَأُسْرَتِي
وَكُلّ بَطِيءٍ فِي الْهُدَى وَمُسَارِعِ
أَيَذْهَبُ مَدْحٌ مِنْ مُحِبّكَ ضَايِعاً
وَمَا الْمَدْحُ فِي جَنْبِ الْإِلَهِ بِضَايِعِ
فَأَنْتَ الّذِي أَعْطَيْتَ إِذْ كُنْتَ رَاكِعاً
عَلِيّ فَدَتْكَ النّفْسُ يَا خَيْرَ رَاكِعِ
فَأَنْزَلَ فِيكَ اللهُ خَيْرَ وَلَايَةٍ
وَبَيّنَهَا فِي مُحْكَمَاتِ الشّرَايِعِ

وقال حَسّانُ بْنُ ثَابِتْ (17) كما جاء في ديوان الحِمْيَرِيّ :

عَلِيّ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ أَخُو الْهُدَى
وَأَفْضَلُ ذِي نَعْلٍ وَمَنْ كَانَ حَافِيا
وَأَوّلُ مَنْ أَدّى الزّكَاةَ بِكَفّهِ

وَأَوّلُ مَنْ صَلّى وَمَنْ صَامَ طَاوِيَا

فَلَمّا أَتَاهُ سَائِلٌ مَدّ كَفّهُ

إلَيْهِ وَلَمْ يَبْخَلْ وَلَمْ يَكُ جَافِيَا

فَدَسّ إلَيْهِ خَاتَماً وَهْوَ رَاكِعٌ

وَمَا زَالَ أوّاهاً إلَى الْخَيْرِ داعِياً

فَبَشّرَ جِبْرِيلُ النّبِيّ مُحَمّداً

بِذَلِكَ وَجَاءَ الْوَحْيُ فِي ذَاكَ ضَاحِيَا

وقال الْحَمْيَرِيّ (18) شاعر أهل البيت :

مَنْ كَانَ أَوّلَ مَنْ تَصَدّقَ رَاكِعَاً

يَوْماً بِخَاتَمِهِ وَكَانَ مُشِيرا

مَنْ ذَاكَ قَوْلُ اللهِ إنّ وَلِيّكُمْ

بَعْدَ الرّسُولِ لِيُعْلِمَ الْجُمْهُورا

وله أيضاً :

نَفْسِي الْفِدَاءُ لِرَاكِعٍ مُتَصَدّقِ

يَوْماً بِخَاتَمِهِ فَآبَ سَعِيدا

أَعْنِي الْمُوَحّدَ قَبْلَ كُلّ مُوَحّدٍ

لَا عَابِدَاً صَنَماً وَلَا جُلْمُودَا

أَعْنِي الّذِي نَصَرَ النّبِيّ مُحَمّداً

وَوَقَاهُ كَيْدَ مَعَاشِرٍ وَمَكِيدَا

سَبَقَ الْأنَامَ إلَى الْفَضَائِلِ كُلّهَا

سَبْقَ الْجَوَادِ إلَى الرّهَانِ بَلِيدَا

وله كذلك :

مَنْ أَنْزَلَ الرّحْمَنُ فِيهِمْ هَلْ أَتَى

لَمّا تَحُدّوا لِلنّذُورِ وَفَاءَا

مَنْ خَمْسَةٌ جِبْرِيلُ سَادِسُهُمْ وَقَدْ

مَدّ النّبِيّ عَلَى الْجَمِيعِ عَبَاءَا

مَنْ ذَا بِخَاتَمِهِ تَصَدّقَ رَاكِعاً

فَأَثَابَهُ ذُو الْعَرْشِ مِنْهُ وَلاءَا

وأنشد الشريف الرَضِيّ (19) قائلاً :

وَمَنْ سَمِحَتْ بِخَاتَمِهِ يَمِينٌ

تَضِنّ بِكُلّ عَالِيَةِ الْكِعَابِ

أَهَذَا الْبَدْرُ يُكْسَفُ بِالدّيَاجِي

وَهَذَا الشّمْسُ تُطْمَسُ بِالْضّبَابِ

وأنشد شاعر أهل البيت : «دِعْبِل الْخُزَاعِيّ» [20] قائلاً :

نَطَقَ الْقُرْآنُ بِفَضْلِ آلِ مُحَمّدٍ

وَوَلَايَةٌ لِعلِيّه لَمْ تُجْحَدِ

بِوَلَايَةِ الْمُخْتَارِ مِنْ خَيْرِ الّذي

بَعْدَ النّبِيّ الصّادِقِ الْمُتَوَدّدِ

إذْ جَاءَه الْمِسْكِينُ حَالَ صَلَاتِهِ

فَامْتَدّ طَوْعاً بِالذّرَاعِ وَبِالْيَدِ

فَتَنَاوَلَ الْمِسْكِينُ مِنْهُ خَاتَماً

هَبَطَ الْكَرِيمُ الْأَجْوَدِيّ الْأَجْوَدِ

فَاخْتَصّهُ الرّحْمَنُ فِي تَنْزِيلِهِ

مَنْ حَازَ مِثْلَ فِخَارِهِ فَلْيُعْدَدِ

إنّ الْإِلَهَ وَلِيّكُمْ وَرَسُولَهُ

وَالْمُؤمِنينَ فَمَنْ يَشَأْ فَلْيَجْحَدِ

يَكُنِ الْإِلَهُ خَصِيمَهُ فِيها غَداً

وَاللّهُ لَيْسَ بمُخْلفٍ فِي الْمَوْعِدِ

وأنشد الصَاحِب بْنُ عَبّاد [21] يقول :

أَلَمْ تَعْلَمُوا أنّ الْوَصِيّ هُوَ الّذِي

آتَى الزّكَاةَ وَكَانَ فِي الْمِحْرَابِ

أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنّ الْوَصِيّ هُوَ الّذِي

حُكْمُ الْغَدِيرِ لَهُ عَلَى الْأَصْحَابِ

وأنشد بعض الأُدباء :

لَيْسَ كَالْمُصْطَفَى وَلَا كَعَلِيّ

سَيّدُ الْأَوْصِيَاءِ مَنْ يَدّعِيهِ

مَنْ يُوَالِي غَيْرَ الْإمَامِ عَلِيّ

رَغْبَةً مِنْهُ فَالتّرَابُ بِفِيهِ

هَذِهِ إنّمَا وَلِيّكُمُ اللهُ

أَتَتْ بِالْوَلَايَةِ مِنَ اللهِ فِيهِ

فَإذَا مَااقْتَضَى بِهِ اللّفْظُ مَعْنَى

الْجَمْعِ كَانَتْ مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِيهِ [22]

هذا نزر يسير نقلناه عن كتاب «المناقب» لابن شهرآشوب . وقال السيّد هاشم البحرانيّ : قال ابن

شهرآشوب في كتاب «الفضائل» في باب النصوص على إمامة أمير المؤمنين عليه السلام في فصل قوله تعالى : إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا : اجْتَمَعَتِ الْأُمَّةُ أَنّ هَذِهِ الآيَةِ نَزَلَتْ فِي أَمير الْمُؤْمنِينَ عَلَيهِ السَّلَامُ . (23)

وبعد أن نقل الشيخ أبو الفتوح الرازيّ في تفسيره هذه القصّة عن الثَّعْلَبِيّ فِي تفسيره مفصّلاً ، عن أبي ذرّ الغفاريّ وهو في مكّة على شفير بئر زمزم . روى عن طريق جابر بن عبد الله الأنصاريّ بسند آخر قوله :

كان رسول الله عليه السلام يصلّي فيالمسجد ذات يوم ، فورد أعرابيّ أشعث الحال ، عليه أثواب رثّة ، والفقر بين عينيه ، فلمّا دخل وسلّم قال شعراً :

أَتَيْتُكَ وَالْعَذرَاءُ تَبْكِي بِرَنَّةٍ

وَقَدْ ذَهَلَتْ أُمّ الصّبِيّ عَنِ الطّفْلِ

وَأُخْتٌ وَبِنْتَانِ وَأُمّ كَبِيرَةٌ

وَقَدْ كَادَ فَقْرِي أَنْ يُخَلّطَ فِي عَقْلِي

وَقَدْ مَسَنّي عُرِيٌ وَضُرّ وَفَاقَةٌ

وَلَيْسَ لَنَا ما إن يُمِرّ وَمَا يُحْلِي

وَمَا الْمُنْتَهَى إِلّا إِلَيْكَ مَفَرّنَا

وَأَيْنَ مَفَرّ الْخَلْقِ إِلّا إِلَى الرّسْلِ

قال رسول الله : من يواسي هذا الفقير ، والجزاء من الله غرف في الجنّة تضاهي غرفي وغرف إبراهيم الخليل ؟! فلم يجبه أحد .

رجع الأعرابيّ ، وكان في ناحية المسجد أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب يصلّي ركعات التطوّع . وكان راكعاً ، فرفع إليه الخاتم من يده ، فأخذه الأعرابيّ ونظر فيه ؛ فسرّ به وأنشد هذه الأبيات :

مَا أَنَا إِلّا مَوْلَىً لِآلِ يَس

أَرْجُو مِنَ اللَهِ إِقَامَةَ الدّينِ

هُمْ خَمْسَةٌ فِي الْأَنَامِ كُلّهِمُ

لِأَنّهُمْ في الْوَرَى مَيَامِينِ

فأتى جبريل بهذه الآية : إِنّمَا وَلِيّكُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ ، وقرأها على النبيّ فقال للأعرابيّ : من أعطاكه ؟! قال : أخوك وابن عمّك عليّ بن أبي طالب .

قال الرسول عليه السلام : هَنِيئاً لَكَ يَا عَلِيّ ، أَنت فِي درجتي ودرجة إبراهيم الخليل ! ولمّا رأى الصحابة ذلك ، أعطى كل واحد منهم خاتمه ، حتى ورد في الخبر أنّ الأعرابيّ جمع ذلك اليوم أربعمائة خاتم ، فسرّ وعلم أنّ ذلك من بركات أمير المؤمنين عليه السلام وقال شعراً :

هَا أَنَا مَوْلَىً لِخَمْسَةٍ نَزَلَتْ فِيهِمُ السّوَرْ
أَهْلَ طَهَ وَهَلْ أَتَى فَاقْرَؤا تعْرِفُوا الْخَبَرْ
والطّواسِينِ بَعْدَهَا وَالْحَوامِيمِ وَالزّمَرْ
أَنَا مَوْلَىً لِهَؤُلاَءِ عَدُوّ لِمَنْ كَفَرْ (24)

وكان حسّان حاضراً ، فأراد أن يكون له دور في ذلك ، فأنشد قائلاً :

عَلِيّ أميرُ المُؤمنينَ أخو الهُدَى
وأفْضَلُ ذِي نَعْلٍ ومَن كانَ حافِيَا
وأوّلُ مَن أدّى الزكاةَ بِكَفّهِ
وأوّلُ مَن صَلّى وَمَن كانَ زَاكِيَا
فَلَمّا أتاهُ سائلٌ مَدّ كَفّهُ
إليهِ فَلَم يَبْخَلْ ولَمْ يَكُ جافِيَا
فَدَسّ إليهِ خَاتَمَاً وهْوَ راكِعٌ
وَمَا زالَ أوّاهاً إلَى الخَيْرِ داعِيَا
فَبَشّرَ جَبْرَئِيلُ النّبِيّ مُحَمّدَاً
بِذاكَ وجاءَ الوَحْيُ فِي ذاكَ ضاحِيَا

وروى طاووس عن ابن عبّاس ، وقد سئل : ما معنى هذه الآية ؟ وفيمن نزلت ؟ قال : نزلت في عليّ بن أبي طالب . ومعناها إنّ الحُكْمَ والولايةَ لله الحقّ ، لا شريك له في ذلك من المخلوقين ؛ واحتجّ الرسول عليه السلام بهذه الآية .

وروى الكَلْبِيّ عن أبي صالح ، عن عبد الله بن عبّاس ، قال : أقبل عبد الله بن سلام ومعه نفر من قومه فيمن قد آمنوا بالنبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم ، قالوا : يا رسول الله ، إنّ منازلنا بعيدة وليس لنا مجلس ولا متحدّث دون هذا المجلس . وإنّ قومنا لمّا رأوا آمنّا بالله ورسوله وصدّقناه ، رفضونا وآلوا على أنفسهم أن لا يجالسونا ولا يناكحونا ولا يكلّمونا ، فشقّ ذلك علينا . فقال لهم النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم : «إنّمَا وَلِيّكُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَالّذِينَ ءَامَنُوا الّذِينَ يُقِيمُونَ الصّلَوةَ وَيُؤْتُونَ الزّكَوةَ وُ هُمْ رَ كِعُونَ» .

وكان عليّ عليه السلام قد أعطى خاتمه سائلاً وهو راكع ؛ قال عبد الله ابن عبّاس : لمّا أعطى عليّ عليه السلام الخاتم ، نزلت هذه الآية ؛ وقرأها رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم ؛ وسأل السائل : من أعطاكه ؟ فقال : ذاك القائم وأومى بيده إلى عليّ بن أبي طالب .

قال : على أيّ حال أعطاكه ؟ قال : أعطاني وهو راكع . فسُرّ النبيّ وعلم أنّها نزلت في عليّ .

ونقل أبو الفتوح الرازيّ هذه الأبيات الأربعة التي ذكرناها فيما تقدّم منسوبة إلى خُزَيْمَةَ بْنِ ثَابِتْ . ونسبها الرازيّ إلى حسّان بن ثابت ؛ (25) ثمّ قال :

وذكر أبو بكر بن مَرْدَوَيْه الحَافِظ . وهو من أصحاب الحديث . في كتاب «الفضائل» هذا الحديث بطرق مختلفة ، عن جماعة كثيرة من الصحابة ؛ وذكر هذه الأبيات :

أَوْفَى الزَّكَاةَ مَعَ الصّلاةِ أَقَامَهَا
وَاللهُ يَرْحَمُ عَبْدَهُ الصَبّارَا
مَنْ ذَا بِخَاتَمِهِ تَصَدّقَ رَاكِعَاً
وَأَسَرّهُ فِي نَفْسِهِ إِسْرَارَا
مَنْ كَانَ بَاتَ عَلَى فِرَاشِ مُحَمّدٍ
وَمُحَمّدٌ يَسْرِي وَيَنْحُو الْغَارَا
مَنْ كَانَ جِبْرِيلٌ يَقُومُ يَمِينَهُ
فِيهَا وَمِيكَالٌ يَقُومُ يَسَارَا
مَنْ كَانَ فِي الْقُرآنِ سُمّيَ مُؤْمِنَاً
فِي تِسْعِ آيَاتٍ جُعِلْنَ كِبَارَا
وقال الصاحب هذين البيتين :
وَلَمّا عَلِمْتُ بِمَا قَدْ جَنَيْتُ
وَأُشْفَقْتُ مِنْ سَخَطِ الْعَالَمِ
نَقَشْتُ شَفِيعِي عَلَى خَاتَمِي
إِمَاماً تَصَدّقَ بِالْخَاتَمِ
وقد صاغه بعض الشعراء بالفارسيّة :
چون جُرم خويش ديدم ، ترسيدم از خدا
راندم بسى ز ديده به رخسار از دموع
نام شفيع خود به نگين بر نوشتم آنگه
انگشترى خويش ببخشيد در ركوع (26)

لقد استبان ها هنا شأن نزول الآية وأبعاد الولاية إلى حدّ ما . ومن المناسب أن نتطرّق إلى بعض الروايات الواردة ، يعقب ذلك تبيان الآية الشريفة وتفسيرها .

يروي صاحب كتاب «غاية المرام» أربعاً وعشرين رواية عن طريق العامّة ؛ وتسع عشرة رواية عن طريق الخاصّة حول الآية ، وفيمايلي بعض هذه الروايات :

1 . قال الثعلبيّ : قال السدّيّ ، وعُتْبَةُ بْنُ أَبِي حَكِيم وَغَالِبُ بْنُ عَبْدِ اللهِ إنّما عنى بقوله سبحانه وتعالى : إِنّمَا وَلِيّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَالّذِينَ ءَامَنُوا الّذِينَ يُقِيمُونَ الصّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ الزّكَوٰةَ وَ هُمْ رَ كِعُونَ ، عليّ بن أبي طالب عليه السلام لأنّه مرّ به سائل ، وهو راكع في المسجد وأعطاه خاتمه .

ثمّ قال الثعلبيّ : أخبرنا أبو الحسن محمّد بن القاسم الفقيه ؛ قال : حدّثنا عبد الله بن أحمد الشعرانيّ ؛ قال : أخبرنا أبو عليّ أحمد بن عليّ بن رَزين ؛ قال : حدّثنا مظفّر بن الحسن الأنصاريّ ؛ قال : حدّثنا السريّ بن عليّ بن الورّاق ؛ قال : حدّثنا يحيى بن عبد الحميد الحمانيّ ، عن قيس بن الربيع ، عن الأعْمَش ، عن عبايه بن الربعيّ ؛ قال : حدّثنا عبد الله بن عبّاس وهو جالس بشفير زمزم . يقول قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم إذ أقبل رجل معتمّ بعمامة ، فجعل ابن عبّاس لا يقول : قال

رسول الله ، إلّا وقال الرجل : قال رسول الله .

فقال له ابن عبّاس : سألتك بالله ، ممّن أنت ؟

قال : فكشف العمامة عن وجهه ، وقال : يا أيّها الناس ، من عرفني فقد عرفني ؛ ومن لم يعرفني فأنا جُنْدَبُ بْنُ جُنَادَةَ الْبَدْرِيّ : أَبُو ذَرّ الْغِفَارِيّ ، سمعت رسول الله بهاتين وإلّا صُمّتا . ورأيته بهاتين وإلّا عميتا يقول : عَلِيّ إمَامُ الْبَرَرةِ ؛ وَقَاتِلُ الْكَفَرَةِ ؛ مَنْصُورٌ مَنْ نَصَرَهُ ، مَخْذُولٌ مَنْ خَذَلَهُ .

أمّا انّي صلّيت مع رسول الله يوماً من الأيّام صلاة الظهر ، فسأل سائل في المسجد ، فلم يعطه أحد ، فرفع السائل يده إلى السماء وقال : اللهمّ اشهد إنّي سألت في مسجد رسول الله فلم يعطني أحد شيئاً ، وكان عليّ راكعاً فأومأ إليه بخنصره اليمنى ، وكان يتختّم فيها فأقبل السائل حتّى أخذ الخاتم من خنصره ، وذلك بعين النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم .

فلمّا فرغ من صلاته ، رفع رأسه إلى السماء وقال : اللهمّ موسى سألك فقال : ربّ اشرح لي صدري ، ويسّر لي أمري ، واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي ، واجعل لي وزيراً من أهلي هارون أخي ، أُشدد به أزري ، وأشركه في أمري !

فأنزلت عليه قرآناً ناطقاً : سَنَشُدّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بَِايتِنَآ !

اللهمّ وأنا محمّد نبيّك وصفيّك ، اللهمّ واشرح لي صدري ، ويسّر لي أمري ، واجعل لي وزيراً من أهلي عليّاً أشدد به ظهري !

قال أبو ذرّ : فما استتمّ رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم الكلمة حتّى نزل عليه جبرئيل عليه السلام من عند الله تعالى فقال : يا محمّد ، إقرأ . قال : وما أقرأ ؟!

قال : اقرأ : إِنّمَا وَلِيّكُمُ اللَهُ وَرَسُولُهُ وَالّذِينَ ءَامَنُوا الّذِينَ يُقِيمُونَ الصّلَوةَ وَيُؤْتُونَ الزّكَوةَ وُ هُمْ رَ كِعُونَ (27) .

وقد ذكر كثير من المفسّرين العظام والعلماء الأعلام في كتبهم هذا الحديث الشريف بهذا المضمون والكيفيّة ، منهم : ا لشيخ أبو الفتوح الرازيّ ، (28) والشيخ أبو عليّ : الفضل بن الحسن الطبرسيّ ، (29) والسيّد هاشم البحرانيّ صاحب «غاية المرام» في «تفسير البرهان» ، (30) وابن طاووس ، (31) والعلّامة الأمينيّ رضوان الله عليه الذي قال في ذيله بعد نقله بعينه عن أبي إسحاق الثعلبيّ في تفسيره :

أخرج هذه الأثارة ونزول الآية فيها جمع كثير من أئمّة التفسير والحديث منهم : الطبريّ في تفسيره ج 6 ، ص 165 من طريق ابن عبّاس ، وعتبة بن أبي حكيم ، ومُجاهد ؛ والوَاحِديّ في «أسباب النزول» ص 148 من طريقين ؛ والرازيّ في تفسيره ج 3 ، ص 431 عن عطاء ، عن عبد الله ابن سلام ، وابن عبّاس ، وحديث أبي ذرّ المذكور ؛ والخَازِن في تفسيره ج 1 ، ص 496 ؛ وأَبُو الْبَرَكَات في تفسيره ج 1 ، ص 496 ؛ والنَيْسَابُورِيّ في تفسيره ج 3 ، ص 461 ؛ وابن صَبّاغ المَالِكِيّ في «الفصول المهمّة» ص 123 حديث الثعلبيّ المذكور ؛ وابن طَلْحَة الشَافِعيّ في «مطالب السؤول» ص 31 بلفظ أبي ذرّ المذكور ؛ وسِبْط بْن الْجَوْزِيّ في «التذكرة» ص 9 عن تفسير الثعلبيّ ، عن السدّيّ ،

وعتبة ، وغالب بن عبد الله ؛ والكنجيّ الشافعيّ في «الكفاية» ص 106 بإسناده عن أنس ، وص 122 عن ابن عبّاس من طريق حافظ العِرَاقَيْنِ ، والخوارزميّ ، وابن عساكر عن أبي نعيم والقاضي أبي المعالي ؛ والخوارَزْميّ في مناقبه ص 178 بطريقين ؛ والحَمّوئيّ في «فَرَائد السّمْطَيْن» في الباب الرابع عشر من طريق الواحديّ ، وفي التاسع والثلاثين عن أنس ، ومن طرق أُخرى عن ابن عبّاس ، وفي الباب الأربعين عن ابن عبّاس ، وعمّار بن ياسر ؛ والقَاضِي عَضُد الإيجِيّ في «المواقف» ج 3 ، ص 276، ؛ ومُحِب الدّينِ الطّبَرِيّ في «الرياض النّضِرَة» ج 2 ، ص 227 عن عبد الله بن سلام من طريق الواحديّ ، وأبي الفرج ، والفضائليّ ، وفي ص 206 ، وفي «الذخائر» ص 102 من طريق الواقديّ ، وابن الجوزيّ ؛ وابن كَثير الشاميّ في تفسيره ص 71 بطريق عن أمير المؤمنين ، ومن طريق آخر عن ابن أبي حاتم عن سَلَمة بن كُهَيْل ، وعن ابن جرير الطبريّ بإسناده عن مجاهد ، والسدّيّ ، وعن الحافظ عبد الرزّاق بإسناده عن ابن عبّاس ، وبطريق الحافظ ابن مردويه بإسناده عن سفيان الثوريّ عن ابن عبّاس ، ومن طريق الكلبيّ عن ابن عبّاس .

فقال : هذا إسناد لا يقدح به ، وعن الحافظ ابن مردويه بلفظ أمير المؤمنين ، وعمّار ، وأبي رافع ؛ وابن كُثير أيضاً في «البداية والنهاية» ج 7 ، ص 357 عن الطبرانيّ بإسناده عن أمير المؤمنين ، ومن طريق ابن عساكر ، عن سلمة بن كهيل ؛ والْحَافِظ السيُوطيّ في «جمع الفوائد» كما في «كنز العمّال» ج 6 ، ص 391 من طريق الخطيب في «المتّفق» عن ابن عبّاس ، وص 405 من طريق أبي الشيخ وابن مردويه عن أمير المؤمنين ؛ وابن حَجَر في «الصواعق» ص 25 ؛ والشّبْلَنجيّ في «نور الأبصار» ص 77 حديث أبي ذرّ المذكور عن الثعالبيّ ؛ والآلوسيّ في «روح المعاني» ج 2 ، ص 329 ، وغيرهم . (32)

2 . وروى البحرانيّ أيضاً عن كتاب «الْجَمْعُ بَيْنَ الصّحَاحِ السّتّة» لرزين : في الجزء الثالث في تفسير سورة المائدة ، قوله تعالى : إِنّمَا وَلِيّكُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَالّذِينَ ءَامَنُوا الّذِينَ يُقِيمُونَ الصّلَوةَ وَيُؤْتُونَ الزّكَوةَ وَهُمْ رَ كِعُونَ . من «صحيح» النسائيّ ، عن [عبد الله] بن سلام ، قال : أتيت رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم ، فقلت : إنّ قومنا حادّونا لمّا صدقنا الله ورسوله ، وأقسموا أن لا يكلّمونا ، فأنزل الله تعالى هذه الآية . ثمّ أذّن بلال لصلاة الظهر ، فقام الناس يصلّون ، فمن بين ساجد وراكع إذ سائل يسأل ، وأعطى عليّ خاتمه وهو راكع . فأخبر السائل رسول الله ، فقرأ علينا رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم : إِنّمَا وَلِيّكُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَالّذِينَ ءَامَنُوا الّذِينَ يُقِيمُونَ الصّلَوةَ وَيُؤْتُونَ الزّكَوةَ وُ هُمْ رَ كِعُونَ * وَمَن يَتَوَلّ اللّهَ وَرَسَولَهُ وَالّذِينَ ءَامَنُوا فَإِنّ حِزْبَ اللّهِ هُمُ الْغَلِبُونَ . (33)

وذكر السيّد ابن طاووس هذه الرواية بعينها من كتاب «الجمع بين الصّحاح الستّة» ؛ وقال عقب ذلك : ورواها ابن المغازليّ الشافعيّ أيضاً بخمسة طرق . (34) وجاء في بعض هذه الطرق عن عبد الله بن عبّاس : مرّ سائل برسول الله صلّى الله عليه [وآله] وسلّم وفي يده خاتم . فقال رسول الله : من أعطاك هذا الخاتم ؟!

قال : ذاك الراكع ! وكان عليّ عليه السلام يصلّي .

فقال النبيّ صلّى الله عليه [وآله] وسلّم : الْحَمْدُ لِلَهِ الّذِي جَعَلَهَا فِيّ وفِي أهْلَ بيتيّ .

ومن روايات ابن المغازليّ الشافعيّ في هذا الموضوع رواية ينسبها مرفوعة إلى عليّ بن عَابِس ، قال : دخلت أنا وأبو مريم على عبد الله بن عطاء ، قال أبو مريم : حدّث عليّاً بالحديث الذي حدّثتني عند أبي جعفر .

قال عبد الله بن عطاء : كنت عند أبي جعفر جالساً إذ مرّ عليه ابن عبد الله بن سلام . قلتُ : جعلني الله فداك : هذا ابن الذي عنده علم الكتاب .

قال الإمام : لا ، ولكنّه صاحبكم عَلِيّ بْنُ أَبي طَالِبٍ عليه السلام الذي نزلت فيه آيات من كتاب الله عزّ وجلّ ، منها : وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَبِ . (35) ومنها : أَفَمَن كَانَ عَلَى بَيّنَةٍ مّن رّبّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ . (36) ومنها : إِنّمَا وَلِيّكُمُ اللَهُ وَرَسُولُهُ وَالّذِينَ ءَامَنُوا الّذِينَ يُقِيمُونَ الصّلَوةَ وَيُؤْتُونَ الزّكَوةَ وُ هُمْ رَ كِعُونَ . (37)

وذكر السدّيّ في تفسيره أنّ هذه الآية نزلت في عليّ عليه السلام . (38)

وقال العلّامة المجلسيّ رضوان الله عليه بعد نقله هذه الروايات عن كتاب «الطرائف» : إنّ ما ذكرناه هنا من روايات السيّد ابن طاووس وغيره ، وذكره ابنُ بطريق في كتاب «الْعُمْدَة» بأسانيد كثيرة من الصحاح . ومن أراد أن يحصل على هذه الأسانيد ، فليراجع كتاب «العُمْدَة» .

ثمّ يضيف العلّامة المجلسيّ أنّ صاحب «جَامِعُ الأُصُول» ذكر الخبر الأوّل الذي نقلناه عن السيّد ابن طاووس ، وذلك من «صحيح النسائيّ» ، عن ابن سلام (مع اختلاف يسير في اللفظ) .

وذكر ابن البطريق في «المُسْتَدْرك» عن الحافظ أبي نعيم بإسناده عن زيد بن الحسن ، عن أبيه قال : سمعت عمّار بن ياسر يقول : وَقَفَ لِعَلِيّ سَائِلٌ وَهُوَ رَاكِعٌ فِي صَلَاةِ تَطَوّعٍ فَنَزَعَ خَاتَمَهُ فَأَعْطَاهُ . فجاء السائل إلى رسول الله وأخبره ، ونزلت هذه الآية .

وروى ابن البطريق أيضاً بإسناده عن الضحّاك ، عن ابن عبّاس في قول الله عزّ وجلّ : إِنّمَا وَلِيّكُمُ اللَهُ وَرَسُولُهُ وَالّذِينَ ءَامَنُوا يريد عليّ بن أبي طالب في قوله : الّذِينَ يُقِيمُونَ الصّلَوةَ وَيُؤْتُونَ الزّكَوةَ وُ هُمْ رَ كِعُونَ . قال عبد الله بن سلام : يا رسول الله ، أنا رأيت عليّ بن أبي طالب تصدّق بخاتمه وهو راكع على محتاج ، فنحن نتولّاه ! (39)

وروى بإسناده أيضاً عن الكلبيّ ، عن أبي صالح ، عن ابن عبّاس : كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم يتوضّأ فنزلت الآية إِنّمَا وَلِيّكُمُ اللَهُ ؛ فقصد المسجد ، وقبل دخوله فيه رأى سائلاً ، قال : من كان في المسجد ؟! قال السائل : رجل تصدّق عليّ بخاتمه وهو راكع ؛ فدخل النبيّ إلى المسجد ، ورأى عليّاً عليه السلام .

وروى بإسناده أيضاً عن ابن الزبير مرفوعاً عن جابر : جاء عبد الله ابن سلام مع جماعة وهم يشكون مجانبة قومهم إيّاهم منذ أسلموا .

فقال لهم رسول الله : ابغوا إليّ سائلاً ! فدخلنا المسجد ، فدنا سائل إليه ، فقال له : أعطاك أحد شيئاً ؟! قال : نعم مررتُ برجل راكع ، فأعطاني خاتمه .

قال : فاذهب فأرني ! قال عبد الله بن سلام : فذهبنا فإذا عليّ قائم يصلّي . قال السائل : هذا هو

الرجل . فنزلت الآية : إِنّمَا وَلِيّكُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ .

وروى أيضاً بإسناده مرفوعاً عن عبد الوهاب بن مجاهد ، عن أبيه ، عن ابن عبّاس ، في قوله تعالى : إِنّمَا وَلِيّكُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ . نزل في شأن عليّ بن أبي طالب .

وروى بإسناده أيضاً مرفوعاً عن مُوسى بْنِ قَيْسِ الحَضْرَميّ ، عن سلمة بن كهيل أنّ عليّاً عليه السلام تصدّق بخاتمه وهو راكع ، فنزلت الآية : إِنّمَا وَلِيّكُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ .

ويضيف العلّامة المجلسيّ هنا قائلاً : قال السيّد ابن طاووس في كتاب «سَعْدُ السّعود» : رأيت في تفسير محمّد بن عبّاس بن عليّ بن مروان أنّه روى بإسناده نزول الآية إِنّمَا وَلِيّكُمُ اللّهُ في عليّ عليه السلام من تسعين طريقاً . وجميع رجالها ورواتها أو أغلبهم من المخالفين لأهل البيت عليهم السلام ، ومن الرواة : عليّ عليه السلام ، وعُمَر بن الخَطّاب ، وعُثْمان ، والزّبَير ، وعَبْدُ الرّحْمَن بن عَوْف ، وسَعْد بن أبي وَقّاص ، وطَلْحَة ، وابن عبّاس ، وأبُو رافع ، وجَابر بن عبد الله الأنصاريّ ، وأبو ذرّ ، وخَليل بن مُرّة ، وعليّ بن الحسين ، والبَاقِر ، والصّادِق عليهم السلام ، وعَبْدُ اللهِ بن محمد بن الحَنَفِيّة ، ومُجَاهِد ، ومُحَمّد بن السّرِيّ ، وعَطَاء بن سَائِبْ ، ومُحَمّد بن سَائب ، وعبد الرّزّاق .

ومن الروايات التي يرويها رواية عن إسماعيل بن إسحاق الراشديّ ، عن يحيى بن هاشم ، عن محمّد بن عبيد الله بن أبي رافع ، عن عون بن عبيد الله ، عن أبيه ، عن جدّه أبي رافع أنّه قال :

دخلت على رسول الله يوماً ، وهو نائم أو أنّه كان يوحى إليه ، فرأيت حيّة في جانب البيت ، فكرهت أن أقتلها فأوقظ النبيّ ، فظننت أنّه يوحى إليه . فاضطجعت بينه وبين الحيّة ، فقلت : إن كان منها سوء ، كان إليّ دونه .

فاستيقظ النبيّ وهو يقرأ : إِنّمَا وَلِيّكُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَالّذِينَ ءَامَنُوا . ثمّ قال : الْحَمْدُ لِلّهِ الّذِي أَكْمَلَ لِعَلِيّ نِعَمَهُ وَهَنِيئاً لِعَلِيّ بِتَفضِيلِ اللّهِ .

ثمّ قال لي : مالك ها هنا ؟! فأخبرته بخبر الحيّة . فقال لي : اقتلها . ففعلتُ ، ثمّ أخذ بيدي وقال : يَا أَبَا رَافِعٍ لِيَكُونَنّ عَلِيّ مِنْكَ بِمَنْزِلَتِي غَيْرَ أَنّهُ لَا نَبِيّ بَعْدِي ! إِنّهُ سَيُقَاتِلُهُ قَوْمٌ يَكُونُ حَقّاً فِي اللّهِ جِهَادُهُمْ فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ جِهَادَهُمْ بِيَدِهِ فَجَاهَدَهُمْ بِلِسَانِهِ ؛ فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ بِلِسَانِهِ فَجَاهَدَهُمْ بِقَلْبِهِ ؛ لَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ شَيءٌ ؛ وَهُوَ عَلَى الْحَقّ وَهُمْ عَلَى الْبَاطِلِ . (40)

ثمّ خرج رسول الله من المنزل ، وقال : أيّها الناس ! من كان يحبّ أن ينظر إلى أميني ، فهذا أميني ، يعني : أبا رافع .

قال محمّد بن عبيد الله : لمّا بويع عليّ بن أبي طالب عليه السلام وسار طلحة والزبير إلى البصرة ، وخالفه معاوية وأهل الشام . قال أبو رافع : هذا قول رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم إنّه سيقاتل عليّاً قوم يكون حقّاً في الله جهادهم ، فمن لم يستطع جهادهم بيده فبلسانه ، ومن لم يستطع بلسانه فبقلبه ، ليس وراء ذلك شيء .

فباع أبو رافع داره وأرضه بخيبر ، ثمّ خرج مع عليّ بقبيلته وعياله وهو شيخ كبير ابن خمس وثمانين سنة . ثمّ قال :

الْحَمْدُ للّهِ ، لَقَدْ أَصْبَحْتُ وَمَا أعْلَمُ أَحَداً بِمَنْزِلَتِي ؛ لَقَدْ بَايَعْتُ الْبَيعَتَينِ بَيْعَةَ الْعَقَبَةِ وَبَيْعَةَ الرّضْوانِ ؛ وَلَقَدْ صَلّيْتُ الْقِبْلَتَيْنِ ؛ وَهَاجَرْتُ الْهِجَرَ الثّلاَثَ .

فقيل له : ما الهجر الثلاث ؟

قال : هجرة مع جعفر بن أبي طالب إلى أرض النجاشيّ إذ بعثه رسول الله ؛ وهجرة إلى المدينة مع رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم ، وهذه هجرة مع عليّ بن أبي طالب عليه السلام إلى الكوفة .

ثمّ لم يزل معه حتى استشهد أمير المؤمنين عليه السلام ورجع أبو رافع مع الحسن عليه السلام إلى المدينة ولا دار له ولا أرض .

فقسّم له الحسن عليه السلام دار عليّ بن أبي طالب نصفين وأعطاه بينبع أرضاً أقطعها إيّاه . فباعها عبيد الله بن أبي رافع بعدُ من معاوية بمائتي ألف درهم وستّين ألفاً .

قال أبو رافع : كان خاتم عليّ الذي تصدّق به وهو راكع حلقة فضّة فيها مثقال ، عليها منقوش : الْمُلْكُ لِلّهِ . وروى عن الحسن بن محمّد العلويّ ، عن جدّه يحيى ، عن أحمد بن يزيد ، عن عبد الوهّاب ، عن مخلّد ، عن المبارك ، عن الحسن قال : قال عمر بن الخطّاب : أخرجت من مال صدقة يتصدّق بها عنّي وأنا راكع أربعاً وعشرين مرّة على أن ينزل فيّ ما نزل في عليّ ، فما نزل . (41)

وذكر السيّد هاشم البحرانيّ قصّة أبي رافع ونزول آية الولاية على نفس النسق المذكور ، وذلك في «تفسير البرهان» نقلاً عن الشيخ الطوسيّ في أماليه بإسناده عن أبي رافع . (42) وذكر موجزاً لها في «غاية المرام» عن الحافظ أبي نعيم مرفوعاً ، عن عون بن عبيد الله بن أبي رافع ، عن أبيه ، عن جدّه أبي رافع . ولذلك يمكن أن نعتبرها الحديث رقم (3) من «غاية المرام» ، فلا حاجة عندئذٍ إلى إعادة عبارة «غاية المرام» . (43)

4 . يقول موفّق بن أحمد الخوارزميّ ، وهو الذي يلقّبه مخالفونا في التشيّع : صَدْر الأئمّةِ ، وأَخْطَب خُطَبَاء خوارزم : في جواب مكاتبة معاوية إلى عمرو بن العاص ، الذي دعاه إلى مساعدته ضدّ أميرالمؤمنين عليه السلام ، قال عمرو بن العاص :

لَقَدْ عَلِمْتَ يَا مُعَاوِيَةُ مَا أُنْزِلَتْ فِي كِتَابِهِ فِي عَلِيّ مِنَ الآيَاتِ الْمَتْلُوّاتِ فِي فَضَائِلِهِ الّتِي لَا يَشْرَكُهُ فِيهَا أَحَدٌ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : «يُوفُونَ بِالنّذْرِ» . (44) وقوله :

إِنّمَا وَلِيّكُمُ اللَهُ وَرَسُولُهُ وَالّذِينَ ءَامَنُوا الّذِينَ يُقِيمُونَ الصّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ الزّكَوٰةَ وُ هُمْ رَ كِعُونَ . وقوله : أَفَمَن كَانَ عَلَى بَيّنَةٍ مّن رّبّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مّنْهُ وَمِن قَبْلِهِ . (45)

ونحن نعلم أنّ الله قال فيه : رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَهَدُوا اللَهَ عَلَيْهِ . (46)

وقد قال الله تعالى لرسوله فيه : قُل لّآ أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلّا الْمَوَدّةَ فِى الْقُرْبَى . (47)

5 . وروى الشيخ إبراهيم بن محمّد الحمّوئيّ ، [وهو] من أعيان علماء العامّة [وأكابرهم] ، بسنده عن سفيان بن إبراهيم الحريريّ ، عن أبيه ، عن أبي صادق ، قال : قالَ عَلِيّ :

أُصُولُ الْإِسْلَامِ ثَلَاثَةٌ لَا يَنْفَعُ وَاحِدةٌ مِنْهُنّ دُونَ صَاحِبِهِ : الصّلَاةُ وَالزّكَاةُ وَالْوَلَايَةُ .

قال الواحديّ : وهذا منتزع من قوله تعالى : إِنّمَا وَلِيّكُمُ اللَهُ وَرَسُولُهُ وَالّذِينَ ءَامَنُوا الّذِينَ يُقِيمُونَ الصّلَوةَ وَيُؤْتُونَ الزّكَوةَ وُهُمْ رَ كِعُونَ . وذلك أنّ الله تعالى أثبت الموالاة بين المؤمنين ، ثمّ لم يصفهم إلّا بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، فقال : الّذِينَ يُقِيمُونَ الصّلَوةَ وَيُؤْتُوَنَ الزّكَوة . فمن والى عليّاً ، فقد والى الله ورسوله . وذكر تعالى في آية أُخرى أنّه حبّبه إلى عباده المؤمنين ، فقال : إِنّ الّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصّلِحَتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرّحْمَنُ وُدّا . (48)

ثمّ قال الواحديّ : [ولدينا رواية بإسناد متّصل] عن عطاء ، عن ابن عبّاس في قوله تعالى : إِنّ الّذِينَ ءَامَنُوُا وَعَمِلُوا الصّلِحَتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرّحْمَنُ وُدّا . قال : نزلت في عليّ بن أبي طالب ، مَا مِنْ مُسْلِمٍ إلّا وَلِعَلِيّ فِي قَلْبِهِ مَحَبّةٌ .

وقال الواحديّ [بعد ذلك ، ولدينا رواية بإسناد متّصل] عن البراء [ابن عازب] قال : قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم : يَا عَلِيّ قُلِ اللهُمّ اجْعَلْ لِي عِنْدَكَ عَهْدَاً ، وَاجْعَلْ لِي فِي صُدُورِ الْمُؤْمِنِينَ مَوَدّةً ! فَأَنْزَلَ اللهُ : «إِنّ الّذِينَ ءَامَنُوُا وَعَمِلُوا الصّلِحَتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرّحْمَنُ وُدّا» قَالَ : نَزَلَ في عَلِيّ بْنِ أَبي طَالِبٍ عَلَيهِ السّلَامُ . (49)

6 . روى إبراهيم بن محمّد الحمّوئيّ بسنده المتّصل عن زيد بن عليّ ابن الحسين ، عن أبيه ، عن جدّه سيّد الشهداء عليه السلام ، قال : سَمِعْتُ عَمّارَ بْنَ يَاسِرٍ يَقُولُ : وقف لعليّ بن أبي طالب سائل وهو راكع في صلاة التطوّع فنزع خاتمه وأعطاه السائل . فأتى رسول الله فأعلمه بذلك ، فنزلت على النبيّ صلّى الله عليه [وآله] وسلّم . هذه الآية : إِنّمَا وَلِيّكُمُ اللَهُ . فقرأها رسول الله ، ثمّ قال : مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَعَلِيّ مَوْلَاهُ . (50)

وروى السيّد هاشم البحرانيّ في «تفسير البرهان» هذه الرواية بسند آخر عن «تفسير العيّاشيّ» ، عن الحسن بن زيد ، عن أبيه ، عن جدّه . (51)

وجاءت هذه الرواية عينها في «تفسير العيّاشيّ» عن خالد بن يزيد ، عن معمّر بن مكّيّ ، عن إسحاق بن عبد الله بن عليّ بن الحسين عليهما السلام عن الحسن بن زيد ، عن أبيه زيد بن الحسن ، عن جدّه الإمام الحسن المجتبى عليه السلام . ويضيف في ذيلها هذا الدعاء : اللهُمّ وَالِ مَنْ وَالَاهُ ! وَعَادِ مَن عَادَاهُ . (52)

ورواها المجلسيّ مع تتمّتها وذيلها نقلاً عن «تفسير العيّاشيّ» . (53)

ورواها المحدّث البحرانيّ أيضاً عن الحافظ أبي نعيم الإصفهانيّ مرفوعة عن زيد بن الحسن ، عن أبيه ، عن عمّار بن ياسر . (54)

7 . وعن محمّد بن يعقوب الكلينيّ بسنده المتّصل ، عن زرارة ، عن الإمام الباقر عليه السلام :

قال زرارة : سألته عن قول الله عزّ وجلّ : وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ . (55) قال :

إنّ اللَهَ أَعْظَمُ وَأَعَزّ وَأَجَلّ مِنْ أنْ يُظْلَمَ وَلَكِنّهُ خَلّطَنَا بِنَفْسِهِ فَجَعَلَ ظُلْمَنَا ظُلْمَهُ ، وَوَلَايَتَنَا وَلَايَتَهُ حَيْثُ يَقُول : «إِنّمَا وَلِيّكُمُ اللَهُ وَرَسُولُهُ وَالّذِينَ ءَامَنُوا» يَعْني الْأَئمّةَ مِنّا . ثُمّ قَالَ في مَوْضِعٍ آخَرَ : «وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمونَ» . (56) ثُمّ ذَكَرَ مِثْلَهُ . (57)

وذكر هذه الآية أيضاً في موضع آخر قاصداً المعنى نفسه .

8 . عن محمّد بن يعقوب ، عن عليّ بن إبراهيم ، عن أبيه ، عن ابن أبي عمير ، عن عمر بن أُذَيْنة ، عن زُرَارَة ، وَفُضَيْل بن يَسَار ، وبُكَيْر بن أعْيُن ، ومحمّد بن مُسْلِم ، ويزيد بن مُعَاوية ، وأبو الْجَارُود جميعاً عَنِ البَاقِرِ عَلَيهِ السّلَامُ ، قال : أمر الله عزّ وجلّ رسوله بولاية عليّ أمير المؤمنين ، وأنزل عليه :

إِنّمَا وَلِيّكُمُ اللَهُ وَرَسُولُهُ وَالّذِينَ ءَامَنُوا الّذِينَ يُقِيمُونَ الصّلَوةَ وَيُؤتُونَ الزّكَوةَ وَهُمْ رَ كِعُونَ ؛ وفرض من ولاية أُولي الأمر ، فلم يدروا ما هي فأمر الله محمّداً صلّى الله عليه وآله وسلّم أن يفسّر لهم الولاية كما فسّر الصلاة والزكاة والصوم والحجّ .

فلمّا أتاه ذلك من الله ، ضاق بذلك صدر رسول الله ، وتخوّف أن يرتدّوا عن دينهم ، وأن يكذبّوه ، فضاق صدره وراجع ربّه عزّ وجلّ فأوحى الله إليه :

يَأَيّهَا الرّسُولُ بَلّغْ مَآ أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِن رّبّكَ وَإِن لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النّاسِ . (58)

فصدع بأمر الله عزّ ذكره فقام بولاية عليّ عليه السلام يوم غدير خمّ ، فنادى : الصّلاَةُ جَامِعَةً ، وأمر الناس أن يبلّغ الشاهد الغائب .

قال عُمَرُ بْنُ أُذَيْنَة : قالوا جميعاً غير أبي الجارود : قال الباقر عليه السلام : وكانت الفريضة تنزل بعد الفريضة الأُخرى ، وكانت الولاية آخر الفرائض ، فأنزل الله عزّ وجلّ : أَلْيومَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى . (59) قال الإمام : يقول الله عزّ وجلّ : لا أُنزل عليكم بعد هذه فريضةً ، قد أكملت لكم الفرائض . (60)

9 . عن محمّد بن يعقوب بإسناده عن أحمد بن محمّد ، عن عليّ بن الحكم ، عن الحسين بن أبي العلاء قال : ذكرت لأبي عبد الله عليه السلام : الأوصياء انّ طاعتهم مفترضة ؟ قال ، فقال : نعم ، هم الذين قال الله فيهم : أَطِيعُوا اللَهَ وَأَطِيعُوا الرّسُولَ وَأُولِى الْأَمْرِ مِنكُمْ . (61) وهم الذين قال الله فيهم :

إِنّمَا وَلِيّكُمُ اللَهُ وَرَسُولُهُ وَالّذِينَ ءَامَنُوا الّذِينَ يُقِيمُونَ الصّلَوةَ وَيُؤتُونَ الزّكَوةَ وَهُمْ رَ كِعُونَ . (62)

10 . عن «تفسير عليّ بن إبراهيم» ، عن أبيه ، عن صفوان ، عن أبان ابن عثمان ، عن أبي حمزة الثماليّ ، عن الإمام الباقر عليه السلام ، قال : بينا رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم جالس وعنده قوم من اليهود فيهم عبد الله بن سلام إذ نزلت عليه هذه الآية فخرج رسول الله إلى المسجد ، فاستقبله سائل ، فقال صلّى الله عليه وآله وسلّم : هل أعطاك أحد شيئاً ؟ قال : نعم ، ذلك المصلّي ، فجاء رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم فإذا هو عليّ [بن أبي طالب] عليه السلام . (63)

وذكر المجلسيّ هذه الرواية في «بحار الأنوار» عن «تفسير عليّ بن إبراهيم» . (64) ونقلها

البحرانيّ أيضاً في «تفسير البرهان» عن عليّ بن إبراهيم . (65)

11 . وعن «تفسير العيّاشيّ» عن ابن أبي يعفور قال : قلتُ لأبي عبد الله عليه السلام : أعرض عليك ديني الذي أدين الله به ؟!

قال : هاته .

قلتُ : أَشْهَدُ أَن لَا إلَهَ إلّا اللَهُ ، وَأَشْهَدُ أَنّ مُحَمّداً رَسُولُ اللَهُ ؛ وأُقِرّ بِمَا جَاءَ بِهِ مِنْ عِنْد اللَهِ . [قال ابن أبي يعفور] : ثمّ وصَفت له الأئمّة حتّى انتهيت إلى أبي جعفر عليه السلام ، قلتُ :

وأقول فيك ما أقول فيهم .

فقال : أنهاك أن تذهب باسمي في الناس .

قال أبان ، راوي هذه الرواية : قال ابن أبي يعفور : قلتُ له مع الكلام الأوّل ، وأزعم أنّهم الذين قال الله في القرآن : أَطِيعُوا اللَهُ وَأَطِيعُوا الرّسُولَ وَأُولِى الْأَمْرِ مِنكُمْ .

فقال أبو عبد الله : والآية الأُخرى !

قلتُ له : جعلت فداك ! أيّ آية ؟!

قال : إنّمَا وَلِيّكُمُ اللَهُ وَرَسُولُهُ وَالّذِينَ ءَامَنُوا الّذِينَ يُقِيمُونَ الصّلَوةَ وَيُؤتُونَ الزّكَوةَ وَهُمْ رَ كِعُونَ .

ثمّ قال لابن أبي يعفور : رحمك الله !

قلتُ : تقول : رحمك الله على الإقرار بهذا الأمر ؟!

قال : رحمك الله على هذا الأمر ! (66)

وروى المجلسيّ رضوان الله عليه هذا الحديث عن «تفسير العيّاشيّ» حتّى بيان الآية إنّمَا وَلِيّكُمُ اللَهُ ولم يذكر ذيله . (67)

12 . عن «تفسير العيّاشيّ» بإسناده عن المفضّل بن صالح ، عن بعض الأصحاب ، عن أحدهما : الباقر أو الصادق عليهما السلام : لَمّا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ «إنّمَا وَلِيّكُمُ اللَهُ وَرَسُولُهُ وَالّذِينَ ءَامَنُوا» شُقّ ذَلِكَ عَلَى النّبِيّ صَلّى اللَهُ عَلَيهِ وَآلِهِ وَسَلّمَ وَخَشِيَ أَنْ يُكَذّبَهُ قُرَيْشٌ فَأَنْزَلَ اللَهُ .

«يَأَيّهَا الرّسُولُ بَلّغْ مَآ أُنْزِلَ إلَيْكَ مِن رّبّكَ فَإن لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلّغْتَ رَسَالَتَهُ» فَقَامَ بِذَلِكَ يَوْمَ غَدِيرِ خُمّ . (68)

وذكر المجلسيّ رضوان الله عليه هذا الحديث كلّه . (69)

13 . عن «تفسير العيّاشيّ» عن أبي جميلة ، عن بعض الأصحاب ، عن أحد الإمامين ، أنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم قال : إنّ اللَهَ أَوْحَى إلَيّ أَنْ أُحِبّ أَرْبَعةً : عَلِيّاً وَأَبَا ذَرّ وَسَلْمَانَ وَمِقْدَادَ ؛ فَقُلْتُ : أَلَا فَمَا كَانَ مِنْ كَثْرَةِ النّاسِ ؟ أَمَا كَانَ أَحَدٌ يَعْرِفُ هَذَا الأَمْرَ ؟ فَقَالَ : بَلَى ثَلَاثَةٌ !

قُلْتُ : هَذِهِ الآيَاتُ أُنْزِلَتْ : «إنّمَا وَلِيّكُمُ اللَهُ وَرَسُولُهُ وَالّذِينَ ءَامَنُوا» ، وقولُهُ : «أَطِيعُوا اللَهَ وَأَطِيعُوا الرّسُولَ وَأُولِى الْأَمْرِ مِنكُمْ» ، أَمَا كَانَ أَحَدٌ يَسْأَلُ فِيمَ نَزَلَتْ ؟!

فَقَالَ : مِنْ ثَمّ أَتَاهُمْ لَمْ يَكُونُوا يَسْأَلُونَ . (70)

وأورد المجلسيّ هذه الرواية كلّها في «بحار الأنوار» . (71)

14 . عن «تفسير العيّاشيّ» بإسناده عن الفضيل ، عن أبي جعفر الباقر عليه السلام في تفسير الآية : إِنّمَا وَلِيّكُمُ اللَهُ وَرَسُولُهُ وَالّذِينَ ءَامَنُوا ، قال : هُمُ الْأَئِمّةُ عَلَيهِمُ السّلَامُ . (72)

وذكر المجلسيّ هذه الرواية أيضاً . (73)

15 . عن ابن بابويه بإسناده ، عن أبي سعيد الورّاق ، عن أبيه ، عن جعفر بن محمّد ، عن أبيه ، عن جدّه في حديث مُنَاشَدة أميرالمؤمنين عليه السلام أبا بكر حين ولي أبو بكر الخلافة ، وذكر فضائله عليه السلام لأبي بكر والنصوص عليه من رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم فكان فيما قال له عليه السلام :

أَنْشُدُكَ باللَهِ إِلَيّ الْوَلَايَةُ مِنَ اللَهِ مَعَ وَلَايَةِ رَسُولِ اللَهِ صَلّى اللَهُ عَلَيهِ وَآلِهِ وَسَلّمَ في آيَةِ زَكَاةِ الْخَاتَمِ ، أَمْ لكَ ؟! قَالَ : بَلْ لَكَ ! (74)

16 . [عن] الشيخ الطوسيّ في كتاب «المجالس» بإسناده إلى أبي ذرّ في حديث مناشدة أمير المؤمنين عليه السلام عُثمَان ، والزّبَيْر ، وعَبْدَ الرّحمنِ بْنَ عَوْف ، وسَعْدَ بنَ أبي وَقّاص ٍ يوم الشورى ، واحتجاجه عليهم بما فيه من النصوص من رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم والكلّ منهم يصدّقه فيما يقوله ، فكان ممّا ذكره :

فَهَلْ فِيكُمْ أَحَدٌ أَتَى الزّكَاةَ وَهُوَ رَاكِعٌ فَنَزَلَتْ فِيهِ : «إِنّمَا وَلِيّكُمُ اللَهُ وَرَسُولُهُ وَالّذِينَ ءَامَنُوا الّذِينَ يُقِيمُونَ الصّلَوةَ وَيُؤتُونَ الزّكَوةَ وَهُمْ رَ كِعُونَ» غَيْرِي ؟ قَالُوا : لَا . (75)

17 . عن أحمد بن عليّ بن أبي طالب الطبرسيّ في كتاب «الاحتجاج» في رسالة [الإمام] أبي الحسن الثالث : عَلِيّ بْنِ مُحَمّدٍ الهَادِيّ عليه السلام إلى أهل الأهواز حين سألوه عن الجبر والتفويض :
قال عليه السلام : اجتمعت الأُمّة قاطبة لا اختلاف بينهم في ذلك أنّ القرآن حقّ لا ريب فيه عند جميع فرقها ، فهم في حالة الاجتماع عليه مصيبون ، وعلى تصديق ما أنزل الله مهتدون لقول النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم : لَا تَجْتَمِعُ أُمّتِي عَلَى ضَلَالَةٍ . فأخبر عليه السلام أنّ ما اجتمعت عليه الأُمّة ولم يخالف بعضها بعضاً هو الحقّ .

فهذا معنى الحديث لا ما تأوّله الجاهلون ، ولا ما قاله المعاندون من إبطال حكم الكتاب ، واتّباع أحكام الأحاديث المزوّرة ، والروايات المزخرفة ، واتّباع الأهواء المردية المهلكة التي تخالف نصّ الكتاب ، وتحقيق الآيات الواضحات النيّرات ، ونحن نسألُ الله أن يوفّقنا للصلاة ويهدينا إلى الرشاد .

ثمّ قال عليه السلام : فإذا شهد الكتاب بصدق خبر وتحقيقه فأنكرته طائفة من الأُمّة وعارضته بحديث من هذه الأحاديث المزوّرة ، فصارت بإنكارها ودفعها الكتاب ضلالاً . وأصحّ خبر ممّا عرف تحقيقه من الكتاب مثل الخبر المجمع عليه من رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم قال :

إنّي مُسْتَخْلِفٌ فِيكُمْ خَلِيفَتَينِ : كِتَابَ اللَهِ وَعِتْرَتِي . مَا إن تَمَسّكْتُمْ بِهِما لَنْ تَضِلّوا بَعْدِي وَإنّهُمَا لَنْ يَفْتَرِقَا حَتّى يَرِدَا عَلَيّ الْحَوْضَ .

واللفظة الأُخرى عنه في هذه المعنى بعينه ، قوله صلّى الله عليه وآله وسلّم :

إنّي تَارِكٌ فِيكُمُ الثّقَلَيْنِ : كِتَابَ اللَهِ وَعِتْرَتِي : أَهْلَ بَيْتِي ، وَإنّهُمَا لَنْ يَفْتَرِقَا حَتّى يَرِدَا عَلَيّ الْحَوضَ ، مَا إنْ تَمَسّكْتُمْ بِهِمَا لَنْ تَضِلّوا .

فلّما وجدنا شواهد هذا الحديث نصّاً في كتاب اللهِ ، مثل قوله : إنّمَا وَلِيّكُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَالّذِينَ ءَامَنُوا الّذِينَ يُقِيمُونَ الصّلَوٰةَ وَيُؤتُونَ الزّكَوٰةَ وَهُمْ رَ كِعُونَ .

ثُمّ اتّفقت روايات العلماء في ذلك لأمير المؤمنين عليه السلام أنّه تصدّق بخاتمه وهو راكع ، فشكر الله ذلك له ، وأنزل الآية فيه .

ثمّ وجدنا رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم قد أنابه من أصحابه بهذه اللفظة : مَنْ كُنْتُ مَوْلاَهُ فَعَلِيّ مَوْلاَهُ ؛ اللَهُمّ وَالِ مَنْ وَالاَهُ وَعَادِ مَن عَادَاهُ ! (76) وقوله صلّى الله عليه وآله وسلّم : عَلِيّ يَقْضِي دَيْنِي ، وَيُنْجِزُ مَوْعِدِي ، وَهُوَ خَلِيفَتِي عَلَيْكُمْ بَعْدِي .

وقوله صلّى الله عليه وآله وسلّم حين استخلفه على المدينة ، فقال : يَا رَسُولَ اللَهِ ! أَتُخَلّفُنِي عَلَى النّسَاءِ وَالصّبْيَانِ ؟! فَقَالَ صَلّى اللَهُ عَلَيهِ وَآلِهِ وَسَلّمَ : أَمَا تَرْضَى أن تكونَ مِنّي بِمَنْزِلَةِ هَارونَ مِنْ مُوسَى إلّا أَنّهُ لَا نَبِيّ بَعْدِي .

فعلمنا أنّ الكتاب شهد بتصديق هذه الأخبار ، وتحقيق هذه الشواهد فيلزم الأُمّة الإقرار بها إذا كانت هذه الأخبار وافقت القرآن ووافق القرآن هذه الأخبار . فلمّا وجدنا ذلك موافقاً لكتاب اللهِ ، ووجدنا كتاب الله موافقاً لهذه الأخبار ، وعليها دليلاً كان الاقتداء فرضاً لايتعدّاه إلّا أهل العناد والفساد . (77)

18 . عن الطبرسيّ في «الاحتجاج» في حديث أمير المؤمنين عليه السلام : قال المنافقون لرسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم : هل بقيّ لربّك علينا بعد الذي فرض علينا شيء آخر يفترضه فتذكر فتسكن أنفسنا إلى أنّه لم يبق غيره ؟!

فأنزل الله في ذلك : «قُلْ إنّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ» يَعْنِي الْوَلاَيَةِ ، فَأَنْزَلَ اللَهُ : «إنّمَا وَلِيّكُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَالّذِينَ ءَامَنُوا الّذِينَ يُقِيمُونَ الصّلَوٰةَ وَيُؤتُونَ الزّكَوٰةَ وَهُمْ رَ كِعُونَ» . وَلَيْس بَيْنَ الأُمّة خِلاَفٌ أَنّهُ لَمْ يُؤْتِ الزّكَاةَ يَؤْمَئِذٍ وَهُوَ رَاكِعٌ غَيْرُ رَجُلٍ وَاحِدٍ لَوْ ذُكِرَ اسْمُهُ فِي الْكِتَابِ لأُسْقِطَ مَعَ مَا أُسْقِطَ مِن ذِكْرِهِ .

وَهَذَا وَمَا أَشْبَهَهُ مِنَ الرّمُوزِ الّتِي ذَكَرْتُ لَكَ ثُبُوتَهَا فِي الْكِتَابِ لِيَجْهَلَ مَعْنَاهَا الْمُحَرّفُونَ فَيَبْلُغَ إلَيْكَ وَإلَى أَمْثَالِكَ ؛ وَعِنْدَ ذَلِكَ قَالَ اللَهُ عَزّ وَجَلّ :

«أَلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلَمَ دِيناً» . (78)

يقول السيّد هاشم البحرانيّ هنا : كفى بالإمام عليّ بن محمّد الهاديّ عليه السلام ناقلاً الإجماع على أنّها نزلت في أمير المؤمنين عليه السلام ، وقوله أيضاً حجّة فلا مزيد على ذلك . (79)

لقد احتجّ أمير المؤمنين عليه السلام وسائر الأئمّة الطاهرين عليهم السلام بآية الولاية والتصدّق بالخاتم في مواضع كثيرة ؛ وذكروا ذلك شاهداً ودليلاً عند مخاصمتهم المنكرين والزاعمين خلافه . ولم يُر أحد قطّ أنكر دلالة الآية على ولاية أمير المؤمنين .

وممّا ذكره الطبرسيّ : احتجاج أمير المؤمنين عليه السلام بآية الولاية يوم الشورى على أصحاب الشورى (الزُبَير ، وَطَلْحَة ، وَعُثْمَان ، وَسَعْد ، وَعَبْد الرّحْمَن) وذلك ضمن مناشدة واحتجاج مفصّل :

قَالَ : نَشَدْتُكُمْ بِاللَهِ : هَلْ فِيكُمْ أَحَدٌ نَزَلَتْ فِيهِ هَذِهِ الآيَةُ : «إِنّمَا وَلِيّكُمُ اللَهُ وَرَسُولُهُ وَالّذِينَ ءَامَنُوا الّذِينَ يُقِيمُونَ الصّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ الزّكَوٰةَ وَهُمْ رَ كِعُونَ» غَيري ؟! قَالُوا : لَا . (80)

وممّا نقله الطبرسيّ ضمن احتجاج أمير المؤمنين عليه السلام على المهاجرين والأنصار :

قَالَ : فَأَنْشُدُكُمْ بِاللَهِ : أَتَعْلَمُونَ حَيْثُ نَزَلَتْ : «يَأَيّهَا الّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللّهَ وَأَطِيعُوا الرّسُولَ وَأُولِى الْأَمْرِ مِنكُمْ» ، (81) وَحَيْثُ نَزَلَتْ : «إِنّمَا وَلِيّكُمُ اللَهُ وَرَسُولُهُ وَالّذِينَ ءَامَنُوا الّذِينَ يُقِيمُونَ الصّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ الزّكَوٰةَ وَهُمْ رَ كِعُونَ» . وَحَيْثُ نَزَلَتْ : «وَلَمْ يَتّخِذُوا مِن دُونِ اللَهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤمِنِينَ وَلِيجَةً» . (82)

قَالَ النّاسُ : يَا رَسُولَ اللَهِ ! أَخَاصّةٌ فِي بَعْضِ الْمُؤمِنِينَ أَمْ عَامّةٌ لِجَمِيعِهِمْ ؟!

فَأَمَرَ اللَهُ نَبِيّهُ أَنْ يُعْلِمَهُمْ وُلَاةَ أَمْرِهِمْ وَأَنْ يُفَسّرَ لَهُمْ مِنَ الْوَلَايَةِ مَا فَسّرَ لَهُمْ مِنْ صَلَاتِهِمْ وَزَكَاتِهِمْ وَصَوْمِهِمْ وَحَجّهِمْ ، فَنَصَبَنِي لِلنّاسِ عَلَماً بِغَدِيرِ خُمّ ؟ الحديث . (83)

وممّا أورده الطبرسيّ من احتجاج أمير المؤمنين عليه السلام على المهاجرين والأنصار ، رواية يرويها عن سُليم بن قَيس يقول فيها «سأل رجل عليّ بن أبي طالب عليه السلام ، فقال . وأنا أسمع . : أخبرني بأفضل منقبة لك !

قال : ما أنزل الله في كتابه .

قال : وما أنزل الله فيك ؟!

قال : أَفَمَن كَانَ عَلَى بَيّنَةٍ مّن رّبّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مّنْهُ . (84)

[قال] أنا الشاهد من رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم !

وقوله : وَيَقُولُ الّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَى بِاللَهِ شَهِيداً بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُو الْكِتَبِ . (85)

إيّاي عنى بمن عنده علم الكتاب ؛ فلم يدع شيئاً أنزل الله فيه إلّا ذكره . مثل قوله : إِنّمَا وَلِيّكُمُ اللَهُ وَرَسُولُهُ وَالّذِينَ ءَامَنُوا الّذِينَ يُقِيمُونَ الصّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ الزّكَوٰةَ وَهُمْ رَ كِعُونَ .

وقوله : أَطِيعُوا اللّهَ وَأَطِيعُوا الرّسُولَ وَأُولِى الْأَمْرِ مِنكُمْ . وغير ذلك . الحديث. (86)

يقول البحرانيّ : روى عَمّار السّابَاطِيّ عن الإمام الصادق عليه السلام «أنّ الخاتم الذي تصدّق به أمير المؤمنين عليه السلام وزن أربعة مثاقيل حلقته من فضّة ، وفصّه خمسة مثاقيل ، وهو من ياقوتة حمراء . وثمنه خراج الشام ، وخراج الشام ثلاثمائة حمل من فضّة وأربعة أحمال من ذهب . وكان الخاتم لمران بن طوق ، قتله أمير المؤمنين عليه السلام وأخذ الخاتم من إصبعه ، وأتى به إلى النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم من جملة الغنائم . وأمره النبيّ أن يأخذ الخاتم ! (87) فأخذ الخاتم ، وأقبل وهو في إصبعه وتصدّق به على السائل في أثناء صلاته وهو يصلّي خلف النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم .

وقال الغَزَاليّ في كتاب «سِرّ الْعَالَمِينَ» إنّ الخاتم الذي تصدّق به أمير المؤمنين عليه السلام كان خاتم سُلَيمان بن دَاوُد عليه السلام . وقال الشيخ الطوسيّ : إنّ التصدّق بالخاتم كان في يوم الرابع والعشرين من ذي الحجّة . وذكر ذلك صاحب كتاب «مَسَارّ الشّيعة» . وذكر انّه أيضاً من المُبَاهَلَة . (88)

وذكر العلّامة الأمينيّ فيالجزء الثالث من كتاب «الغدير» من ص 156 إلى ص 162 أسماء ستّة وستّين شخصاً من حفّاظ أهل السنّة ومشايخهم الكبار مع عناوين كتبهم ، كلّهم ذكروا أنّ هذه الآية نزلت في أمير المؤمنين عليه السلام . وحينئذٍ فإنّ إنكار ابن تيميّة المعاند للشيعة والمروّج للحزب الأمويّ ليس إلّا مكابرة للحقّ وإنكاراً لأمر بديهيّ واضح .

هذا وقد استعرض سماحة الأُستاذ العلّامة الطباطبائيّ رضوان الله عليه آية الولاية وناقشها مناقشة بليغة مركّزة ، مُقتطفاً من كلّ مجموعة من الروايات الواردة رواية تناسب هذا المقام . وقال في آخر كلامه :

«والروايات في نزول الآيتين في قصّة التصدّق بالخاتم كثيرة أخرجنا عدّة منها من كتاب «غَايَةُ الْمَرَام» للبحرانيّ ، وهي موجودة في الكتب المنقول عنها ، وقد اقتصرنا على ما نقل عليه من اختلاف اللحن في سرد القصّة .

وقد اشترك في نقلها عدّة من الصحابة ك أبي ذَرّ الغِفاريّ ، وَعَبْدِ اللهِ ابْنِ عَبّاس ، وأَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ، وَعَمّار بْنِ يَاسِرِ ، وَجَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ الأَنْصارِيّ ، وَسَلَمَةَ بْنِ كُهَيْل ، وَأَبي رَافِعٍ ، وَعَمْرو بْنِ العَاصِ ، وَعَلِيّ بن أَبي طَالِبٍ ، وَالْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيّ ، وكذا من غير الصحابة ك السجّاد ، والبَاقِر ، والصّادِقِ ، والْهَادِيّ ، وغيرهم من أئمّة الحديث والرواية .

وقد اتّفق على نقلها من غير ردّ أئمّة التفسير المأثور ك أحمد بن حَنْبَل ، والنَسائيّ ، والطَّبَرِيّ ، والطَّبَرانيّ ، وعَبد بن حَمِيد ، وغيرهم من الحفّاظ وأئمّة الحديث .

وقد تسلّم ورود الرواية المتكلّمون ، وأوردها الفقهاء في مسألة الفعل الكثير من بحث الصلاة ، وفي مسألة «هل تسمّى صدقة التطوّع زكاة» ولم يناقش في صحّة انطباق الآية على الرواية فحول الأدب من المفسّرين ك الزَمَخْشَرِيّ في «الكَشّاف» وأبي حَيّان في تفسيره ، ولا الرواة النقلة وهم أهل اللسان .

فلا يعبأ بما ذكره بعضهم : أنّ حديث نزول الآية في قصّة الخاتم موضوع مختلق . وقد أفرط بعضهم كابن تيميّة فادّعى إجماع العلماء على كون الرواية موضوعة ؟ وهي من عجيب الدعاوي ، وقد عرفت ما هو الحقّ في البيان المتقدّم . (89)

كان ما تقدّم من حديث في صدد شأن نزول آية الولاية . وعلمنا أنّ ثمّة روايات كثيرة ومستفيضة بل ومتواترة حول نزولها في أمير المؤمنين عليه السلام مضافاً إلى الإجماع وادّعاء الإجماع والاتّفاق ؛ ولنر الآن : ما هي دلالة الآية ؟ وما هي دلالتها من منظار فقه القرآن ؟

الوّليّ كما ذكرنا صيغة فَعِيل من مصدر الولاية . وكما قال الراغب الأصفهانيّ في «مفردات

القرآن» الْوَلاء (بفتح الواو) وَالتَّوالِي أنْ يَحْصُلَ شَيْئَآنِ فَصَاعِداً حُصُولاً لَيْسَ بَيْنَهُمَا مَا لَيْسَ مِنْهُمَا .

فهذه هي حقيقة معنى الولاية ؛ وأمّا المعاني الأُخرى لها كالنصرة ، والمحبّة ، والمودّة ، والتصرّف في الأُمور ، وولاء العتق وأمثالها فترجع إلى ذلك الأصل . وقد أُطلق كلّ واحد منها مع الخصوصيّات التي يحملها في موضوعه وذلك في أيّ موضع من المواضع ، مع الاحتفاظ بالمعنى الأصليّ المذكور .

ومن هذا المنطلق ، فإنّ لفظ الوَلَاية ليس له معان عديدة على نحو الاشتراك اللفظيّ ، بل له معنى واحد على نحو الاشتراك المعنويّ . وقد استعمل في هذه المواضع والعناوين المتنوّعة من باب انطباق ذلك الأمر الواحد على هذه المصاديق . ومتى لم تكن هناك قرينة لصرف المعنى الحقيقيّ إلى المجازيّ ، وملاحظة خصوصيّة الحالة التي يستعمل فيها عينها ، واستهداف خصوصيّة التصرّف ، والمحبّة ، والعِتق وأمثالها ، فإنّ المقصود هو المعنى الأصليّ والحقيقيّ ؛ وحيثما لم نستطع أن نترك المعنى الأصليّ والعامّ وشأنه ، فإنّنا نقتصر على أحد المعاني الموضوعيّة والمصاديق المعيّنة ، مع وجود القرينة .

هذا هو معنى لفظ الولاية مع مشتقّاته التي تمّ اشتقاقها من هذا المصدر ؛ ولذلك يستعار للقرب من حيث المكان ، ومن حيث النسبة ، والصداقة ، والنصرة ، والاعتقاد .

قال الراغب : وقولهم تَوَلّى إذا عُدّي بنفسه اقتضى معنى الولاية وحصوله في أقرب المواضع ، منه يقال : وَلَّيْتُ سَمْعي كَذَا ؛ وَوَلَّيْتُ عَيْنِي كَذَا ، وَوَلَيْتُ وَجْهِي كَذَا . قال الله عَزّ وَجَلّ : فَلَنُوَلِّيَنَكَ قِبْلَةً تَرْضَىهَا . (90)

وقال : فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ . (91) وقال : وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ . (92)

وإذا عُدّي بعن لفظاً أو تقديراً ، اقتضى معنى الإعراض وترك قربه . انتهى . (93)

ويستفاد ممّا قيل أنّ الوَلَاية هي القرب الخاصّ . وإذا ما لوحظت في الأُمور المعنويّة ، فهي تتطلّب أن يكون للوليّ حقّ لا يكون لغيره إلّا بواسطته .

ولذلك فإنّ جميع ما يخصّه من تصرّفات في شؤونه وأُموره ، يستطيع أن يقوم بها شخص ذو شأن . وتكون قابلة للنيابة والاستخلاف عندما يقوم الوَليّ بها كوليّ الميّت ؛ لأنّ للوارث ولاية . حيث إنّ جميع ما كان يتصرّف به الإنسان في أمواله قبل موته ، يتصرّف به وليّه الذي هو وارثه . وتسمّى هذه الولاية : وَلاية الوِراثة .

وكوَليّ الصغير فإنّه عندما يتصرّف في شؤون الصغير ، فإنّه يتصرّف فيها بولايته .

وكوليّ النصرة فإنّة يقدّم كلّ أنواع العون والمساعدة بغية الدفاع في الحالات المستوجبة لذلك .

ومن الواضح ، فإنّ الله تعالى وليّ العباد في تدبير أُمورهم الدنيويّة والأُخرويّة ؛ وهو وليّ المؤمنين في تدبير أمر الدّين والدعوة وهدايتهم نحو الكمال ، من خلال منّه بالتوفيق ورفع الموانع واقتلاع الحواجز . والنبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم وليّ العباد والمؤمنين بولاية الله وبإذنه . وأمير المؤمنين عليه السلام له الولاية على أُمّة رسول الله بولاية الله تعالى ، ولذلك ينبغي لنا أن نأخذ الولاية بمعناها

الحقيقيّ والأصليّ في الآية الكريمة : إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وهو ما يتطلّب التصرّف في الأُمور ، والأولويّة في النفس والمال والعرض والدين .

لقد جاءت هذه الولاية في الآية المباركة بصيغة المفرد ، حيث قالت : «إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ» والخبر هو «وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا» ، إذ إنّ الولاية أمر واحد لا يقبل التعدّد والتكثّر إلّا بلحاظ الظروف التي تدعو إلى ذلك مجازاً واعتباراً ، ومن المعلوم أنّ أصل الولاية ينحصر في ذات الحقّ تبارك وتعالى ، وهو لرسول الله وغير رسول الله بالتَّبَعِ والمجاز .

وما جاءت أداه الحصر «إنّما» إلّا لتبيّن أنّ هذه الحقيقة مقصورة على الله ورسوله وخلفائه بالحقّ ، فقد رفعت كلّ الحجب ؛ فلم يبق بين ذات الحقّ المقدّسة وبينهم فاصلة وحجاب .

ومن هذا المنطلق ، فإنّ الولاية أمر واحد ، وولاية الله ورسوله والمتصدّق راكعاً هي ولاية واحدة ذات معنى واحد . والشاهد على هذا المعنى هو ما جاء في ذيل الآية : فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَلِبُونَ . أي أنّ الذين قبلوا ولاية الله ورسوله وأمير المؤمنين كلّهم حِزْبُ الله ، لأنّهم يستظلّون بهذه الولاية التي تمثّل أمراً واحداً وهي لله ، وحزبه . طبعاً . هم الغالبون .

وينبغي أن نعلم أنّ قوله : الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَ كِعُونَ . كان مقصوراً في عصر رسول الله على أمير المؤمنين الذي يمثّل وحده مصداقه الخارجيّ ، لكن هذا لا يعني أنّه قد استعمل خاصّاً به ، أي : أنّ لفظ الجمع قد استعمل في معنى المفرد ، بل إنّ مصداق ذلك اللفظ كان واحداً . وهذا النوع من الاستعمال شائع ورائج كثيراً ، وهو متداول في كلام أهل البلاغة والفصاحة ، ولعلّه يعتبر من المحسّنات في الكلام أحياناً إذ يقال إنّ للفظ الكلّيّ معنى عامّاً . وهذا هو المقصود ، إلّا أنّ هذا الكلّيّ ليس له في الخارج غير مصداق واحد أو مصداقين .

من الطبيعيّ أنّ استعمال الجمع في المفرد غير صحيح ، بَيدَ أنّه لا إشكال في استعمال الجمع بمعنى الجمع مع إرادة فرد خاصّ من باب انطباق ذلك الجمع على هذا المفرد ؛ والمسلّم هو أنّ المراد من قوله : وَالَّذِينَ ءَامَنُوا هو معنى الجمع من حيث الاستعمال الأدبيّ ، إلّا أنّ مصداقه الخارجيّ لم يكن أكثر من إنسان واحد ، وهو أمير المؤمنين عليه السلام .

ولعل السرّ من وراء التعبير بلفظ الجمع هو : أوّلاً : ليشعر أنّ إعطاء هذا المنصب لم يكن جزافاً واعتباطاً ، بل بسبب ملكات وصفات تفرّد بها سيّدنا عليّ بن أبي طالب عليه السلام .

وثانياً : ومن هذا المنطلق فقد ظلّت الآية الشريفة على كلّيّتها وشملت الأئمّة الاثني عشر ، خلفاء رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم بالحقّ ، وجعلتهم جميعاً تحت هذا العنوان .

وذكر الشيعة هذا الموضوع في تفاسيرهم بشكل واضح ومفصّل ، وبرهنوا على ولاية أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب من خلال الروايات الكثيرة المسلّمة الواردة في شأن النزول . وذكروا هذه الآية كإحدى الآيات القرآنيّة الكريمة الواردة في ولايته الملازمة للإمامة .

وأمّا العامّة الذين ينتهجون مذهباً أساسه مخالف لهذه الولاية ، فإنّهم مع إقرارهم واعترافهم بشأن نزول الآية في أمير المؤمنين عليه السلام وفقاً للروايات الكثيرة التي يرويها حفّاظهم وأعلامهم والأخصائيّون منهم في هذا العلم ، كما جاء ذلك في مصادرهم ، إلّا أنّهم ذهبوا مذاهب شتّى في تأويل

الآية وتبريرها لكي يصرفوا دلالتها على ولايته الملازمة لأمامته إلى ما ينسجم مع توجّهاتهم .

ومن هؤلاء الفخر الرازيّ الذي بذل قصارى جهده في تفسيره ليحول دون استنتاج إمامة وولاية مولى المتّقين وإمام الموحّدين من هذه الآية ، ولكن . وكما سترى . فإنّ هذه المحاولات العاثرة سوف لا تكون إلّا حسرة عليه ، وكما قال عزّ من قائل : ثُمّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً . (94)

إذ متى استطاع الذباب بحركاته أن يغطّي وجه الشمس ؟ ويحجب شعاعها المتألّق ؟ وأنّى له ذلك ؟

از همه محروم تر خفّاش بود

كو عَدُوى آفتاب فاش بود (95)

وفيما يلي مؤاخذات الفخر الرازيّ واحدة بعد الأُخرى مشفوعة بأجوبتنا عليها ، نذكرها هنا ليتبيّن لكم كم نكب عن الصراط وقسط حائداً عن الطريق المستقيم !

1 . يقول : لمّا كانت هاتان الآيتان بين آيتين من الآيات التي تنهى عن ولاية اليهود والنصارى ، وكان المراد من ولايتهم نصرتهم وإعانتهم ؛ لذلك فإنّ المقصود من الولاية في هاتين الآيتين أيضاً هو النصرة . والآيتان هما : الأُولى : آية 51 من هذه السورة ، سورة المائدة : يَأَيّهَا الّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنّصَرَى أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلّهُم مّنكُمْ فَإِنّهُ مِنْهُمْ إِنّ اللّهَ لاَ يَهْدِى الْقَوْمَ الظّلِمِينَ .

الثانية : الآية 57 منها : يَأَيّهَا الّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتّخِذُوا الّذِينَ اتّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مّنَ الّذِينَ أُوتُوا الْكِتَبَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفّارَ أَوْلِيَآءَ وَاتّقُوا اللّهَ إِن كُنتُم مّؤْمِنِينَ .

فوحدة السياق تقتضي أنّ المراد من الولاية في هذه الآيات جميعها معنى واحد . ولا يمكن أن يكون المراد من آيات النهي عن اتّخاذ اليهود والنصارى أولياء هو النصرة والمراد من آية اتّخاذ ولاية الله ورسوله والمؤمنين الموصوفين بالأوصاف المذكورة هو جعلهم أصحاب التصرّف في الشؤون المختلفة ، وجعلهم أئمّة .

والجواب هو : ما هو الدليل على أن نجعل الولاية في الآيات السابقة واللاحقة بمعنى النصرة ، حتّى يحلو لنا أن نحمل هذه الآية على المعنى نفسه ؟! فهذا الاحتمال رجم بالغيب وزعم بلا دليل . فالولاية في هذه الآيات كلّها هي بنفس معناها الأصليّ والحقيقيّ ، وهو رفع الحجاب والفاصلة ، وعدم البينونة بين شيئين .

وفي آيات النهيّ عن اتّخاذ الكفّار واليهود والنصارى أولياء ، يحذّرنا الله من مجاراتهم ومودّتهم ومحبّتهم ، كما أنّ هذه المعاني هي مؤدّى آيات أُخر أيضاً . وما تتطلّبه المجاراة والقرب منهم هو إفساح المجال لهم أن يتدخّلوا في أُمور المسلمين ويتصرّفوا في شؤونهم . ونحن نجد في هذه الآيات شواهد تدلّ على أنّ المراد من الولاية هنا هو ليس النصرة ؛ لقوله : بَعْضُهُم مّن بَعْضٍ أو قوله : وَمَن يَتَوَلّهُم مّنكُمْ فَإِنّهُ مِنْهُمْ . وهذا اللون من التعبير ينسجم مع الولاية بمعنى رفع الحجاب والوحدة والسيطرة الروحيّة والتصرّف في الأُمور ، لا بمعنى استنصارهم واستنجادهم فقط . ومن الطبيعيّ أنّ ما تتطلّبه ولايتهم هو استنصارهم واستنجادهم في الحالات الضروريّة . والشاهد على أنّ ولايتهم هي غير

استنصارهم ما جاء في الآية 22 من السورة 48 : الفتح ، إذ قال جلّ من قائل : وَلَوْ قَتَلَكُمُ الّذِينَ كَفَرُوا لَوَلّوُا الْأَدْبَرَ ثُمّ لَا يَجِدُونَ وَلِيّا وَلَا نَصِيرًا . نجد هنا أنّ الآية جعلت الوليّ قسيماً للنصير ، وعطفته على أساس العطف المفيد للمغايرة .

ونرى في آية الولاية أنّ الذين ليس بينكم وبينهم حجاب ، وهم قريبون منكم من كلّ الجهات بحيث لا تلحظ أيّ بينونة اثنينيّة ، هم الله ورسوله ومن تصدّق راكعاً . وما يتطلّبه هذا القرب هو التصرّف في الأُمور ، وجعلهم يتدخّلون في جميع مناحي الحياة . فالإمامة ضرورة لولايتهم ، لا أنّها عين الولاية .

2 . يقول : تدلّ الآية على أنّ المؤمنين موصوفون بالولاية عند نزول الآية ؛ فلو كانت الولاية بمعنى التصرّف في الأُمور ، وهو ما يعني الإمامة ، فإنّه يتطلّب أن يكون عليّ بن أبي طالب [عليه السلام] إماماً عند نزول الآية ولمّا لم يكن كذلك ، وحتّى بناءً على ما يعتقده الشيعة من أنّه كان إماماً بعد رسول الله ، فالولاية تحمل على المحبّة والنصرة في هذه الآية .

الجواب : لقد كان للإمام مقام الولاية في عصر رسول الله . وقلنا إنّ الولاية هي غير الإمامة ؛ غاية الأمر أنّ ما تستدعيه ولايته بعد رسول الله هو تسلّم مقاليد الأُمور ، والزعامة ، والحكومة ، والأولويّة في الأُمور .

3 . يقول : ذكر الله المؤمنين في هذه الآية بصيغة الجمع في سبعة مواضع هي : الّذِينَ . آمَنُوا . الّذِينَ . يُقِيمُونَ . يُؤْتُونَ . هُمْ . رَاكِعُونَ . وحمل ألفاظ الجمع ، وإن جاز على الواحد على سبيل التعظيم ، لكنّه مجاز لا حقيقة . والأصل حمل الكلام على الحقيقة .

والجواب هو : لم يحمل الجمع على الواحد هنا ، بل حمل على معناه العامّ والجامع ، وقد أُريد المعنى العامّ والكلّيّ ؛ غاية الأمر أنّ المعنى الكلّيّ ليس له في الخارج أكثر من شخص واحد ، وذلك الشخص هو عليّ بن أبي طالب عليه السلام .

وإنّ ما لا يجوز في اللغة إلّا على نحو المجاز هو القسم الأوّل لا القسم الثاني . وقد تبسّط أُستاذنا سماحة آية الله العلّامة الطباطبائيّ رضوان الله عليه في توضيح هذا المعنى عند تفسيره آية المباهلة في «تفسير الميزان» . (96)

ونحن نرى في كثير من المواضع في القرآن الكريم أنّ الحكم قد جاء على نحو العموم وعلى سبيل الجمع ، في حين أنّ المقصود هو شخص واحد . كقوله : الّذِينَ قَالَ لَهُمُ النّاسُ إِنّ النّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ . (97)

والمراد من الناس القائلين هنا هو نَعيمُ بْنُ مَسْعُود الْأَشْجعِيّ . وقوله : ثُمّ أَفِيضُوا مِن حَيثُ أَفَاضَ النّاسُ . (98)

والمراد من الناس هنا هو رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم . وقوله: الّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَ نِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا . (99)

والمراد من القائلين هنا هو عَبْدُ اللَهِ بْنُ أُبَيّ بن سَلُول رأس المنافقين في المدينة . (100)

وقد ذكرنا أنّ المخاطب في قوله تعالى : يَأَيُّهَا الّذِينَ ءَامَنُوا لاَ تَتّخِذُوا عَدُوِّى وَعَدُوّكُمْ أَوْلِيَآءَ . هو حاطِبُ بْنُ أَبِي بُلْتَعَة الذِي كان يتجّسس لصالح كفّار مكّة . وأنّ المقصود من المنفقين في قوله تعالى : الّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَ لَهُم بِالّيْلِ وَالنّهَارِ سِرّا وَعَلاَنِيَةً . (101) هو عليّ بن أبي طالب عليه السلام خاصّةً . وأنّ المراد من القائلين في قوله تعالى : وَمِنْهُمُ الّذِينَ يُؤْذُونَ النّبِىّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لّكُمْ . (102)

، هو عَبْدُ اللّهِ بْنُ نَبْتَل أحد المنافقين . (103)

والعجيب هو أنّ بين هذه الآيات ذات الصلة بموضوعنا آية جاءت بلفظ الجمع في حين أنّ المقصود هو شخص واحد كما اتّفق على ذلك مفسّرو العامّة جميعهم ، وهذا الشخص هو : عَبْدُ اللّهِ بْنُ أُبَيّ .

والآية هي : فَتَرَى الّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مّرَضٌ يُسَرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ . (104)

وكيف يجوز أن يأتي لفظ الجمع في هذه الآية والآية التي تليها في أحد عشر موضعاً (105) هي : الّذِينَ . قُلُوبِهِمْ . يُسَارِعُونَ . فِيهِمْ . يَقُولُونَ . نَخْشَى . تُصِيبَنَا . فَيُصْبِحُوا . أَسَرّوا . أَنْفُسِهِمْ . نَادِمِينَ ، في حين أنّ المقصود هو شخص واحد ، ولا يجوز ذلك في آية الولاية الخاصّة بعليّ بن أبي طالب ؟ مع أنّ بين هذه الآية وآية الولاية آيتين فقط ! وكقوله : أَمْ يَحْسُدُونَ النّاسَ عَلَى مَآ ءَاتَهُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ . (106) فقد ذكر العلاّمة الأمينيّ في كتاب «الغدير» ج 1 ، ص 372 أنّ ابن المغازليّ في «المناقب» ، وابن أبي الحديد في «شرح نهج البلاغة» ج 2 ، ص 236 ، والحضرميّ الشاميّ في «الرّشفة» ص 27 ذكروا أنّ الآية نزلت في عليّ بن أبي طالب وعلومه المختصّة به ؛ وذكر العلاّمة الأمينيّ في الجزء الثالث من «الغدير» من ص 163 إلى ص 167 عشرين آية من كتب تفسير العامّة جاءت بصيغة الجمع في حين أنّ المقصود هو شخص واحد .

ونرى أنّ كثيراً من الآيات القرآنيّة تطرح الموضوع مصدّراً بكلمة يَسْئَلُونَكَ ؛ ثمّ تبيّن الحكم ، بينما نحن نعلم أنّ السائلين هنا هم شخص واحد . كما في الآية الكريمة : يَسْئَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ؟ (107) والآية : يَسْئَلُونَكَ عَنِ الأَهِلّةِ . (108) والآية : يَسْئَلُونَكَ عَنِ السّاعَةِ أَيّانَ مُرْسَهَا . (109)

وإذا قيل : إنّ المقصودين في هذه المواضع الكثيرة هم جماعة من الناس كانوا يتّفقون مع السائل رأياً ، وينسجمون مع الفاعل فعلاً ، وقد أجابه الله بصيغة الجمع والحكم شامل لهم ؛ فنقول في الجواب : إنّ حصيلة هذا الموضوع هي أنّ استعمال هذا اللون من الألفاظ في معاني الجمع جائز لنكتة صحيحة ؛ وهذه النكتة موجودة طبعاً في قوله تعالى : إنّمَا وَلِيّكُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ . ولعلّ السرّ فيها هو أنّ أنواع الكرامات الدينيّة والمعنويّة ومنها مقام الولاية في هذه الآية ، لم ترتكز على بعض أعمال المؤمنين جزافاً واعتباراً ، بل هي نابعة من التقدّم في مقام الإخلاص في العمل . ولعلّ السرّ فيها أيضاً هو من أجل أن تشمل أشخاصاً آخرين كأئمّة الحقّ والهدى من أهل البيت الذين ينالون مقام الولاية تدريجاً .

مضافاً إلى ذلك كلّه ، فإنّنا نرى أنّ كثيراً من ناقلي هذه الأخبار كانوا من الصحابة والتابعين الذين كان عصرهم متّصلاً بعصر الصحابة ، وهؤلاء ينحدرون من أُصول عربيّة ، ولغتهم العربيّة سليمة لم

تتغيّر ولم يعتريها خلل ؛ ولو لم يجدوا هذه الاستعمالات مناسبة في اللغة أحياناً ، فإنّ طباعهم كانت ستمجّها ولا تستسيغها ، وكانوا أحقّ من غيرهم بإثارة الإشكال ، والاعتراض ، إلّا أنّنا لم نألف أحداً منهم قد اعترض وأثار حولها إشكالاً ، أو ارتاب في نقل هذه الروايات عند تفسير آية الولاية .

يقول الزمخشريّ أُستاذ العربيّة وآدابها في «الْكَشّاف» :

فإن قلتَ : كيف صحّ أن يكون لعليّ بن أبي طالب واللفظ لفظ الجماعة ؟!

قلتُ : جيء به على لفظ الجمع . وإن كان السبب فيه رجلاً واحداً . ليرغب الناس في مثل فعله فينالوا مثل ثوابه ؛ ولينبّه على أنّ سجيّة المؤمنين يجب أن تكون على هذه الغاية من الحرص على البرّ والإحسان وتفقّد الفقراء ، حتّى إن لزهم أمر لا يقبل التأخير وهم في الصلاة ، لم يؤخّروه إلى الفراغ منها . (110)

4 . يقول : إنّ عليّ بن أبي طالب كان أعرف بتفسير القرآن من هؤلاء الروافض ، فلو كانت هذه الآية دالّة على إمامته لاحتجّ بها في محفل من المحافل ، وليس للروافض أن يقولوا : إنّه تركه للتقيّة ؛ فإنّهم ينقلون عنه أنّه تمسّك يوم الشورى بخبر الغدير ، وخبر المباهلة ، وجميع فضائله ومناقبه ، ولم يتمسّك ألبتة بهذه الآية في إثبات إمامته ، وذلك يوجب القطع بسقوط قول هؤلاء الروافض ، لَعَنَهُمُ اللَهُ .

والجواب هو : أنّ أمير المؤمنين عليه السلام قد احتجّ بهذه الآية يوم الشورى ، وقد أنشد سَعْدَ بْنَ أَبي وَقّاص ، وعُثْمَانَ ، وَعَبْدَ الرّحمن بْنَ عَوْف ، وطَلْحَةَ ، والزّبَيْر بالله وقال لهم : فَهَلْ فِيكُمْ أَحَدٌ آتى الزّكَاةَ وَهُوَ رَاكِعٌ فَنَزَلَتْ فِيهِ : «إِنّمَا وَلِيّكُمُ اللَهُ وَرَسُولُهُ وَالّذِينَ ءَامَنُوا الّذِينَ يُقِيمُونَ الصّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ الزّكَوٰةَ وَهُمْ رَ كِعُونَ .» غَيْرِي ؟! قَالُوا : لاَ .

علماً أنّنا نقلنا استدلال الإمام يوم الشورى في هذا المجلس من البحث ، ضمن الروايات الواردة تحت الرقم 16 من «غاية المرام» (111) ونقلناه عن احتجاج الشيخ الطبرسيّ أيضاً . (112)

ولم يحتجّ الإمام بها يوم الشورى فحسب ، بل احتجّ بها مع أبي بكر فيالأيّام الأُولى لغصب الخلافة أيضاً ، فقال له :

أَنْشُدُكَ بِاللَهِ أَلِيَ الْوَلاَيَةُ مِنَ اللَهِ مَع وَلاَيَةِ رَسُولِ اللَهِ صَلّى اللَهُ عَلَيهِ وَآلِهِ وَسَلّمَ في آيَةِ زَكَاةِ الْخَاتَمِ أَمْ لَكَ ؟! قَالَ : بَلْ لَكَ .

علماً أنّنا نقلنا هذا الاستدلال بعد غَصْب الخلافة ضمن الروايات الواردة تحت الرقم 15 من «غاية المرام» عن الشيخ الصدوق . (113) وكذلك نقلناه عن «احتجاج» الشيخ الطبرسيّ . (114)

5 . يقول : هب أنّ الآية دالّة على إمامة عليّ بن أبي طالب ، لكنّا توافقنا على أنّها عند نزولها مادلّت على حصول الإمامة في الحال ، لأنّ عليّاً ما كان نافذ التصرّف في الأُمّة حال حياة الرسول عليه وآله الصلاة والسلام فلم يبق إلّا أن تحمل الآية على أنّها تدلّ على أنّ عليّاً سيصير إماماً بعد ذلك ، ومتى قالوا ذلك ، فنحن نقول بموجبه ونحمله على إمامته بعد أبي بكر ، وعمر ، وعثمان ؛ إذ ليس في الآية ما يدلّ على تعيين الوقت .

وجوابنا هو : أنّ الآية تدلّ على ولايته الفعليّة التي تستلزم الإمامة ونفوذ التصرّف ، والأمر والنهي .

ولمّا توفّي رسول الله ، فإنّ الإمامة والزعامة من اللوازم الحتميّة المترتّبة على الولاية .

6 . يقول : إنّ اللائق بعليّ [عليه السلام] أن يكون مستغرق القلب بذكر الله حال ما يكون في الصلاة ، والظاهر أنّ من كان كذلك ، فإنّه لا يتفرّغ لاستماع كلام الغير ولفهمه .

والجواب هو : أنّ عدم الاستماع هو في حال الفَنَاء في الله ؛ لا في حال البقاء بالله ؛ وكانت حالات ذلك الإمام العظيم جامعة للفَناء والبَقَاء ؛ والواضح أنّ البقاء بعد الفناء أشرف وأفضل .

7 . يقول : إنّ دفع الخاتم في الصلاة للفقير عمل كثير ، واللائق بحال عليّ [عليه السلام] أن لا يفعل ذلك .

والجواب هو : أنّه ليس عملاً كثيراً ؛ وهذا العمل نفسه يدلّ على تجويز نظائره حال الصلاة .

8 . يقول : أنّ المشهور أنّه [عليه السلام] كان فقيراً ، ولم يكن له مال تجب الزكاة فيه . (115) ولذلك فإنّهم يقولون إنّه لمّا أعطى ثلاثة أقراص ، نزل فيه «سورة هل أتي» ، وذلك لا يمكن إلّا إذا كان فقيراً . فأمّا من كان له مال تجب فيه الزكاة ، يمتنع أن يستحقّ المدح العظيم المذكور في تلك السورة على إعطاء ثلاثة أقراص .

مضافاً إلى ذلك أنّ دفع الزكاة واجب فوريّ ، فكيف يتأخّر الإمام عن دفعها في أوّل الوقت ، ويدخل في الصلاة ؟

والجواب هو : أنّ اعطاء الخاتم كان صدقة مستحبّة ، ولم يكن زكاة واجبة بالمعنى المصطلح ، ذلك لأنّ تعيّن لفظ الزكاة بمعناها الاصطلاحيّ قد تمّ في عرف المتشرّعة بعد نزول القرآن وأمره بوجوبها وتشريعها في الدين . وأمّا في اللغة فإنّ لفظ الزكاة أعمّ من الزكاة المصطلحة عند المتشرّعة ؛ ومتى ما أُطلقت أو قيلت في مقابل الصلاة ، فالقصد هو إنفاق المال في سبيل الله .

ونحن نرى في كثير من الآيات القرآنيّة الكريمة تمجيداً بالأنبياء السابقين وثناءً عليهم بسبب دفع الزكاة . ومن الواضح أنّها لم تكن الزكاة بمعناها الاصطلاحيّ الذي أصبح متداولاً ، ويقع على الأشياء التسعة : الحنطة ، والشعير ، والزبيب ، والتمر ، والذهب ، والفضّة ، والبقر ، والأبل ، والضأن ، فيما لو بلغت حدّ النصاب ، وكان المقدار معيّناً .

فالزكاة ، إذَن ، هي الصدقة وإنفاق المال في سبيل الله .

قال عزّ من قائل في إبراهيم ، وإسحاق ، ويعقوب : وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَ تِ وَإِقَامَ الصَّلَوةِ وَإِيتَآءَ الزَّكَوةِ . (116)

وقال في إسماعيل : وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَوةِ وَالزَّكَوةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا . (117)

وقال في عيسى ابن مريم وهو في المهد وَأَوْصَنِى بِالصَّلَوةِ وَالزَّكَوةِ مَادُمْتُ حَيًّا . (118)

وكذلك ورد لفظ الزكاة في كثير من آيات السورة المكيّة كقوله جلّ شأنه : قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى * وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى . (119)

وقوله : الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَوةَ وَهُم بِالْأَخِرَةِ هُم كَفِرُونَ . (120)

وقوله : وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوةِ فَعِلُونَ . (121)

وغيرها من الآيات الواردة في السور المكيّة ؛ ولا سيّما السور النازلة في أوّل البعثة ، كسورة حم السجدة وغيرها ؛ ولم تشرّع الزكاة بالمعنى الاصطلاحيّ حينئذٍ قطّ .

ولا أدري ماذا يفهم هؤلاء المنكرون للولاية وآية الولاية من لفظ الزكاة في هذه الآيات ؟ بل إنّ آية الزكاة الاصطلاحيّة الواردة في القرآن جاءت بلفظ الصدقة ، فقد قال تبارك اسمه : خُذْ مِنْ أَمْوَ لِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنّ صَلَوتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ . (122)

فهذه الآية تدلّ على أنّ الزكاة المصطلحة هي من أفراد الصدقة أيضاً، ويعبّر عنها زكاة لأنّها مطهّرة ومزكّية كالصدقة ؛ ثمّ شاعت كلمة الزكاة تدريجاً في الصدقة المصطلحة والزكاة العاديّة بسبب كثرة الاستعمال . (123)

9 . يقول : لا نسلّم أنّ الولاية المذكورة في الآية غير عامّة ، ولا نسلّم أنّ كلمة إنّما للحصر ، والدليل عليه قوله : إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَآءِ . (124)

ولا شكّ أنّ الحياة الدنيا لها أمثال أُخرى سوى هذا المثل . وقال : إِنَّمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ . (125) ولا شكّ أنّ اللعب واللهو قد يحصل في غيرها . (126)

والجواب : لقد نصّ أئمّة الأدب واللغة والشعر كلّهم أنّ كلمة إنّمَاتفيد الحصر . وهي بمنزلة لَا و إلّا . وقولهم : إِنَّمَا زَيْدٌ كَرِيمٌ يعني : مَا زَيْدٌ إِلّا كَرِيمٌ . (127) وقد ابتعد الفخر الرازيّ عن الحقيقة تماماً . وكم أقصته هذه الإشكالات الواضحة النابعة من تعصّب جاهليّ عن واقع الأمر ! ونكتفي هنا بكلام العالم الكبير الشيخ أبي الفتوح الرازيّ حول كلمة إنّمَا :

تدلّ الآية على إمامة أمير المؤمنين عليه السلام ووجه استدلال الآية هو أنّ الله تعالى أثبت ولايته بكلمة إنّمَا . وفائدة ذلك إثبات الشّيء ونفي مَا سِوَاه ، كما يقول شخص : إنّما الْعَالِمُ فُلَانٌ أَي : هُوَ الْعَالِمُ لَا غَيْرُهُ ، و إِنّمَا لَكَ عِنْدِي دِرْهَمٌ ، أَي : لَيْسَ لَكَ عَلَيّ إِلّا دِرْهَمٌ .

وقال الشاعر :

وَلَسْتَ بِالْأَكْثَرِ مِنْهُمْ حَصَى
وَإِنَّمَا الْعِزّةُ لِلْكَاثِرِ

وقوله : إِنّمَا اللَهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ ، أَي : لَا إِلَهَ إِلّا اللَهُ الْوَاحِدُ . (128)

أجل ، لقد نقلنا كلام الرازيّ هنا ليتبيّن لنا إلى أيّ مدى يبذل المخالفون لمدرسة التشيّع جهودهم لإنكار الحقيقة ؛ فكانوا كلّما بذلوا جهودهم أكثر ، أخزوا أنفسهم وفضحوها أكثر ، وهم يريدون أن يبعدوا التشيّع عن عالم الحقيقة والواقع من خلال لعن الروافض الذي يمثّل عندهم حلاوة الكلام ، وهو سلاح الضعفاء والمساكين .

فهم . من جهة . يؤوّلون جميع الآيات التي تخصّ أهل البيت ويصرفونها عنهم أو يفسّرونها تفسيراً عامّاً ، ومن جهة أُخرى ، يؤوّلون جميع الآيات التي جاءت في عناد المخالفين لأهل البيت وعداؤهم

لهم ، ويصرفونها إلى غيرهم أو يفسّرونها تفسيراً عامّاً .

وقد رأينا في الجزء الثالث من كتابنا هذا «معرفة الإمام» كيف يحتالون في تفسير آية التطهير لتنطبق على أزوَاج النَّبِيّ . بينما نجدهم يتلاعبون في سورة أُخرى من سور القرآن الكريم تحدّثت بالانتقاد والتجريح لامرأتين من نساء النبيّ وهما : عائشة وحَفْصة بكلّ وضوح . ونصّ مفسّروهم على نزولها في تينك المرأتين ، إلّا أنّهم يدأبون كيفما كان في تنزيههما وتطهيرهما وتقديسهما .

وهنا تستبين مظلوميّة أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام جيّداً إذ كيف أعرضوا عنه وهو بحر العلم والحلم والوقار والسكينة والدراية والفطنة والتقوى والإيمان والإيقان ، بل وأنكروه ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً .

نعم هنا يكمن معنى الدنيا الدنيّة الوضيعة وهي جيفة أهل الدنيا وكلابها ؛ في حين يحتجب صاحب الدولة الحقّة والولاية الكلّيّة وراء حجاب الغيبة ، لأنّه إذا ظهر فإنّ هذه النسور الجارحة ستمزّق أوصاله وترتوي من دمه فتملأ به بطونها . وتلك الدولة هي دولة العلم وقد قال صادق آل محمّد .

لِكُلّ أُنَاسٍ فِي الْبَرِيّةِ دَوْلَةٌ

وَدَوْلَتُنَا فِي آخِرِ الدّهْرِ يَظْهَرُ

وقوله : الّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزّكَوةَ وَهُم بِالْأَخِرَةِ هُم كَفِرُونَ . (129)

وقوله : وَالّذِينَ هُمْ لِلزّكَوةِ فَعِلُونَ . (130)

وغيرها من الآيات الواردة في السور المكيّة ؛ ولا سيّما السور النازلة في أوّل البعثة ، كسورة حم السجدة وغيرها ؛ ولم تشرّع الزكاة بالمعنى الاصطلاحيّ حينئذٍ قطّ .

ولا أدري ماذا يفهم هؤلاء المنكرون للولاية وآية الولاية من لفظ الزكاة في هذه الآيات ؟ بل إنّ آية الزكاة الاصطلاحيّة الواردة في القرآن جاءت بلفظ الصدقة ، فقد قال تبارك اسمه : خُذْ مِنْ أَمْوَ لِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنّ صَلَوتَكَ سَكَنٌ لّهُمْ . (131)

فهذه الآية تدلّ على أنّ الزكاة المصطلحة هي من أفراد الصدقة أيضاً، ويعبّر عنها زكاة لأنّها مطهّرة ومزكّية كالصدقة ؛ ثمّ شاعت كلمة الزكاة تدريجاً في الصدقة المصطلحة والزكاة العاديّة بسبب كثرة الاستعمال . (132)

9 . يقول : لا نسلّم أنّ الولاية المذكورة في الآية غير عامّة ، ولا نسلّم أنّ كلمة إنّما للحصر ، والدليل عليه قوله : إِنّمَا مَثَلُ الْحَيَوةِ الدّنْيَا كَمَآءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السّمَآءِ . (133)

ولا شكّ أنّ الحياة الدنيا لها أمثال أُخرى سوى هذا المثل. وقال : إِنّمَا في نفسه حتّى وصل إلى المسجد ومعه عدد من أصحابه ، فسأل : هل تصدّق

اللَهُمّ وَأَنَا مُحَمّدٌ نَبِيّكَ وَصَفِيّكَ ! اللَهُمّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ، وَيَسّرْ لِي أَمْرِي ، وَاجْعَلْ لِي وَزِيراً مِنْ أَهْلِي ، عَلِيّاً ، أُشْدُدْ بِهِ ظَهْرِي .

«إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وُ هُمْ رَ كِعُونَ» .

1 . قال الثعلبيّ : قال السدّيّ ، وعُتْبَةُ بْنُ أَبي حَكِيم وَغَالِبُ بْنُ عَبْدِ اللهِ إنّما عنى بقوله سبحانه وتعالى : إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وُ هُمْ رَ كِعُونَ ، عليّ بن أبي طالب عليه السلام لأنّه مرّ به سائل ، وهو راكع في المسجد وأعطاه خاتمه .

ونقله العلّامة في «تفسير الميزان» ج 6 ، ص 19 نقلاً عن «اختصاص» المفيد ورواه أيضاً عن «الكافي» عن الحسين بن أبي العلاء ، وكذلك ذكره البحرانيّ في «تفسير البرهان» ج 1 ، ص . 293

الطبعة الحجريّة إنّ حصيلة

العامّ والجامع ، وقد أُريد المعنى العامّ والكلّيّ ؛ غاية الأمر أنّ المعنى الكلّيّ

بيوت الفقراء في الليالي المظلمة ، ويتفقّد الأرامل وا لأيتام ، يوزّع عليهم الخبز والتمر ما كان حيّاً في هذه الدنيا ؟ أجل ، لنا أن نقول فقط : إنّه لم يدّخر لنفسه مالاً قطّ ، وكان ينفق كلّ ما يقع في يده المباركة بلا تأخير ، فهو غنيّ في أعلى درجات الغنى والثراء . ولم يفهم الفخر الرازيّ المسكين أنّ عدم وجود المال الناتج عن الإنفاق المتواصل هو الغنى عينه والثراء نفسه لا الفقر الذي يمثّل ، في معناه الشرعيّ والعرفيّ ، العوز والفاقة . إنّها مظلوميّة عليّ حقّاً إذ يصفه هؤلاء المعاندون بالفقر حتّى عند تصدّقه بخاتمه للفقير ، ذلك التصدّق الذي يدلّ على كمال الغنى .

إنّ الولاية الإلهيّة الكلّيّة هي ولاية من منظار صفة الله واسمه ؛ بَيدَ أنّا إذا تغاضينا قليلاً ، فلا يعني ذلك عدم وجود الولاية ؛ بل يعني العدم المحض ، والصفر ، والمعدوم ، والفناء .

وكما أنّ للولاية الكلّيّة والمطلقة الأثر التامّ في التكوين والإيجاد ، فإنّ لها كذلك تمام الأثر في مجال الصعود والوصول . أي : لا يبلغ أحد درجة المعرفة والقرب من ذات الحقّ المقدّسة إلّا عبر هذه المرآة ، وهذه الآية الكبرى . لأنّ المرآة على سبيل الفرض كبيرة ؛ ولمّا كان جمال المحبوب ومعرفة المعبود ، بلا مرآة وحجاب متعذّرين على السالك في الوهلة الأُولى ؛ ونور الذات وتشعشعها يعمي بصر كلّ راءٍ ، ويقوده إلى حضيض الضلال ، لذلك فإنّ الوصول إلى هذه المرآة وشرطيّتها للسير في مراحل المعرفة من ألزم اللوازم . وكلنّا نعلم أنّه لا يمكن النظر إلى الشمس ، ولكن يمكن النظر إليها في المرآة .

وما أروع قول العارف المعروف : الشيخ محمّد الشبستريّ في بيان هذه الحقيقة وتوضيحها :

نگنجد نور ذات اندر مَظاهر

كه سُبْحاتِ جَلالش هست قاهر

در آن موضع كه نور حقّ دليل است

چه جاى گفتگوى جبرئيل است؟

بود نور خرد در ذات أنور

بسان چشم سَر در چشمه خُورْ (134)

چه نسبت خاك را با عالم پاك

كه اِدراكست عجز از درك ادراك

در اين مشهد كه أنوار تجلّى است

سخن دارم ولی ناگفتن أولی است
اگر خواهی که بینی چشمه خُور
ترا حاجت فتد با چشم دیگُر
چو چشم سر ندارد طاقت و تاب
توان خورشید تابان دید در آب
ازو چون روشنی کمتر نماید
در اِدراك تو حالی مىفزاید
عدم آئینه هستی است مطلق
کزو پیداست عکس تابش حقّ
عدم چون گشت هستی را مقابل
در او عکسی شد اندر حال حاصل (135)
شد آن وحدت ازین کثرت پدیدار
یکی را چون شمردی گشت بسیار
عدد گر چه یکی دارد بَدایت
ولیکن نبودش هرگز نهایت
عدم در ذات خود چون بود صافی
وزو با ظاهر آمد گنج مخفی
حدیث کُنْتُ کَنْزاً را فرو خوان
که تا پیدا ببینی گنج پنهان
عدم آئینه ، عالم عکس ، و انسان
چو چشم عکسْ در وی شخص پنهان
تو چشم عکسی و او نور دیده است
بدیده دیده را دیده که دیده است ؟
جهان انسان شد و انسان جهانی
ازین پاکیزهتر نبود بیانی (136)
چو نیکو بنگری در اصل این کار
هم او بیننده ، هم دیده است ، و دیدار
حدیث قدسی این معنی بیان کرد
فَبِی یَسْمَع و بِي يُبْصِرْ عَيان کرد (137)

ويستبين ممّا تقدّم أنّه لا شبهة ولا إشكال في ضرورة مقام الولاية في عالم التكوين ، وضرورته للصعود وبلوغ مقام التوحيد وعرفان الله ؛ وأمّا ولاية رسول الله والأئمّة المعصومين سلام الله عليهم أجمعين ، فهي ظاهرة ومشهودة من آثارهم وخصائصهم وتطبيق تلك المبادئ العامّة المذكورة على

أحوالهم العرفانيّة وملكاتهم الإلهيّة . وهذا يتحقّق عن طريقين :

الأوّل : النصوص المأثورة في مقام ولايتهم المسلّم بها ؛ والثاني : المعجزات والكرامات التي تصدر عن وليّ الله خاصّة ؛ ومن المحال أن تصدر عن غير الواجد لمقام الولاية ، كإحياء الموتى .

وقد ألّف الشيخ الجليل محمّد بن الحسن الحرّ العامليّ عامله الله برحمته كتاباً نفيساً قيّماً في هذا الباب سمّاه : «إثباتُ الْهُدَاةِ بِالنّصُوصِ وَالْمُعْجِزَاتِ» . أثبت فيه ولاية وإمامة رسول الله والأئمّة الاثني عشر ، خلفاء ذلك النبيّ العزيز بالحقّ . وذلك في فصول مستقلّة ، عن طريق المحيط ؛ وهو بصير وله عين ، أي : يدرك المُبصرات بعلمه المحيط ؛ ولله يد ، أي : قدرة ، ووسيلة لممارسة القدرة ؛ ويداه ، تعنيان صفة الجمال ، والجلال ؛ واسمي : الجميل ، والجليل . هذه معان غير مؤوّلة وغير مجازيّة . ولا قرينة عندنا على المجاز حتّى يقول أحد شيئاً يدلّ عليه ؛ وينبغي أن نحمل اللفظ على المعاني الحقيقيّة عند عدم وجود قرينة ؛ والقرينة العقليّة لا تكفي أيضاً ؛ لأنّ العقول تتباين فيما بينها هنا .

إنّ هذا النمط من البحوث السطحيّة يسوقنا آخر المطاف إلى الجمود والتعنّت والتجسّم ؛ إلّا أنّ وضع الألفاظ للمعاني العامّة يحلّ كافّة المشاكل ؛ ذلك لأنّ حقيقة الموضوع هي على هذا النسق أيضاً .

إنّ التعبّد بالمعاني المتعارفة والمستعملة للآيات القرآنيّة، التي يتداولها الناس في محادثاتهم ومحاوراتهم اليوميّة يُفقد الكتاب الإلهيّ شأنه تماماً ؛ ويبدّل هذه الآيات العالية والرفيعة بمحمولات دانية ومعان مبتذلة . وهذا التعبّد لا ينسجم مع تعليم القرآن الذي يدعونا إلى الجدّ والاجتهاد والتنقيب والتعقّل والتفكّر. فالابتعاد عن العرفان الإلهيّ، ومقام الولاية، والسير العمليّ في عوالم الحبّ والاتّصال بالباطن، والاحتراز من العلوم العقليّة والبراهين الفلسفيّة والقواعد الحِكَميّة، كلّ ذلك يولّد لنا هذه الكوارث.

لقد أراد ابْنُ تَيْميّة أن يستهدي بالقرآن والسُنّة غير أنّه ضلّ سبيله ؛ ولذلك تزهق روحه في الفيافي المجدبة بكبد ملتهب ، وقلب ذائب منصهر متحسّراً متأوّهاً على ما فرّط في جنب الله وجنب رسوله إذ يفتي بعدم قصر الصلاة للمسافر الذي يقصد المدينة لزيارة قبر رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم . (138) لأنّ هذا السفر سفر معصية ، وزيارة رسول الله بدعة . أليس والعرفان آية الله العلّامة الطباطبائيّ رضوان الله عليه ونختم بها موضوعنا هذا .

فقد نقلها لنا قبل ما يقارب خمس عشرة سنة ، (139) فقال : قبل مدّة جاءنا العميد قريب ، ونقل لنا قصّة وقعت له في مناسبة من المناسبات وهي معجبة ومسرّة للغاية .

قال : في السنة التي تشرّفت خلالها بحجّ بيت الله الحرام . ذهبنا بالباخرة عن طريق الشام حتّى وصلنا جدّة ؛ واستغرقت الرحلة أكثر من أُسبوع ، وكان معي عدد من الأصدقاء الذين هم غالباً من زملائي . وكان لدينا متّسع الوقت الكافي والمكان الهادئ لكي نتعلّم مناسك الحجّ .

وكان في الباخرة أحد العلماء قاصداً بيت الله الحرام أيضاً ، وكان دائماً يجلس لوحده ، صامتاً ، مراقباً ، ومنقطعاً إلى نفسه .

وكنّا في الأيّام الأُولى نذهب إليه لمدّة ساعة لنسأله عن المسائل التي نحتاج إليها ، ثمّ أكثرنا من الذهاب إليه في الأيّام التالية حتّى طلبنا منه أن يأتي ويشاركنا في طعامنا لكي نستفيد من وجوده أكثر

فأكثر . فوافق على اقتراحنا وجاء معنا . فأُضيف إلى مجموعتنا شخص آخر .

وصلنا إلى المدينة المنوّرة ، وأنّى ذهبنا كنّا معاً لم نتفارق . ومعنا ذلك العالم ، وقد استفدنا منه كثيراً وسررنا غاية السرور بوجوده معنا . كان رجلاً خليقاً هادئاً صبوراً عالماً مفكّراً .

ذات يوم ذهبنا بمعيّته لزيارة مكتبة المدينة المنوّرة المعروفة . وكان أمينها شيخاً أعمى من أتباع المذهب الوهّابيّ . فجلس معنا ، وأخذنا نتجاذب معه أطراف الحديث ؛ ولمّا فهم أنّنا من إيران ومن أتباع المذهب الجعفريّ ، لم يترك شيئاً إلّا وقاله ضدّ الشيعة بكلمات نابية غير مؤدّبة ، فأخذ يوبّخ ، ويمتهن ، ويهين ، ويفتري بنسبتهم إلى الشرك ، واليهوديّة ، وا لمجوسيّة . وينتقد الأُصول والفروع كلّها ؛ ويقرأ رواية بلهجة عصبيّة ويبرّرها ؛ ويتلو آيات قرآنيّة ويشرحها . وهو يقصد إدانتنا في كلّ ذلك مستنتجاً أنّنا غير مسلمين ؛ لا نصلّي ؛ ولا نصوم ، وأنّ حجّنا للنزهة والسياحة ، لا للعبادة . وأنّ سجودنا على تربة الإمام الحسين نوع من عبادة الأصنام ؛ وأنّ زيارة القبور ، والطواف حول المشاهد المشرّفة ، وتقبيل الأضرحة والأبواب ، كلّ ذلك شرك وعبادة للموتى .

وكان يقول : الشيعة لا تعرف القرآن ولا تتلوه ، وتؤوّل معانيه ؛ وهذا دمار للقرآن ؛ ويجب أن يفسّر القرآن بمعناه الظاهر ، وأساساً فإنّ القرآن لا يجوز أن يُفسّر ، بل يجب الاكتفاء بظاهره .

إنّ النور المقصود في قوله تعالى : اللَهُ نُورُ السّمَوَ تِ وَالْأَرْضِ . (140) هو هذا النور الظاهريّ .

بينما يقول الشيعة ويكتبون في تفاسيرهم أنّ المراد من النور هو الحقيقة ؛ وهذا تفسير بالرأي ، وهو حرام .

يقول الشيعة : إنّ المقصود هو أنّ الله منير السماوات والأرض ؛ وهذا خلاف الظاهر .

القرآن يقول بصراحة : وَجَآءَ رَبّكَ . يقول الشيعة : القصد هو وَجَاءَ أَمْرُ رَبّكَ . وهذا المعنى غير صحيح .

وأطال الأعمى حديثه في هذا المجال . وكان العالم الذي معنا صامتاً

التامّة للذات ، وصفات الجمال والجلال لله جلّ وعلا . ومنها ينطلق عالم

جلسنا مجعولاً والوضعيّة بالجعل

ذات يوم جلسنا في زاوية من المسجد الحرام بعد القيام بالطواف المستحبّ لعدّة مرّات ؛ وذلك للزيارة ، والنظر إلى البيت ، ومراقبة كيفيّة طواف الناس .

ابن تيميّة بالقلعة ، فسجن بها حتّى مات في السجن . (141)

عاقبته أنّه يُمنى بمثل هذه الأباطيل والتخرّصات . فحبّة الفيروز

بعضنا همّ أن يقوم بوجهه ويصرخ قائلاً له : كلامك كلّه اتّهام باطل ،

وخلاصة القول

وجود استقلاليّ ؛ وأمّا لقاء الله فلا نظفر به ؛ لأنّنا لم نتوجّه إلى الله ؛ ولم نر الله في الإمام .

ولهذا فإنّ أغلب الذين يذوبون في عشق وليّ العصر والزمان ؛ وحتّى لو أفلحوا في زيارته ، فإنّهم أيضاً لا يتجاوزن الأهداف البسيطة والجزئيّة ؛

ومقامه في مراحل العرفان ومنازله مشهود من رسالته في السير والسلوك .

كان الشيخ أحمد الأحسَائيّ واضع حجر الأساس لطائفة الشَيْخيّة ؛ وهو معلّم السيّد كاظم الجيلانيّ الرشتيّ ومربّيه ؛ وهذا كان معلّم ومربّي السيّد علي محمّد البَاب مؤسّس الطائفة البابيّة ، وأخيراً البهائيّة . (142)

أُناشدكم الله ، أليس هذا الكلام مرتكزاً على تفكّير عقليّ ؟ ألا يلزم من

وحيث ما يوجد كلّ موجود ، فلابدّ أن لا تكون بينه وبين الحقّ أيّ فجوة وثغرة ، سواء في وجوده أو في علمه وقدرته وحياته ، وذلك لكي يكون موجوداً ، وإلّا فإنّ إيجاده محال .

ومرية من لقاء ربّهم ؛ وما أوهى هذا الشكّ ، وأبين خطبه وخطأه ! وربّهم

عرقه ، فهو يتمتّع بقابليّة يمكنه من خلال حركتها أن يوصل درجة

مُبْتَدِئٌ

يساويان خرق

ونضع لكتاب «الأسفار» عنوان الإنسان الكامل ، ويمكن القول حقّاً إنّه أحسن ما صنّف في هذا الموضوع لغاية الآن من حيث شموليّته ؛ ونذكر فيما يلي مقطعاً موجزاً منه كمثال :

لم يرد ، وأمره به ، فيجب عليه أن يقدّم أمر الرسول ونهيه على إرادته

ومن الحقول التي طبّقت فيها الولاية التشريعيّة لرسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم قصّة زينب . فقد زوّجها رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم بأمره الوَلائيّ من غلامه ودعيّه زيد بن حارثة ، وبعد أن طلّقها زيد ، تزوّجها رسول الله بأمره الوَلائيّ أيضاً .

وتوضيح ذلك : أنّ زَيْنَب وهي بنت عمّة النبيّ ، وأُمّها أُمَيْمَة بنت عبد المطّلب ، وكانت قد تزوّجت رجلاً اسمه جَحْش فأنجبت منه بنتاً تدعى زَيْنَب ، فزَيْنَبِ بِنْتُ جَحْشْ هي بنت أُمَيمَة بنت عبد المطّلب ، وبنت عمّة رسول الله .

وقال تعالى إِنّا جَعَلْنَا الشَّيَطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ . (143)

يدعو الشيطان إلى الفحشاء ، والمنكر ، والتباهي ، والاستكبار ، والشرك ، والكفر ، ويجرف الإنسان إلى الضلال والضياع ، ويعده بالخلود في عالم الغرور ؛ ويخيفه من الفقر والمصائب والمشاكل . ولكنّ الله يدعو إلى العدل ، والمعروف ، والصلاح ، والإحسان ، والتوحيد ، والعرفان والذوبان فيه .

ويهدي الإنسان إلى هذا الطريق ، ويعده بالخلود في الآخرة ، والبقاء ولقاء الله ، والفناء في أسمائه الحسنى وصفاته العُليا ، وذاته القدسيّة المقدّسة ؛ ويحذّر من الباطل ، والعبث ، والغرور ، ويدعو إلى دار السلام ومهد السعادة .

لذلك ، فإنّ سبيل ولاية الله ينحصر في الابتعاد عن الشيطان وآرائه وأفكاره . أي : في الحركة من عالم الكثرات والالتفات والانشغال بعالم الغرور إلى عالم الوحدة ، والعالم الأصيل وحقيقة العرفان واللقاء الإلهيّ .

واجتياز كثرات هذه العوالم وظواهر هذه النشآت والإعراض عنها وذلك بالمضي قُدماً للورود في وادي العرفان الأيمن بنداء الله أكبر . ولا يتحقّق هذا إلّا بنسيان الكثرة ، وذكر الله ، والتفكّر المتواصل فيه ، والبكاء على فراقه ، والاحتراق بنار هجرانه المتّقدة .

وما أروع الآية المباركة إذ تكشف لنا هذه الحقيقة ، وهي أنّ السبيل الوحيد للولاية هو ذكر الله ، وأنّ الغفلة عن ذكره تؤدّي إلى الانغماس في الضلالة ، قال عزّ اسمه : فَأَعْرِضْ عَن مّن تَوَلّى عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلّا الْحَيَوةَ الدّنْيَا * ذَ لِكَ مَبْلَغُهُم مّنَ الْعِلْمِ إِنّ رَبّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلّ عَن للولاية ، والوَلِيّ ، والمَوْلَى وغيرها جميعها . حيث قال في «تاج العروس» بأنّ للوليّ واحداً وعشرين معنى . تحوم حول معنى واحد هو أصل معنى الولاية وجذره ، ونقلت المعاني الأُخرى أيضاً مستعارة من ذلك المعنى ؛ أو أنّ أصل معنى الولاية في هذه المواضع جميعها محفوظ ؛ وغاية الأمر إنّهم لاحظوا . لسبب من الأسباب . المعنى الأصليّ بانضمام خصوصيّة أخذوها بنظر الاعتبار في الاستعمال .

وأصل ذلك المعنى هو الذي أُتي به الراغب في «المفردات» حيث قال في مادّة وَلْيّ . اَلْوَلَاءُ والتّوالِي أَنْ يَحْصُلَ شَيئانِ فَصَاعِداً حُصُولاً لَيْسَ بَيْنَهُمَا مَا لَيْسَ مِنْهُمَا . أي : لا حجاب ، ولا مانع ، ولا فصل ، ولا افتراق ، ولا غيريّة ، ولا بينونة بينهما بحيث لو فرضنا وجود شيء بينهما فهو منهما ؛ لا من غيرهما .

مثلاً ، يسمّون مقام الوحدانيّة بين العبد وربّه حيث لا حجاب في أيّ مرحلة من مراحل الطبع ، والمثال ، والنفس ، والروح ، والسرّ : ولايةً .

ويسمّون مقام الوحدة بين الحبيب والمحبوب ، والعاشق والمعشوق ، والذاكر والمذكور ، والطالب والمطلوب حين ينعدم أيّ انفصال بينهما بأيّ وجه من الوجوه : ولاية .

وفي ضوء ذلك ، فإنّ الله تعالى وليّ الكائنات جميعها في عالم التكوين بشكل مطلق . وإنّ الكائنات جميعها أيضاً وبلا استثناء وليّة الله تكويناً ؛ لأنّه لا حجاب بين الله الربّ وبين المربوبين إلّا أن يكون ذلك الحجاب منهما ؛ وأمّا في عالم التشريع والعرفان ، فإنّ ولاية الحقّ تخصّ الذين اجتازوا مراحل الشرك الخفيّ تماماً ، واخترقوا الحجب النفسانيّة كلّها ، وقرّ قرارهم في النقطة الأصليّة وحقيقة العبوديّة
.

وبهذا الميزان يقال لكلّ واحد من طرفي النسبة والإضافة : وليّ ، وَهُوَ الطّمَعُ ؛ وآخَرُونَ يَعْبُدُونَهُ فَرَقاً مِنَ النّارِ ، فَتِلْكَ عِبَادَةُ الْعَبِيدِ وَهِيَ الرّهْبَةُ ؛ وَلَكِنّي أَعْبُدُوهُ حُبّاً لَهُ عَزّ وَجَلّ ؛ فَتِلْكَ عِبَادَةُ الْكِرَامِ وَهُوَ الْأَمْنُ ؛ لِقَوْلِهِ عَزّ وَجَلّ : «وَهُم مّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ» وَلِقَوْلِهِ عَزّ وَجَلّ : «قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبّونَ اللّهَ فَاتّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ اللّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ» فَمَنْ أَحَبّ اللّهَ أَحَبّهُ اللّهُ عَزّ وَجَلّ ، وَمَنْ أَحَبّهُ اللّهُ عَزّ وَجَلّ كَانَ مِنَ الآمِنِينَ . (144)

أجل حقّاً ، فإنّ العبادة الحقيقيّة ليست معقولة بدون التوجّه إلى الله ؛ لذلك يتضاعف التوجّه بمضاعفة العبادة المستمرّة ؛ إلى أن تتراكم هذه التوجّهات تدريجاً فتصبح ملكة في النفس ؛ وتورثها اليقين والمعرفة والشهود . وهذا مبدأ عامّ وكلّيّ ، فضلاً عن وجود الشواهد القرآنيّة والروائيّة الجمّة عليه ، فإنّ الاعتبار العقليّ يدعمه أيضاً ؛ لأنّ حبّ كلّ شيء والشوق إليه يؤدّي إلى الانشداد والتعلّق به ؛ وهذا التوجّه الذي هو نفس العمل يوطّد ذلك الحبّ والشوق ويرسّخه في القلب ؛ وهذا الرسوخ الذي هو العلم يؤدّي إلى تأكيد رسوخ ذلك الشيء في القلب ؛ وإذا ما استقرّ ذلك الشيء في القلب مؤكّداً ، وأصبح ملكة ، فإنّ ظهوراته ستتجلي ، وآثاره وخواصّه كلّها ستشرق .

إلى أن يتمكّن الشخص العابد المتوجّه إلى محبوبه الحقيقيّ ومعبوده الحقّ أن يشاهد ربّه تدريجيّاً ؛ ويعرفه ، ويعرف أيضاً نفسه والكائنات كلّها في الله ومع الله ؛ وفي هذه الحالة فإنّ التوجّه العباديّ سيثبت في مكانه ويستقرّ في محلّه ؛ لأنّ العبادة ما لم تتجسّد في رؤية المعبود على صعيد الشهود والوجدان والحضور ، فإنّها ليست أكثر من عبادة تصوّريّة ؛ وليست حقّ عبادة المعبود ؛ وذلك لأنّ معبوده صورة فكريّة وذهنيّة محدودة ؛ وقال تعالى إِنّا جَعَلْنَا الشّيَطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ . (145)

يدعو الشيطان إلى الفحشاء ، والمنكر ، والتباهي ، والاستكبار ، والشرك ، والكفر ، ويجرف الإنسان إلى الضلال والضياع ، ويعده بالخلود في عالم الغرور ؛ ويخيفه من الفقر والمصائب والمشاكل . ولكنّ الله يدعو إلى العدل ، والمعروف ، والصلاح ، والإحسان ، والتوحيد ، والعرفان والذوبان فيه .

ويهدي الإنسان إلى هذا الطريق ، ويعده بالخلود في الآخرة ، والبقاء ولقاء الله ، والفناء في أسمائه الحسنى وصفاته العُليا ، وذاته القدسيّة المقدّسة ؛ ويحذّر من الباطل ، والعبث ، والغرور ، ويدعو إلى دار السلام ومهد السعادة .

لذلك ، فإنّ سبيل ولاية الله ينحصر في الابتعاد عن الشيطان وآرائه وأفكاره . أي : في الحركة من عالم الكثرات والالتفات والانشغال بعالم الغرور إلى عالم الوحدة ، والعالم الأصيل وحقيقة العرفان واللقاء الإلهيّ .

واجتياز كثرات هذه العوالم وظواهر هذه النشآت والإعراض عنها وذلك بالمضي قُدماً للورود في وادي العرفان الأيمن بنداء الله أكبر . ولا يتحقّق هذا إلّا بنسيان الكثرة ، وذكر الله ، والتفكّر المتواصل فيه ، والبكاء على فراقه ، والاحتراق بنار هجرانه المتّقدة .

وما أروع الآية المباركة إذ تكشف لنا هذه الحقيقة ، وهي أنّ السبيل الوحيد للولاية هو ذكر الله ، وأنّ الغفلة عن ذكره تؤدّي إلى الانغماس في الضلالة ، قال عزّ اسمه : فَأَعْرِضْ عَن مّن تَوَلّى عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلّا الْحَيَوةَ الدّنْيَا * ذَ لِكَ مَبْلَغُهُم مّنَ الْعِلْمِ إِنّ رَبّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلّ عَن ومتفرّقات الأخبار في هذه المعاني أكثر من أن تحصى ، وقد عدّوا جمعاً من أصحاب النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم وأئمّة أهل البيت سلام الله عليهم من أصحاب الأسرار ، كسَلْمَان الفارسيّ ، وأُوَيْسِ الْقَرَنِيّ ، وكُمَيْل بن زياد النخعيّ ، ومَيْثَم التمّار الكُوفيّ ، ورُشَيْد الهَجَريّ ، وجَابِرِ الْجُعْفِيّ رضوان الله تعالى عليهم أجمعين . (146)

تدلّ الآية الكريمة التي صدّرنا بها درسنا هذا ، أعني : قوله تعالى : النّبِيّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ على ولاية رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم على جميع المؤمنين ، وإطلاق هذه الولاية في المجال التكوينيّ والتشريعيّ ، بل حقيقة الولاية في مجال التكوين والحقيقة ، وبعد ذلك في مجال التشريع والاعتبار .

ومعنى الولاية التكوينيّة : أنّ رسول الله . حقّاً . هو الواسطة والحجاب بين العبد وربّه ؛ وأنّ جميع الفيوضات تفاض من الله على العباد ، كالحياة والعلم والقدرة وغيرها بواسطته حيث يمثّل مرآة الحقّ ، وهو في مقام الولاية وبدون واسطة .

ومعنى الولاية التشريعيّة : أنّ إرادة رسول الله مقدّمة على كلّ إرادة في مقام اتّخاذ القرار ، والاختيار

للمؤمنين ، وتحلّ إرادته بديلة عن إرادة المؤمن . أي : أنّ المؤمن إذا أراد أن ينجز عملاً ، ومنعه رسول الله ، أو إذا لم يرد ، وأمره به ، فيجب عليه أن يقدّم أمر الرسول ونهيه على إرادته وخيرته . ويطبّق أوامره ، سواء في الحرب أو في السلم ، وسواء في أخذ المال أو إعطائه . وسواء في النكاح أو الطلاق أو الجلاء عن الوطن ، أو الْجَاهِلِيّةَ وَأَوّلُ رِباً وَضَعَهُ رِبا عَمّهِ الْعَبّاسِ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ . (147)

وعندما أراد أن يضع دماء المشركين وغير المسلمين ، فقد بدأ بدم ابن عمّه : رَبيعَة بن الحارث بن عبد المطّلب الذي أُريق أيّام الشرك في الجاهليّة ، حيث قتله هُذَيْل . كما جاء في خطبته ، حيث ورد :

وَوَضَعَ الدّماءَ فِي الْجَاهِلِيّةِ وَأَوّلُ دَمٍ وَضَعَهُ دَمُ ابْنِ عَمّهِ رَبِيعَةَ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ عَبْدِ الْمُطّلِبِ قَتَلَهُ هُذَيْلٌ .

فَقَالَ : أَوّلُ دَمٍ أَبْدَأُ بِهِ مِنْ دِمَآءِ الْجَاهِلِيّةِ مَوْضُوعٌ فَلَا يُطَالَبُ بِهِ فِي الإسْلَامِ . (148) وقال في الخطبة : إنّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ حَرَامٌ عَلَيْكُمْ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا ، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا (149) فِي بَلَدِكُمْ هَذَا . ألاكُلّ شَيْءٍ مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيّةِ تَحْتَ قَدَمِي مَوْضُوعٌ ؛ وَرِبَا الْجَاهِلِيّةِ مَوْضُوعٌ ؛ وَأَوّلُ رِبا أَضَعُ رِبا الْعَبّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطّلِبِ .

وعندما أراد النبيّ الأكرم صلّى الله عليه وآله وسلّم أن يطبّق الأمر الأوّل ، وهو التزاوج بين الأشراف والضعفاء ، فإنّه أراد أن يطبّقه على عشيرته الأقربين ، فذهب عند زَيْنَب بنت جَحْش (بنت عمّته) وخطبها لزَيد بن حَارِثَةِ غلامه ودعيّه ، فعزّ على زينب هذا الأمر كما جاء في تفسير «الدرّ المنثور» :

أخرج ابن جرير عن ابن عبّاس ، قال : خَطَبَ رَسُولُ اللهِ صَلّى اللّهُ عَلَيهِ [وَآلِهِ] وَسَلّمَ زَيْنَبَ بِنْتَ جَحْشٍ لِزَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ فَاسْتَنْكَفَتْ مِنْهُ ظاهره هو نفس الجواب الذي قدّمناه في مجالات متعدّدة ؛ وهو : أنّ صفات الله هي صفات لله بالأصالة ، ولغيره بالتبعيّة . فالله نور والآخرون شعاع من هذا النور : والله نور وما عداه ظلّ .

فلا تناقض عندئذٍ ، لأنّ ولاية رسول الله وأمير المؤمنين هي من ولاية الله وبها .

ومثل هذه المسألة كثير في القرآن الكريم . ومن ذلك قوله جلّ اسمه :

أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزّةَ فَإنّ الْعِزّةَ لِلّهِ جَمِيعًا . (150)

وقوله : مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزّةَ فَلِلّهِ الْعِزّةُ جَمِيعًا . (151) بينما يقول في موضع آخر : وَلِلّهِ الْعِزّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنّ الْمُنَفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ . (152)

عزّة الله هي لله ولذاته ؛ وعزّة رسول الله والمؤمنين هي من الله ، وعرضيّة بالنسبة إليهم . كذلك الولاية فهي لله ذاتيّة ، ولغيره عرضيّة . كوجه صاحب الصورة ، فهو له ذاتيّ ، وللمرآة التي ينظر فيها عرضيّ .

وليس لأحد أن يسلب شكله وصورته من نفسه ؛ بَيدَ أنّه يستطيع أن ينظر في المرآة فينعكس فيها وجهه ، ويستطيع أن يرفع وجهه عن المرآة ؛ فلا يُرَى فيها حينئذٍ وجه ملحوظ .

إنّ وَلاية الله من الصفات والأسماء من لوازم ذاته ؛ وهي ولاية بالأصالة والحقيقة ؛ بَيدَ أنّ الولاية الإلهيّة الكلّيّة والعامّة والمطلقة